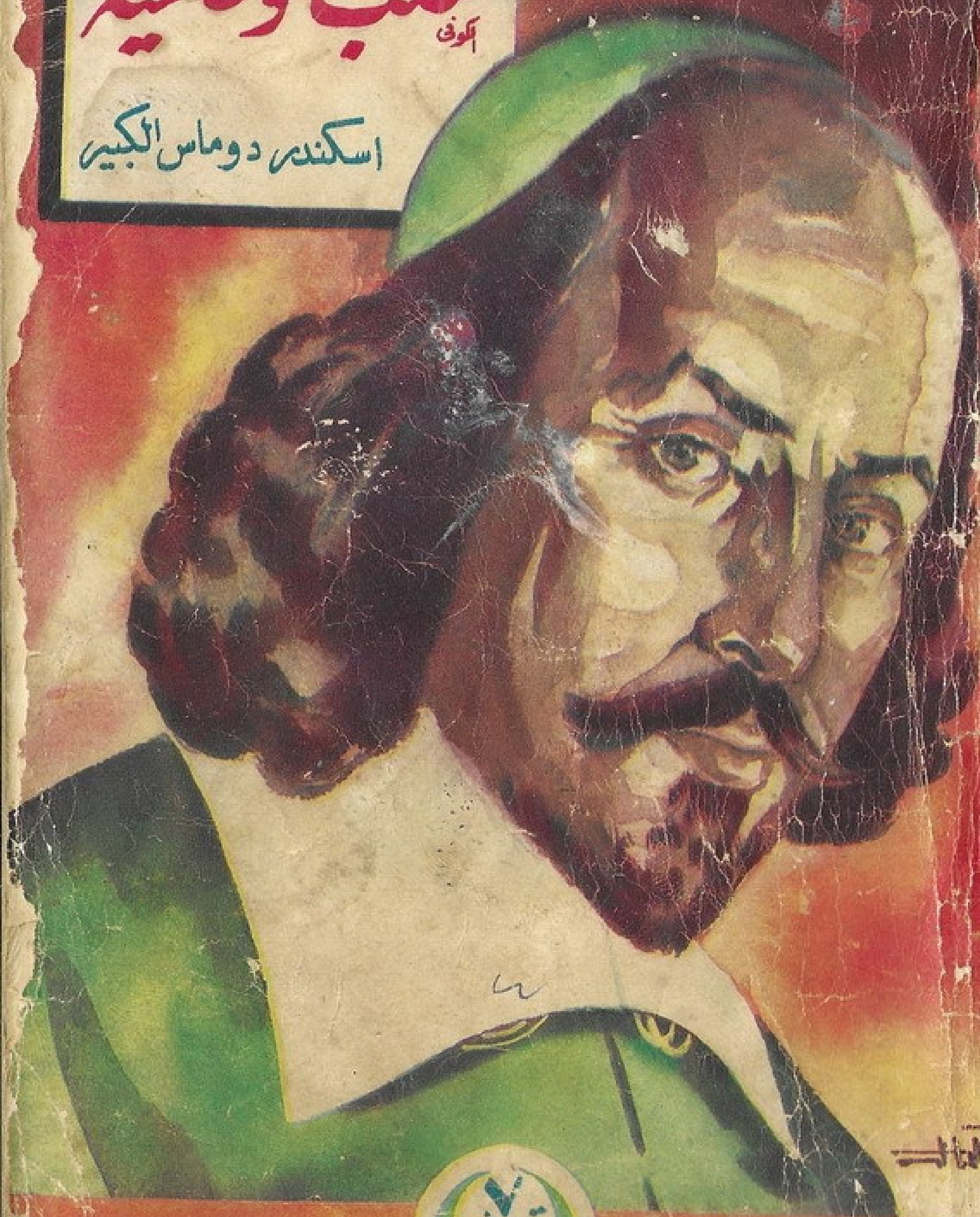
شعب وطاغية

اسكندر دوماس الكبير



٧ قروش

روايات الهلال

روائع القصص العالمي

روايات الهلال

REWAYAT AL-HILAL

تصدر عن (دار الهلال) شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العدد ٥٥ * يوليه ١٩٥٣ * ذو القعدة ١٣٧٢

No. 55 * July 1953

بيانات ادارية

ثمن العدد فى مصر والسودان ٧٠ مليما ــ فى الأقطار العربيــة عن الكميات المرسلة بالطائرة : فى سوريا ٩٠ قرشا ســوريا ــ فى لبنــان ٩٠ قرشا لبنــانيا ــ فى الاردن ٩٠ فلســا ــ فى العــراق ٩٠ فلســا

قيمة الاشتراك عن سنة (١٢ عددا) : فى القطر المصرى والسودان ٧٠ قرشا صاغا ــ فى سوريا ولبنان (بالطائرة بواسطة شركة فرج الله فى بيروت) ٩٧٥ قرشا سوريا أو لبنانيا ــ فى المملــكة العربيــة السعودية والعراق والأردن ٩٠ قرشا صاغا ــ فى الامريكتين ٤ ١/٢ دولارات ــ فى سائر أنحــاء العالم ١٢٢ قرشا صاغا أو ٢٥ شلنا

طريقة الدفع

فى مصر والسودان : نقدا او بموجب اذونات او حوالات بريدية او شيكات ــ **فى خارج القطر المصرى** : بموجب حوالة مصرفية على أحد بنوك القاهرة او حوالة نقدية (Money Order) او الى أحد وكلائنا اذا كان هناك وكيل . ولا يمكن قبــول أذونات البريد او اوراق البنكنــوت

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بك ــ القاهرة

المكاتبات : روايات الهلال ــ بوستة مصر العمومية ــ مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

كلمة التحرير

هذه الرواية هى « الثانية » فى سلسلة روايات اسكندر دوماس الكبير ، بعد روايته الأولى « الفرسان الثلاثة » التى قدمناها للقراء على جزءين فى شهرى مارس وابريل الماضيين . وهى تتضمن مغامرات الفرسان الثلاثة فى عهد لويس الثالث عشر ، وهو عهد كله ظلم وفساد

أما هذه الرواية ، فهى امتداد لذلك العهد الفاسد بعد مضى عشرين سنة ، وقد توفى لويس الثالث عشر وخلفه ابنه الصبي لويس الرابع عشر ، واستبد بشؤون الملك الكردينال مازاران وزير فرنسا الأكبر وخليفة الكردينال ريشيليو ، وزوج الملكة الوالدة « آن النمسوية » بعقد سرى

ومع أن موضوع هذه الرواية مستقل بحوادثه عن « الفرسان الثلاثة » ، فقد آثرنا أن نقدم للقراء — فيما يلى — خلاصة وافية للرواية الأولى ، لأنهما تمثلان حياة هؤلاء الفرسان فى دورى الشباب والكهولة ، ولأن موضوعهما يتناول الدفاع عن الحرية والعدالة والثورة على الفساد والطغيان والانتصار للكرامة والشرف

وقد أطلق دوماس على هذه الرواية اسم « بعد عشرين سنة » واخترنا لترجمتها « شعب وطاغية » تمشياً مع الظروف الحاضرة ، ولأنها تتضمن الثورة على الطاغية مازاران الذى اتخذ من ضعف الملكة وفساد الحكم الملكى فى فرنسا وسيلة لتحقيق أغراضه وشهواته . وقد تضمنت هذه الرواية ثورة الشعب الانجليزى على الملك شارل الأول وخلعه وإعدامه وإلغاء الملكية فى ذلك الحين !



أما الرواية التالية فهى « الغانية اللعوب » للروائى الروسى الكبير ايفان تورجنيف ، وتصدر فى ١٥ أغسطس القادم . وتدور حول مأساة عجيبة تطورت حتى أصبحت ظاهرة اجتماعية فى روسيا . وهى قصة الحرية والحب والطغيان ، وتتناول فيما تتناول انحلال « الطبقة الراقية » فى روسيا فى عهد حكومة القيصر . وتعد من أساطين الثورة الروسية ، ويمتاز المؤلف بعمق التحليل ، وبراعة الوصف ، وقوة التأثير ، والمهارة فى ابراز المواقف الشائقة . ويعتبر تورجنيف من عباقرة الأدب الروسى ، ومن أقدر الروائيين فى العالم فى تحليل الشخصيات والحوادث . وقد اعترف له بهذه المكانة جميع النقاد الثقات فى جميع الدول الكبرى

شعب وطاغية

تأليف

اسكندر دوماس الكبير



ملخص الفرسان الثلاثة

دارتانيان شاب فى مقتبل العمر هو سليل أسرة عريقة فقيرة فى بعض نواحي جاسكونيا – ذلك الاقليم الفرنسى الذى اشتهر أهله بالذكاء وحدة الطبع . وكان أبوه قد حارب فى صفوف هنرى الرابع ، ولما شب ولده عن الطوق علمه المبارزة بالسيف حتى برع فيها . ثم رغب الشاب فى الهجرة إلى باريس لينشد فيها مستقبله ، فزوده أبوه بثلاث هدايا : هى حصان عجوز برتقالي اللون ، وقدر قليل من النقود ، وخطاب توصية منه إلى صديقه ومواطنه القديم المسيو دى تريفيل رئيس فرقة فرسان الملك

وفى طريقه إلى باريس تشاجر مع نبيل اسمه الكونت دى روشفور من رجال الكاردينال دى ريشيليو ، ولما هم دارتانيان بمبارزته انقض عليه أتباع هذا النبيل وضربوه . ولما أفاق من إغمائه وجد أن خطاب التوصية قد سرق منه . ومع ذلك ذهب إلى المسيو دى تريفيل فى باريس فوضعه هـنـا تحت حمايته . وقد صادف فى بيته الفرسان الثلاثة : آتوس ، وأراميس ، وبورتوس ، الذين اشتهروا بشجاعتهم الفائقة وتفوقهم فى المبارزة . ولم يكد يهم بمبارزتهم حتى انقض عليهم حرس الكاردينال يريدون القبض عليهم لأن المبارزة محرمة قانوناً . وكان هناك تنافس خفى على السلطة بين الملك لويس الثالث عشر وبين وزيره الأول الكاردينال دى ريشيليو . وقد نشأ من هذا التنافس عداء صريح بين فرسان الملك وحراس الكاردينال يستعر أواره من حين إلى حين . وعندئذ انضم دارتانيان الى الفرسان الثلاثة ، وبفضل شجاعته وبراعته فى المبارزة تغلبوا على حراس الكاردينال ، ومنذ ذلك توطدت الصداقة بينه وبين أولئك الفرسان ، وبدأ اسم دارتانيان يلمع فى القصر الملكى .

وتنتقل بنا حوادث الرواية إلى الملكة آن النمسوية الأصل قرينة لويس الثالث عشر ، فإن الكاردينال دى ريشيليو يحقد عليها ويكيد لها ، منذ تودد إليها فردته خائباً . . وقد علم من عيونه الذين بثهم حولها ، أنها تحب دوق بكنجهام رئيس وزراء ملك الانجليز ، فاستدعاه الى باريس بخطاب مزيف منسوب إليها لكى يوقع به وبها ، وجاء الدوق واستطاع أن يلتقى بالملكة خفية برغم أعين الرقباء . وفى ذلك اللقاء طلبت إليه أن يقطع صلته بها وأن ينساها ، وأعطته هدية تذكارية هى علبة بها اثنا عشر زراً ماسياً كان لويس الثالث عشر قد أهداها إليها . وقد علم الكاردينال بذلك فاحتال حتى أغرى لويس الثالث عشر بأن يقيم حفلة راقصة بدار

البلدية ويطلب إلى الملكة حضورها حاملة على ثوبها تلك الأزرار الماسية الاثنى عشر

وكان الكاردينال قد بعث اللادى دى ونتر ــ المرأة الحسناء الغامرة ــ إلى لندن حيث اتصلت بالدوق بكنجهام ، ثم غافلته وهى تراقصه فسرقت زرين من تلك الأزرار ، وهكذا أراد الكاردينال أن يثبت على الملكة صلتها بالدوق لعجزها عن الظهور فى الحفلة وعليها الأزرار كاملة العدد

وكان للملكة خادمة مخلصة أمينة هى خياطتها الخاصة مدام بوناسيه الحسناء ، وهى التى يسرت لقاءها الخفى بدوق بكنجهام . وكانت تلك الشابة متزوجة من شيخ شحيح يسكن تحت مسكن دارتانيان وقد خلصها الأخير من رجال الكاردينال حين هموا بالقبض عليها فى بيتها ومنذ ذلك تبادل وإياها الحب . فالجأت إلى دارتانيان وطلبت إليه أن يسافر إلى لندن ليقابل دوق بكنجهام ويفضى إليه بالحرج الذى أصبحت فيه الملكة آن ويستعيد منه الأزرار الاثنى عشر . وعرض دارتانيان على أصحابه الفرسان الثلاثة أن يصحبوه فى تلك الرحلة ، ولكن كان أعوان الكاردينال قد دبروا لهم من يعوقهم فى الطريق ، فترك دارتانيان كلا منهم مشغولا بمبارزة ، وواصل الرحلة مع خادمه بلانشيه حتى وصلا الى لندن

ولما وجد دوق بكنجهام أن الأزرار الماسية قد نقصت زرين أمر بعمل بديل منهما بأسرع وقت ، وهكذا عاد الشاب دارتانيان بالأزرار الماسية كاملة العدد وسلمها إلى حبيبته مدام بوناسيه ، فأعطتها هذه إلى الملكة ، فظهرت بها فى الحفلة ، وفشلت محاولة الكاردينال للانتقام منها

على أن أعوان الكاردينال لم يلبثوا حتى اختطفوا مدام دى بوناسيه بمعاونة زوجها الشيخ الذى نقم عليها حبها لدارتانيان وأغراه عطاء الكاردينال أيضاً ... فكاد دارتانيان يجن من الحزن عليها ، وعاد يبحث عن أصدقائه الفرسان الثلاثة الذين كان قد خلفهم فى طريقه إلى لندن ، ليساعدوه فى البحث عنها



غادر دارتانيان باريس للبحث عن صديقته مدام بوناسيه خياطة الملكة بعد أن اختطفها أعوان الكاردينال ريشيليو انتقاماً منها لافسادها خطتهم لفضح علاقة الملكة بدوق بكنجهام . ولكن دارتانيان لم يعثر على أثر لصديقته ، برغم المساعدات التى قدمها له زملاؤه : آتوس وأراميس ، وبورتوس . ثم حدث أن تعرف إلى اللادى دى ونتر فأعجب بها برغم اعتقاده أنها من أعوان الكاردينال ، وفى خلال زياراته المتعددة لها أغرمت به وصيفتها الحسناء كيتى ، وما لبثت قليلا حتى كاشفته بحبها له ، وبأن اللادى لا تحبه بل تحب الكونت دى وارد ، وتنوى هذا بقتله انتقاماً منه لأنه لم يقتل اللورد دى ونتر فى مبارزته له ، فحرم ابنها بذلك من ميراث كبير !

واستطاع دارتانيان بمساعدة كيتى أن يستولى على خطابات اللادى إلى الكونت . وأن يرد عليها هو منتحلا شخصية الكونت ، ثم يقابلها باسم هذا فى خلوة بغرفتها المظلمة ويحصل منها على خاتم تبين فيما بعد أنه كان لزميله آتوس ومنحه لامرأة أحبها فيما مضى . ثم قابلها بعد ذلك باسمه الحقيقى وصرح لها بحقيقة ما حدث ، فكادت تجن من الغيظ وقامت بينهما معركة انتهت بوقوفه على سر خطير هو وجود وشم يمثل زهرة الزنبق على كتفها دلالة على الحكم عليها فى إحدى الجرائم ، وكادت تقتله بالخنجر لولا مسارعته إلى مغادرة غرفتها

وسافر دارتانيان بعد ذلك مع زملائه الفرسان إلى مدينة لاروشيل ، ضمن الجيش الذى أرسله الكاردينال لحصارها والاستيلاء عليها ، وفى الوقت نفسه كان دوق بكنجهام قد استولى على جزيرة « ريه » الفرنسية بأسطوله البريطانى ، فنشبت الحرب بين فرنسا وانجلترا ، وأصيب الانجليز بخسائر فادحة اضطرتهم إلى اخلاء الجزيرة ، فتفرغ الفرنسيون لحصار لاروشيل ، وعهد الكاردينال ريشيليو إلى اللادى دى ونتر فى التسلل إلى لندن لتقابل دوق بكنجهام وتنذره بأن شرف الملكة التى يحبها بل حياتها أيضاً سيكونان فى خطر ان لم يعدل عن تنفيذ الخطط الحربية التى أعدها لغزو فرنسا ، كما تعهد الكاردينال للادى باطلاق يدها فى الانتقام من دارتانيان وصديقته مدام بوناسيه التى كانت قد زج بها فى السجن ثم نقلت منه بسعى الملكة إلى دير منعزل

وفى أثناء الحصار تعرض الفرسان الثلاثة وزميلهم دارتانيان لاخطار عدة كادت تودى بحياتهم بتدبير اللادى دى ونتر ، ثم اتفقوا على ارسال خطاب إلى اللورد دى ونتر كشفوا فيه عن شخصيتها الموسومة بالاجرام وزيف ادعائهـا الانتساب إلى أخيه بدافع الطمع فى ميراثه ، كما أرسلوا خطابا إلى الملكة ضمنوه أن هناك مؤامرة لاغتيـال دوق بكنجهام . فكانت النتيجة أن قبض على اللادى عند وصولها إلى انجلترا بأمر اللورد دى ونتر حيث زج بها فى سجن إحدى القلاع هناك . ولكنها استطاعت الفرار من سجنها بواسطة ضابط شاب ، كما أغرت هذا الضابط نفسه باغتيال دوق بكنجهام فى الوقت الذى أبحرت فيه هى إلى بور تسموث لتعود إلى فرنسا من هناك ، وقد تمكن الضابط الشاب من اغتيال الدوق بينما واصلت اللادى رحلتها حتى وصلت إلى « بيتون » بفرنسا حيث كانت مدام بوناسيه فى دير هذه البلدة ، فقابلتها هناك بوصفها صديقة لدارتانيان بعث بها لانقاذها ، ثم قتلتها بالسم وغادرت الدير هاربة فى الوقت الذى شعرت فيه بوصول دارتانيان وزملائه إلى الدير فلم يدركوا المسكينة إلا جثة هامدة ، ولكنهم تمكنوا من القبض على اللادى حيث اقتصوا منها باعدامها ضربا بالسيف وألقوا جثتها فى النهر

شخصيات الرواية

مازاران : وزير فرنسا الكردينال ، وزوج الملكة الوالدة بعقد سرى

الملكة آن : الملكة الوالدة ، أم لويس الرابع عشر الطفل

دارتانيان : ملازم الفرسان بالقصر الملكى ، شجاع جداً

بورتوس : من الأعيان ، عملاق قوى البنية طيب القلب محب للمظاهر ، بطىء الفهم

آتوس : الكونت دى لافير ، سليل أسرة نبيلة ، مثال الأرستقراطية والنزاهة والأنفة والشجاعة

راؤول : ربيبه وابنه بالتبنى ، فيكونت براجيلون ، وسيم وشجاع ونبيل

آراميس : شيفالييه ديربلاى .. دخل سلك الرهبنة ، ولكنه شجاع ماكر ، مؤمن بالمبادىء التحررية المعارضة لسلطان القصر

الدوق اورليان : عم الملك لويس الرابع عشر وعميد الأسرة المالكة الفرنسية

الدوقة دى لونجفيل : سيدة حسناء كانت عشيقة لأراميس وهو فى الدير

موردانت : انجليزى أمه فرنسية ، قتلها الفرسان الأربعة منذ عشرين سنة ، وهو يبحث عنهم ليقتلهم انتقاماً

الملكة هنرييت : عمة الملك ، وملكة انجلترا ، وزوجة شارل الأول

شارل الاول : ملك انجلترا الذى ثار عليه البرلمان بقيادة كرمويل وحوكم وأعدم

جرسلو : ضابط انجليزى عهدت إليه حراسة الملك الأسير

جريمو
موسكيتون
وبلانشيه
} أتباع وخدم للفرسان



الكردينال مازاران

فى حجرة فسيحة من قصر الكردينال ـ الذى تغير اسمه فيما بعد وصار القصر الملكى «باليه رويال» ـ جلس رجل معتمداً بوجهه على راحتيه ، ومن خلفه مدفأة كبيرة تتوهج فيها النيران ، وأمامه مائدة مثقلة بالأوراق الكثيرة

وإن من يرى ما فى تلك الحجرة من فرش وزخارف حمراء ، ويحس ذلك السكون المطبق الذى يحيط بها ، حرى أن يحسب نفسه فى حضرة وزير فرنسا العظيم الكردينال ريشيليو . ولكن ليس الأمر كذلك وا أسفاه ، فما هذا الجو وما هذا الرجل إلا ظل الكردينال ، وما شبحه إلا خليفته مازاران ، ذلك الايطالى البخيل الذى يكرهه الشعب الفرنسى ، وإنه فى هذه اللحظة شاعر بما يكتنفه من كراهية ، لولا حظوته لدى الملكة الوصية على العرش حتى لقد عقدت زواجها منه سراً واستوزرته ، فجمع فى عداء النبلاء ، ثم زاد على ذلك بتحدى كبار رجال القضاء والاعتداء على سلطاتهم ، أما الشعب فقد أثقل كاهله بالضرائب الباهظة

وقد جرت هذه السياسة الحمقاء التى جرى عليها مازاران أسوأ النتائج فى موقف طبقات الأمة من العرش ، وهرع التجار متذمرين ذات يوم من يناير إلى دوق اورليان عم الملك الغلام واستصرخوه لالغاء ضريبة جديدة غير مشروعة فرضت عليهم . وبعد أربعة أيام كانت الملكة الوصية على العرش فى طريقها إلى الصلاة فى كنيسة نوتردام فتبعتها جموع النساء صائحات فى طلب العدل ، فشمخت الملكة الوصية بأنفها ، وغمضت بخيلائها ، ومضت فى طريقهـا كأنها لاتحس لهن وجوداً . وفى عصر ذلك اليوم اجتمع مجلس الوزراء وقرر وجوب المبادرة بتعزيز هيبة العرش ، ولهـذا رؤى دعوة البرلمان للاجتماع فى صباح اليوم التالى

وفى مساء ذلك اليوم الذى بدأنا الكلام بتصويره ، خف الملك الذى لم يجاوز العاشرة من عمره ـ متعللا بالتوجه إلى كنيسة نوتردام لصلاة الشكر لابلاله من الحصبة ـ فاتخذ لنفسه موكباً من الحرس السويسرى والمشاة والفرسان ، وقد رتب هؤلاء جميعاً على المنافذ المحيطة بالقصر ثم دخل قاعة البرلمان وأملى بنفسه لاتأييد الضرائب الأخيرة فحسب ، بل ستة قوانين أخرى تتنافس فيما بينها أيها أشد وطأة وأدعى للخراب والافلاس

الشعب . فاذا بالمستشار بروسل ينهض فى جرأة وشجاعة ويعلن الاحتجاج على تسخير الملك الطفل فى الضغط على حرية أعضاء البرلمان

وخرج الملك المظفر من البرلمان إلى القصر فلم ترتفع من الجموع هتفة واحدة لتهنئته بالشفاء ، بل قوبل بوجوم اجماعى لاشك فى دلالته . ثم ارتفعت فجأة هتافات مدوية :

— ليسقط مازاران ! ليحي بروسل !

لهذا صدرت الأوامر إلى رجال الحرس السويسرى وحرس الملك أن يظهروا الحزم ويطوفوا بالشوارع فى داوريات ..

وما بدأت هذه الداوريات العدائية حتى اتجه سر تجار باريس إلى الباليه رويال وأعلن أنه مالم تقف هذه المظاهرة العسكرية المثيرة ، فستكون باريس على بكرة أبيها شاكية السلاح دفاعا عن حرية أهلها . .

وشرع أصحاب الشأن يتداولون فى هذا الانذار ، وإذا بضابط من ضباط الحرس يدخل القصر ممزق الثياب ، يسيل دمه على وجهه . فان الجماهير قد استثارتها رؤية رجال الحرس المسلحين ، فقرعوا النواقيس ، وأقاموا المتاريس . وقد تمكن ذلك الضابط من القبض على واحد من أفراد الشعب الثائرين وأمر جنوده بشنقه حتى الموت فى أعلى شجرة فى الطريق. وهم الجنود بتنفيذ ذلك الأمر لولا أن خرج عليهم جمع كثيف من سوقة باريس فرجموا الجنود بوابل من الحجارة وانهالوا عليهم بالعصى الغليظة ، حتى أنقذوا أسيرهم فنجا بحياته ، واختفى فى بيت وتحصن ببابه ، فدهمه الجنود ، غيرأنهم لم يعثروا لفريستهم على أثر . فرجع الضابط وجنوده إلى القصر ليرفع تقريره عن الحادث إلى مقام الملكة ، وقد طاردهم الثوار حتى مزقوا ثيابهم وأثخنوهم بالجراح

وبادر الكردينال مازاران إلى إذاعة بيان على الشعب فحواه أن الطوابير لم يكن القصد منها إلا أداء مراسم الاحتفال ، ثم بادر أيضاً بعد ذلك بسحب الجنود من الشوارع ، حتى إذا كان المساء لم يكن لهم أثر إلا فى المواقع المحيطة بالقصر

هذا هو الموقف فى اللحظة التى فاجأنا فيها الكردينال غارقا فى حجرة مكتبه فى الهموم والأفكار . وفجأة رفع رأسه وقطب حاجبيه كمن اعتزم أمراً ، وحدق فى المزولة التى تبين الوقت فتبين أن الساعة تقارب العاشرة ، فتناول صفارة أمامه ونفخ فيها مرتين ، فانفرجت الستائر عن باب خفى انفتح وبرز منه رجل فى بزة سوداء هو خادمه « برقوان » ، فقال له الكردينال دون أن يلتفت اليه :

— من من ضباط حرس الفرسان هنا ؟

— اللازم دارتانيان

— إيتني بزى حرس الفرسان وساعدني على ارتدائه ..

وما هي إلا لحظة حتى كان الكاردينال قد لبس ذلك الزى ، فدعا اليه دارتانيان ، فاذا رجل يشارف الأربعين من عمره ، ربعة القوام ، متين التكوين ، حاد النظرات ، له لحية سوداء وشعر أشهب دب اليه المشيب ، وتلوح عليه أمارات الذكاء . فرمقه الكردينال بنظرة فاحصة لم يطرف تحت وقعها ، وقال :

— ستصحبني ياسيدى في زيارتي لمواضع الجنود حول القصر ، فهل تحسب في الأمر خطراً ؟ فالشعب فيما يقولون متمرد

— ان زى حرس الفرسان له من الهيبة والاحترام ما يحول دون وقوع أى حادث ، وحتى إذا لم يكن الأمر كذلك ، ففي وسعى إذا كان معى ثلاثة فرسان أن أركن مئات من الرعاع إلى الفرار

— إذن هيا بنا ولنصحب معنا ثمانية على سبيل الاحتياط

وما انقضت عشر دقائق حتى كانت الكوكبة قد خرجت من باب سرى إلى الشوارع المقفرة ، التي يعكر صمتها طلقات البنادق المتقطعة من بعيد ، فروا للتفتيش بأكثر من موقع ، حتى وصلوا إلى موقع يشرف عليه ضابط مسن ، اسمه «جينو» ، اختلى به « مازاران » وراح يسأله عن معلوماته بوصفه من أقدم رجال البلاط عن « دارتانيان » ومدى الاعتماد عليه ، فأجابه قائلا :

— إذا أردت الشجاعة ، فهو جندى متمرس بالحرب صعب المراس متفان فى أداء واجبه

— ليست الشجاعة كافية ، نخبرنى عن مهارته وسعة حيلته

— ليس لى بهذا علم ، وانما علمه عند السيد دى روشفور ، فهو الذى خبر دسائس البلاط فى عهد ريشيليو . وعنده ولاشك الخبر اليقين عن حقيقة الخدمات التى أداها دارتانيان للكردينال ، ولا تنس ان الكردينال كان سخياً

فشكره مازاران وانصرف وقد فهم التعريض المقصود من تذكيره بكرم الكردينال ريشيليو . فلما لحق بدارتانيان تناول ورقة وقلماً فكتب كلمات ، ثم أعطاه إياها قائلا :

— احمل هذا الأمر الى سجن الباستيل ، وإيتنى بالشخص الذى سيسلمونه اليك فى عربة مقفلة عليها حراسة شديدة جداً ، واحذر أن يفر السجين من بين يديك



وصل دارتانيان الى الباستيل فى منتصف الساعة التاسعة ، فما أن علم مدير السجن انه موفد من قبل مازاران حتى بادر الى استقباله بكل حفاوة ، ودعاه الى تناول العشاء معه ، ولكن دارتانيان اعتذر عن ذلك وأشار الى كلمة «عاجل جداً» المكتوبة على المظروف ،

فقام المدير من فوره وكلف أركان حربه بانزال السجين رقم ٢٥٦

وشعر دارتانيان برجفة تعتريه لسماع صوت المفاتيح الضخمة ، وتشبث بركاب جواده وهو يتطلع الى الأسوار الضخمة والقضبان الحديدية المخيفة . ثم رن صوت ناقوس ، فتركه المدير قائلا :

— إنهم يدعوننى لتوقيع أمر خروج السجين . فالى اللقاء.

وبعد لحظة قصيرة ظهر السجين على باب السجن ، فما أن رآه دارتانيان حتى استولت عليه دهشة عظيمة ، أما السجين فأسرع بالصعود الى المركبة المقفلة دون أن يبدو عليه انه عرف دارتانيان ، فصعد دارتانيان الى جواره فيها زيادة فى الاحتياط ، وأمر زملاءه وجنوده أن يكونوا على حذر وهم يحيطون بالمركبة ، وأمر السـائق بالاسراع الى الباليه رويال جهد ما يستطيع

وما أن تحركت المركبة حتى انتهز دارتانيان فرصة الظلام السائد فيها وارتمى على عنق السجين ، وهكذا تعارف الصديقان القديمان . وأخذ دارتانيان يسأل روشفور ، الذى كان قد ظنه ميتاً وهو دفين فى الباستيل لايعرف له خبر ، أخذ يسأله عن السبب فى سجنه هذه المدة الطويلة ، فأجابه :

— أتريد الحقيقة ؟

— طبعا

— اعلم إذن أننى لا أعرف السبب

— أتلتزم معي أنا جانب الحذر ياروشفور ؟

— ان السبب الرسمى الذى برروا به سجنى هو أننى سارق من قطاع الطريق الذين يسطون على المارة تحت جنح الليل

— أنت محق إذن ، فستحيل أن يكون هذا هو السبب الحقيق فى اعتقالك . ولعلك ستعرف بعد قليل حقيقة ذلك السبب

— لقد ذكرتنى ما أوشكت فرحة اللقاء أن تنسينيه ، فالى أين أنت ذاهب بى الآن ؟

— الى الـكردينال مازاران

— وماذا يريد منى ؟

— لا أدرى ، مادمت لم أعلم حين حضرت الى السجن اننى مكلف باحضارك أنت بالذات

— مستحيل أن تجهل ذلك وأنت ذو الحظوة !

— أنا ذو الحظوة ؟ كلا ياعزيزى الـكونت . فانى أبعد عن الحظوة مما كنت حين التقينا فى «منج» منذ اثنتين وعشرين سنة واأسفاه !

— ولكنك كلفت بهذا الأمر ؟

— لأنى كنت موجوداً بالمصادفة المحضة فى نوبة الحراسة بقاعة الانتظار ، فكلفنى الكردينال بهذه المهمة كما يكلف أى انسان آخر . ولا زلت إلى اليوم كما كنت منذ عشرين سنة تقريباً ملازماً فى حرس الفرسان

— احمد ربك انك لم تصب بمكروه ، فتلك وحدها نعمة جزيلة

— ولعلك ياعزيزى الكونت تذكرنى إذا عاد اليك سلطانك

— أجل وعهد آل روشفور . ولى عليك مثل ذلك

— اتفقنا ، وهاك يدى

— وبهذه المناسبة ، كيف حال أصدقائك ؟

— أى أصدقاء ؟

— آتوس ، وبورتوس ، وأراميس . هل نسيتهم ؟ كيف هم ؟

— لا أدرى !

— أحقاً ؟

— حقاً ! وكيف حال بلانشيه تابعك القديم يا كونت ؟

— لقد اتخذ محلا لبيع الحلوى فى شارع اللومبار

وأوقف دارتانيان المركبة ، فعجب روشفور وسأله عن السبب فقال :

— لقد أوشكنا أن نصل ، ولا أحب أن يرانى أحد خارجا من عربتك ، لأنى أريد ألا يعرفوا أن بيننا أى تعارف

— معك حق ..

وركب دارتانيان جواده وتقدم كوكبة الفرسان المحيطة بالعربة ،وما مرت خمس دقائق حتى وصلوا إلى فناء الباليه رويال ، فقاد دارتانيان أسيره صاعداً به السلم الكبير ومخترقا قاعة الانتظار ، فلما علم مازاران بوصولهما قال لحاجبه :

— أدخل السيد دى روشفور ، واطلب إلى السيد دارتانيان أن ينتظر ، فانى لم أفرغ منه بعد

ووقع هذا الكلام وقوع القطر على أرض قفر حين بلغ مسامع دارتانيان ، فقد مضت مدة طويلة لم يشعر فيها أن أحدا بحاجة اليه

ودخل روشفور على مازاران ، وأقفل دونهما الباب ، فوجد روشفور أن الكردينال يفحصه بنظراته ، ويظهر أنه رأى كيف نالت سنوات السجن الخمس من هذا الشيخ الذى كان من أقرب المقربين إلى ريشيليو ، فوقع فى وهمه أنه لايصلح لشىء

وبعد لحظة صمت قصيرة تناول مازاران خطابا مفتوحاً فقدمه إلى روشفور وسأله :

— لقد عثرت بهذا الخطاب الذى تقدمت به طالبـاً إطلاق سراحك ، فهل أنت نزيل السجن يا كونت ؟

فانتفض روشفور لهذا السؤال ، وقال :

— ظننتك ياصاحب النيافة خير من يعلم هذا الأمر

— أنا ؟ مطلقاً ! فى الباستيل عدد كبير من الناس لا أدرى حقيقة ذنبهم ، وهم فيه من أيام الكردينال ريشيليو ، وأجهل معظم أسمائهم . فاعذرنى إذا جهلت موضوعك

— ولكن موضوعى له صفة خاصة ياصاحب النيافة ، فقد قبض على بأمر من نيافتكم شخصياً ، ونقلت أيضا بأمر نيافتكم من سجن شاتيليه إلى الباستيل

— لقد تذكرت الآن . ألست قد رفضت فى زمن مضى أن تقوم برحلة معينة إلى بروكسل بأمر الملكة ؟

— آه ! هذا إذن هو السبب الحق ؟ لقد كلت رأسى فى التنقيب عنه هذه السنوات الخمس فما عثرت له على أثر

— انى لم أقل لك إن هذا هو السبب فى اعتقالك . ولكنى سألتك فقط إذا كنت قد رفضت تلك الرحلة لأجل الملكة ، وقمت بها من أجل السيد دي ريشيليو ؟

— وبالضبط لأننى كنت فى خدمة الكردينال ريشيليو ، لم يسعنى أن أقوم بخدمة الملكة !

— ان الملكة لم تفهم هذا التأويل ، وظنتك متعمداً تحديها ، فأسرتها لك حتى مات الكردينال

— وما دمت قد حبست خطأً ...

— طبعاً طبعاً . كل هذا يمكن تسويته . ولاسيما أنك ذو دراية بأمور معينة . فأنا — أو بالأصح الملكة — فى حاجة إلى أصدقائك المخلصين الذين خدموا إلى جانبك الكردينال ريشيليو

— ولكن الكردينال ريشيليو كان يعرف كيف يصطنع الأتباع المخلصين ، فقد كان كريماً

— ولن تكون الملكة أقل كرما من الكردينال ، فأين هؤلاء الأصدقاء ياسيدى الكونت ؟

— ان أحدهم ببابك فى هذه الساعة ياصاحب النيافة

— من هو ؟

— السيد دارتانيان

فأحسن مازاران تمثيل الدهشة الشديدة وصاح باستنكار :

— هذا الغسقونى ؟

— ان هذا الغسقونى كما تسميه يا صاحب النيافة استطاع أن ينقذ ملكة ، وأن يبين لريشليو أنه ليس إلا طفلا فى السياسة واللباقة والحذق والكياسة

— حدثنى بشىء من ذلك ياسيدى العزيز

— ذلك عسير ياصاحب النيافة

— إذن سيحدثنى هو بطرف من ذلك التاريخ

— وهذا أيضاً أشك فيه ياصاحب النيافة . فالسر ليس سره ، بل كما قلت لك سر ملكة عظيمة

— وهل قام بهذه الأعمال المجيدة منفرداً ؟

— بل كان معه أصدقاء ثلاثة ، وكان الأربعة كأنهم رجل واحد ، لهم رأس واحد وقلب واحد

— لقد أثرت فضولى فهلا أشبعته ؟

— سأقص عليك حكاية كحكايات الأساطير : كانت فى زمن مضى ملكة عظيمة على عرش دولة من أعظم الدول ، وكان الوزير يكرهها كثيرا . وجاء إلى بلاطها يوما سفير شجاع غنى أنيق ، افتتنت به جميع النساء ، وأحبته الملكة فأهدته قلادة ثمينة لانظير لها من جواهر التاج ، كان زوجها الملك قد أهداها اليهـا . فأوعز الوزير إلى الملك أن يطلب إلى الملكة التزين بتلك القلادة فى حفلة راقصة كان فى النية إقامتها بعد أيام . وكان السفير المعشوق قد رحل بالقـلادة إلى بلاده البعيدة عبر البحر . فأيقنت الملكة بالهلاك وافتضاح أمرها . بيد أن أربعة رجال بواسل استطاعوا انقاذها ، فرحلوا لاستعادة القلادة . وعلم الوزير نبأ سفرهم ، فرصد لهم فى طريقهم نفراً من رجاله ليحولوا دون وصولهم إلى غايتهم ، فسقط ثلاثة منهم جرحى ، وأفلت رابعهم فعبر البحر بعـد أن قتل من أراد اعتراضه ، واسترد القلادة وعاد بها إلى الملكة فتزينت بها فى اليوم الموعود ، وردت كيد الوزير إلى نحره . فما قولك ياصاحب النيافة ؟

— ياله من عمل مجيد !

— وانى أعرف على غراره عشرات من هذه الأعمال

— وهل كان دارتانيان من هؤلاء الأربعة ؟

— لقد كان قائد العملية

— ومن الثلاثة الآخرون ؟

— اسمح لى ياصاحب النيافة أن أترك مهمة ذكر أسمائهم للسيد دارتانيان . فلست أعرف إلا أسماءهم المستعارة

— أتحاذرنى ؟ اعلم أنى بحاجة اليهم واليك

— لنبدأ بى أنا ، مادمت قد أحضرتنى من سجنى فماذا تريد أن تصنع بى ، وفيم تريد أن تستخدمنى ؟

— ستكون موضع الثقة . فتذهب إلى فانسين حيث سجن السيد دى بوفور ، فتتولى حراسته والتحفظ عليه

— هذا مستحيل ياصاحب النيافة ، فهو من أصدقائى ، أو بالحرى أنا من أصدقائه . فهل نسيت أنه هو الذى ضمننى لدى الملكة ؟

— وبعبارة أوضح ، أنت من حزب بوفور

— ليس لى حزب . ولكنى أرجوك أن تستخدمنى فى غير ذلك الأمر ، ولو كلفنى ذلك التجوال والسفر المستمر

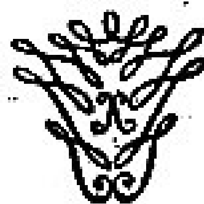
— أتحسبك لا تزال فى ميعة الشباب ؟ انك فى سن تحتاج فيها الى الراحة قبل كل شىء

وصفق مازاران فدخل حاجبه ، فكتب سطرين على ورقة وأمره بتسليمها لبعض الخدم ، ثم أومأ برأسه إلى روشفور بالسلام إيذانا بانتهاء الزيارة ، فانحنى روشفور باحترام وقال :

— أرى أنهم عائدون بى إلى الباستيل ؟

— يالك من ذكى !

واقتيد روشفور من الباب المصرى ، فلم يمر بقاعة الانتظار التى فيها دارتانيان ، ووجد العربة التى أحضرته من السجن فى انتظاره ، فركبها وقد أزمع فى نفسه أمرا



خاتم الملكة

بقى مازاران فى الحجرة وحيداً مع حاجبه ، وظل صامتاً يفكر لحظة ، ثم أمر حاجبه أن ينير له الطريق لأنه يريد الذهاب لدى الملكة . فأضاء الحاجب « برنوان » شمعداناً وتقدمه عن طريق ممر سرى يوصل بين مكتب مازاران وجناح الملكة . فلما وصل الى باب مخدعها تكفلت الوصيفة باعلان الملكة بحضوره ، وكانت الملكة فى مصلاتها مع ابنها الملك الغلام لويس الرابع عشر . فلما سمع الملك الغلام الوصيفة تعلن مقدم الوزير ، تجهم وجهه وسأل أمه:

— لماذا يحضر هكذا بغير موعد سابق ؟

فاحمر وجه الملكة قليلا وقالت :

— ينبغى فى مثل الأوقات العصيبة التى نجتازها أن يكون الوزير الأول على اتصال دائم بالملكة ، بدون أن يثير حضوره الفضول فى دوائر البلاط

وفى هذه اللحظة دخل مازاران ، فنهض الملك الصبي وتناول كتابه فذهب الى المنضدة ووضعه فوقها ، ثم ظل واقفاً الى جوارها ، كى يضطر الوزير الى أن يظل واقفاً ، ولم يرد على تحية الوزير الا بإيماءة يسيرة

وحاولت الملكة أن تقرأ على وجه الوزير سبب هذه الزيارة، وهو الذى تعود ألا يزورها فى مخدعها إلا بعد أن يأوى جميع أهل القصر الى فراشهم ، وأشار الوزير للملكة من طرف خفى ، فقالت الوصيفة :

— لقد حان وقت نوم الملك

فخرج الملك دون أن يحيي الوزير ، وأغفل متعمداً أن يقبل والدته ، وراحت الملكة تعتذر للوزير عن هذه الجفوة الظاهرة ، مؤكدة له تقديرها وولاءها ، ثم سألته عما هناك ، فابتسم ابتسامة كالحة وقال :

— يظهر أننا سنضطر عما قريب الى الافتراق . اللهم إلا إذا بلغ بتعلقك بى أن تتبعينى الى إيطاليا

— أتمزح ياسيدى ؟ !

— لست مازحاً وأأسفاه ! ألست أنت التى ابتسمت منذ بضعة أيام للدوق أورليان مع

الملك حين قال لك : « ان صاحبك مازاران هو حجر العثرة فى سبيل الوئام ، فأبعديه يستقم كل شيء » ؟

— وماذا كان بوسعى أن أصنع إلا الابتسام ؟ ولكنك تعرف أننى فى أعماق نفسى عدوة لأعدائك . فكم من شريف مثل بوفور اعتقلته لأنه جاهرك بالعداء

— لايكفى أن يكون أعدائى أعداءك . بل يجب أيضاً أن يكون أصدقاؤك أصدقائى

— ومن أين لى الأصدقاء والأسفاء ؟

— فتشى فى أعماق ذاكرتك عمن خدموك وقت الشدة ، ونصروك على ريشيليو ، ألا تذكرين دارتانيان ؟

فأوجست الملكة أن يكون دارتانيان قد باح بالسر ، فقالت :

— أذكر هذا الاسم . فهو ضابط فى حرس الفرسان

— أهذا كل شيء ؟

— يبدو لى انك تستجوبنى

— ان الوقت عصيب ياصاحبة الجلالة ، ولست أطلب شيئاً سوى أن تعينينى بأصدقائك القدماء لانقاذ الموقف

— لقد ظننت ان الخطر قد انتهى باعتقال بوفور

— كلا فهناك الأمير كونديه

— قاهر روكروى وبطل الحروب المظفر ؟!

— مهلا مهلا . وهناك بعد الامير كونديه الدوق أورليان

— عم الملك وعميد الأسرة المالكة ورأس النبلاء ؟!

— كلا ! بل المتآمر الخائن . ولست أكلف جلالتك التدخل بل يكفى أن تخبرينى بأسماء الشجعان الأربعة الذين أعادوا إليك قلادتك التى كانت فى حوزة دوق باكنجهام

... فلو أن عفريتاً شق الأرض وبرز فجأة فى فضاء الحجرة لما كان له الوقع الصاعق الذى كان لهذه العبارة فى نفس الملكة ، ولكنها كتمت شعورها وقالت :

— لقد نسيتهم . ولم أكافىء دارتانيان الذى ذكرته الآن إلا بتقبيل يدى وبهذا الخاتم الماسى الذى تراه فى يدى ، فقد باعه فيما أظن فى لحظة ضيق مالى . وعلمت أن ذلك الضيق كان سببه حاجته إلى إيفاد رسول يحذر الدوق باكنجهام من مؤامرة لاغتياله ، فاشتريته من المشترى ، وأرجو منك الآن أن تعيده اليه . وأوصيك باستخدامه ، فهو رجل مخلص وقادر . هل تريد شيئاً آخر ؟

— كلا ياسيدتى



« .. واستطاع الدوق أن يهبط سالماً بفضل مهارته وقوته البدنية »

— إذن اتركنى فإنى بحاجة الى الوحدة والراحة

— ألا تأذنين أن أعود فيا بعد ؟

— غداً . فانى الليلة متعبة

فتناول مازاران يدها فقبلها برشاقة ثم انصرف



عاد الكردينال مازاران كما ذهب عن طريق الممر السرى ، فلما صار فى حجرة مكتبه فتح الباب المفضى إلى حجرة الانتظار فوجد دارتانيان قد استولى عليه النعاس فوق مقعد هناك ، فأيقظه متلطفاً معه ثم صحبه إلى حجرة المكتب ، وتلفت دارتانيان فلم يجد لروشفور أثراً ، بيد أنه لم يجرؤ أن يسأل عن خبره . وخاطبه مازاران قائلا :

— لقد كان رأيى فيك على الدوام أنك رجل شهم باسل

فقال دارتانيان فى نفسه :

— ولكنى أراك ياصاحبى قد أنظرتنى طويلا قبل أن تكاشفنى بهذا الرأى الجميل

ولكن ذلك الخاطر الساخر لم يحل بينه وبين اظهار الامتنان مما قاله الكردينال الماكر الذى استطرد قائلا :

— وقد حان الوقت للانتفاع بمواهبك ومزاياك

فلمعت عينا المحارب القديم سروراً ، وقال :

— مر ياصاحب النيافة تجدنى طوع أمر نيافتك

— لقد أتممت فى عهد الملك السابق أعمالا عظيمة ...

— انه لتلطف عظيم من نيافتكم أن تذكروا مساهمتى فى حروب ذلك العصر ووقائعه الحامية الوطيس

— لست أعنى بلاءك فى الحرب ، فهو على خطره أقل قيمة من أعمال أخرى أدل على الشجاعة

— لست أفهم ماذا يعنى صاحب النيافة

— أعنى المغامرة ، انت فاهم طبعاً أى مغامرة أقصد

— كلا للأسف

— يالك من كتوم . وذلك خير . لقد أردت مغامرة الملكة التى اشتركت فيها مع أصدقائك الثلاثة

وسبق إلى ظن دارتانيان أن هذا فخ منصوب له لاستدراجه إلى إفشاء السر ، فاعتصم بالصمت فى اصرار ، واستطرد الكردينال :

— أمستعد أنت أن تخدمنى بمثل ماخدمت المملكة ؟

— المملكة ياصاحب النيافة ؟ ماذا تعنى ؟

— ألم تفهم أننى بحاجة اليك وإلى زملائك الثلاثة ؟

— أى زملاء ثلاثة ياصاحب النيافة ؟

— زملاء الزمن الخالى

— فى الزمن الخالى ياصاحب النيافة لم يكن لى أصدقاء ثلاثة . بل خمسون . فى سن العشرين يحسب المرء كل انسان صديقا

— ان الكتمان مزية جميلة يا حضرة الضابط . أما اليوم فلا حرج عليك من التصريح فالملكة نفسها تحلك من يمينك . وآية ذلك أنها رخصت لى أن أريك هذا الخاتم الماسى ولا شك أنك تعرفه جيداً

— صدقت ياصاحب النيافة ، فهذا خاتم الملكة

— اذن ، فلا تكتمنى شيئا ، فقد دعاك لخدمتى داعى الثراء العريض

— لبيك ، فما أحوجنى لما تقول ، وقد أغفلت شأنى زمانا طويلا

— لن يستغرق اصلاح شأنك أكثر من أسبوع باذن الله . ولكن أين أصحابك الثلاثة ؟

— لا أدرى ياصاحب النيافة ، فقد افترقنا منذ سنوات وترك ثلاثتهم الخدمة العاملة

— وكيف تهتدى اليهم ؟

— ذلك شأنى ، وسأبحث عنهم حيث يوجدون !

— هذا شأنك فعلا ، فما شروطك ؟

— المال ياصاحب النيافة ، فذلك البحث يحتاج إلى نفقات

— يا للشيطان ! ألا حديث للناس غير النقود ؟ ولكن ثق أننا سنكفيك هذا الجانب من الموضوع . والمهم أن أربعتكم تكونون فى خدمتى . لقد اتفقنا على ذلك

— إذا وافق أصدقائى ...

— وإذا لم يوافقوا ، هل لى أن أعتمد عليك ؟

— لم يسبق لى أن أبليت منفرداً بالعمل دونهم

— اذهب إذن وفتش عنهم

— وماذا أقول لهم كى يتبعونى بغير تردد ؟

— قل لهم اننى أطلب اليهم أن يخدمونى بالاخلاص نفسه الذى خدموا به المملكة

— ياصاحب النيافة ، إذا وثق المرء بنفر من الناس ، فلا أقل من أن يطلعهم على نواياه أكثر مما تفعل نيافتكم

— سنحيطكم بالموضوع فى الوقت المناسب ، أما الآن فاذهب وفتش عن أصحابك وهاتهم لخدمتى

— ربما لم يكونوا فى باريس ، فأرحل إلى الأقاليم للبحث عنهم ، وأنا رجل فقير والسفر نفقات باهظة

— لا أريد أن يبدو عليك البذخ فى سفرك

— مهما التزمت التقشف ، فلن يحتمل مرتبي المتجمد منذ ثلاثة أشهر نفقات الرحلة

— خذ إذن هذا الكيس لنفقات السفر

وتلقف دارتانيان الكيس فوضعه فى جيبه بسرور ، واستمر الكردينال يقول :

— ولا تنس أن تكتب لى كل يوم بأنباء خطواتك . وبهذه المناسبة ما اسم أصدقائك الثلاثة ؟

— الكونت دى لافير ، ولقبه الحى آتوس ، والشيفاليه دى فالون واسمه الحى بورتوس ، والأب دربليه ، واسمه الحى اراميس .

فابتسم الكردينال ، وودع دارتانيان بكلمات رقيقة ، فخرج دارتانيان بعد أن حصل على اجازة رسمية بخط الوزير ، ثم وقف فى فناء القصر تحت مصباح وأخرج الكيس من جيبه ففتحه لينظر ما فيه ، فاذا نقود فضية ، فاغتاظ ، وتذكر أيام ريشليو التى كانت المعاملة فيها بالذهب

وفى الوقت نفسه كان مازاران يفرك يديه مسروراً ، لأنه احتفظ لنفسه بالخاتم الماسى الثمين الذى أعطته اياه الملكة ليوصله إلى دارتانيان ، وقام فخبأ الخاتم فى بعض خزائنه . وأوى إلى فراشه ، فى الوقت الذى اتجه فيه دارتانيان إلى خان المعزة الصغيرة الذى يقيم فيه ، كى يريح جسمه ويستعد لمشاق الغد .



دارتانيان فى الاربعين

لقد مرت بدارتانيان فى العشرين سنة الأخيرة فرص كثيرة لم يقصر فى انتهازها ، ولكن الظروف هى التى خانته . وقد اكتسب من أصدقائه الثلاثة بالمعاشرة معظم مزاياهم ، فأعطاه آتوس شيئاً من أبهته ، كما أعطاه بورتوس شيئاً من حيته وتوقد قريحته ، أما أراميس فكان قدوته فى الأناقة والقيافة . والحق أن دارتانيان كان من ذوى الطبائع الطيبة السهلة الانطباع بالمعاشرة ، فلو أن أصحابه الثلاثة ظلوا بجانبه لكان حرياً أن يغدو رجلا ممتازاً. ولكنهم غادروه ليسلك كل منهم طريقاً مستقلا فى الحيـاة . أما آتوس فانصرف إلى ضيعته الصغيرة التى ورثها بالقرب من « بلوا » . وأما بورتوس فقد تزوج سيدة ذات حسب ولقب . وأما أراميس فترك الدنيا وانخرط فى سلك الرهبان

ولما كان صاحبنا دارتانيان ليس ذا نسب عال فيسنده نسبه ويشفع له فى تقلد المناصب ، وهو ليس كذلك من ذوى الثراء فيدفعه ثراؤه فى مدارج الرقى ، فهذا ظل كما كان منذ عشرين سنة ملازماً فى حرس الفرسان ، والمرتبات قليلا ما تدفع بانتظام ، فما أكثر ما كان يستدين ولا يستطيع الوفاء بالدين، ولذلك قد استقر منذ سنوات فى فندق العنزة الصغيرة ، وهو فندق نظيف متواضع تديره سيدة هولندية هجرها زوجهـا بعد أن سرق حليها ، ووجد عندها ما يناسبه من فراش متواضع وغذاء جيد فى حدود الفقر

وها هو دارتانيان يحمل كيس النقود الذى منحه إياه مازاران متجهاً إلى الفندق ، وإذا به يرى فى الشارع زحاماً ولغطاً ، ولا سيما حول فندقه ، فقال فى نفسه :

— أهل فندق العنزة الصغيرة قد شبت فيه النيران ؟

فلما اقترب وجد الزحام غير مجتمع أمام فندقه المحبوب ، بل أمام المنزل المجاور، ورأى للناس ضجة كبيرة ، وفى أيديهم المشاعل ، وتبين على ضوء تلك المشاعل أردية الجند ، فسأل عن جلية الأمر فقيل له إن رجلا من الأهالى قد هاجم على رأس عشرين من أنصاره عربة مقفلة يحرسها جنود الكردينال ، واستطاع رجال الحرس أن يردوا الهجوم فتفرق المعتدون ، وأما رئيسهم فاختبأ فى هذا البيت ، وهم الآن بصدد تفتيشه

وصعد دارتانيان حاملا شمعته إلى غرفته فى الطابق الرابع ، وكان أول همه حين دخل

الغرفة أن يضع الـكيس في درج مكتبه العتيق ، ثم جيء له بعشائه فصرف الخادم وجلس ليأكل . وبعد أن أكل بشهية استلقى على الفراش ليستغرق في النوم على عادته ، فهو ليس ممن يؤمنون أن هدوء الليل يساعد على اعمال الفكر ، بل الليل عنده راحة ونعاس ، حتى إذا بدت تباشير الصبح قفز من فراشه في نشاط وراح يتمشى في الغرفة مستحثاً ذاكرته الـكبيرة على استقصاء عناوين أصدقائه الثلاثة ، ولـكن راحت جهوده في هـذا السبيل عبثاً ، فاشتد غيظه من نفسه لأنه لا يدرى ما الوسيلة للبحث عن محال اقامتهم

وفي هذه اللحظة سمع صوت زجاج يتحطم في نافذة غرفته ، فأسرع إلى مكتبه من حجرة الحمام فاذا رجل يدخـل من النافذة ، فحسبه لصاً جاء يسطو على كيسه ، فهجم عليه وسيفه في يده ، فصاح الرجل يستعطفه :

— لاتقتلني بحق السماء ياسيدي قبل أن تسمع مقالتي ، فلست لصاً . بل أنا على العكس مواطن شريف وتاجر مستور واسمي ... ولـكن رباه ! انت وربي السيد دارتانيان !

— وانت بلانشيه ! ولـكن ماذا حدا بك أن تقفز على أسطح المنازل في الفجر ، وفي شهر يناير أيها الرجل الشريف ؟

— قل لي يا سيدي عن مدى علاقتك بالسيد دي روشفور

— على أحسن مايرام . بل هو الآن من أعز أصدقائي منذ الأمس . ولـكن ما الصلة بين روشفور ودخولك بهذا الشكل إلى حجرتي ؟

— المسألة أنني هاجمت العربة العائدة به إلى الباستيل وأنقذته فتمكن من الفرار في أثناء اجتيازه لشارع أمام دكاني . فقد أطل من العربة واستغاث معلناً اسمه ، ولولا أنه تصادف مرور داورية انضمت للحراس لما استطاعوا تفريقنا . وقد اضطررت للهرب في البيت المجاور حيث تطوعت سيدة عجوز في الطابق الخامس لاخفائي بين حشايا الفراش ، ثم فـكرت في الخروج عند الفجر فأوقعني حسن الحظ بين يديك

— لا تخش شيئاً واجلس وسنتناول الآن معاً طعام الإفطار ثم نفكر في تأمينك ، لأنك لو وقعت في يد الحكومة لـكان جزاؤك الشنق في غير رحمة ولا شفقة

وأكل الاثنان بشهية عظيمة ولا سيما بلانشيه . فلما انتهى الأكل رأى دارتانيان الفرصة مناسبة لسؤال بلانشيه عن عناوين أصدقائه ، فاذا به لايدرى عن هذا الأمر شيئاً ، ولما رأى اكتئاب دارتانيان لذلك الجهل قال له :

— ولـكني أعرف أين بازان خادم أحدهم ، فهو الآن من خدام كنيسة النوتردام دي باري ، وهو ولا شك يعرف عنوان سيده

وتناول دارتانيان معطفه وسيفه ، ثم سلم بلانشيه الى صاحبة الفندق الهولندية وأوصاها

آن تزعم أنه أخوها الذي حضر لزيارتها من أمستردام ، مستغلا اجادة بلانشيه للغة الهولندية، ثم سار هو نحو كنيسة النوتردام دى بارى



صعد دارتانيان درج الكنيسة ، ثم خاطب خادما كان يقوم بعملية الكنس، فسأله عن بازان فقال له انه يقوم بخدمة القداس فى هذه اللحظة بمقصورة العذراء . ففرح دارتانيان كثيراً بذلك التوفيق ، ثقة منه بأن المفاوضات مع بازان ستكون أسهل مايمكن، ودخل مقصورة العذراء فركع أمام الهيكل مباشرة حتى لاتغيب فريسته عن نظره . وكان هذا القداس من النوع القصير الذى ينتهى بعد دقائق . وطاف الكاهن على المصلين ليباركهم بوضع الصليب فوق رؤوسهم ، ومن خلفه بازان وقد تعلقت عيناه بالسماء . فلما صار قبالة دارتانيان جذبه من كمه فنظر اليه ثم انتفض كأنه رأى ثعبانا ساما ، وأبدى لدارتانيان جفوة لأنه غير راغب فى أى شيء يعكر سلامه الراهن ويذكره بحياته القديمة . وحاول دارتانيان أن يتألف قلبه بادعاء التقوى والورع ، وأنه يبحث عن سيده أراميس الذى دخل الرهبنة ليجعله مرشده الأمين فى طريق الخلاص ، بيد أن بازان رفض أن يصدق هذا الزعم وصارحه بأنه إنما يسعى لاعادة مولاه إلى عالم الدنيويات بآثامه ومطامعه ، وأضاف إلى ذلك أنه يجهل مقر سيده القديم كل الجهل ، ثم ابتعد عنه بشكل يوحى بالتصميم والعزم

وظل دارتانيان راكعاً لم يفق من ذهوله من هذا الاخفاق، وإذا بأحدهم يمس كتفه بأصبعه فالتفت نحوه ، فاذا به أمام الدوق روشفور ، وعرف الدوق منه أن الذى أنقذه فى الظلام هو بلانشيه . ثم سأله دارتانيان عن سر حضوره إلى الكنيسة فقال :

— جئت لأقدم فروض الشكر لك على نجاتى

— ثم ماذا أيضاً ، فلا أظن أن هذا هو السبب الوحيد فى حضورك إلى الكنيسة ؟

— ثم لأتلقى أوامر نائب المطران ، والاتفاق معه على مايمكن عمله لازعاج مازاران وإغاظته . وربما خرجت من باريس للنزهة والاستجمام فى أنحاء الريف

— وأنا كذلك أنوى الارتحال إلى الأرياف ، بحثاً عن أصدقائى الثلاثة ، فانى أجهل عناوينهم ولا أدرى كيف أهتدى اليهم

— اصبر ثمانية أيام وسيكون فى مقدورى أن أدلك عليهم

— ثمانية أيام ؟ هذا كثير ، فلا بد لى من الاهتداء اليهم فى بحر ثلاثة أيام ابتداء من اليوم

— هذا قليل ، سيما أن فرنسا واسعة الأرجاء مترامية الأطراف

— وداعا إذن ، وأرجوك أن تبلغ مازاران انه سيأتيه عني من الأنباء بعد قليل ما يدل على أنني لم أبلغ من العمر عتيا

وانصرف روشفور ، ثم تسلل دارتانيان خارجا . فكمن عند الناصية حتى يتعقب بازان حين خروجه من الكنيسة . وان هي إلا خمس دقائق حتى رأى بازان خارجا يتلفت حوله ، ولكنه لم ير دارتانيان لأنه كان مختبئاً في باب بيت ، ومشى بازان ودارتانيان يتبعه إلى أن دخل بيتاً بريء المظهر ، فدخل دارتانيان مقصفاً مواجها للبيت وطلب اعداد شراب معين يستغرق تحضيره نصف ساعة ، وبهذا أتيحت له الفرصة أن يرقب البيت دون أن يثير الشبهات ولفت نظره في المقصف غلام في نحو الثانية عشرة تبدو عليه مخايل الذكاء والحيوية ، وتذكر دارتانيان أنه رآه قبل عشرين دقيقة في ملابس المرتلين بالكنيسة ، فراح دارتانيان يجاذبه الحديث حتى عرف منه أنه يقوم من السادسة إلى التاسعة صباحا بعمل المرتل في مجموعة الشمامسة . ومن التاسعة إلى نصف الليل يعمل خادما في هذه الحانة . وفي هذه اللحظة شوهد بعضهم يقود جواداً إلى باب بيت بازان وقد ألجم وأسرج ، ثم خرج بازان من البيت ، فصاح الغلام :

— هاهو العريف على أهبة السفر

فسأله دارتانيان إذا كان يعرف غاية العريف من رحلته هذه ، فأجابه الشماس إنه لايدري ، فأخرج له دارتانيان نصف ريال ووعده به إذا استطاع تبيقط الحقيقة ، فطار الشماس فرحا ، وانطلق فلم يغب إلا خمس دقائق ثم عاد إلى دارتانيان متهلل الوجه ، ولكنه ظاهر الحذر فقال :

— لقد عرفت المطلوب

— أين هو ذاهب ؟

— أرني نصف الريال أولا . ثم دعني أنظر هل هو صحيح أم زائف ، ثم بعد ذلك أسلمك البضاعة

وتناول الغلام القطعة الفضية وقال لصاحب الحان :

— أعطنا فكة للزبون يامعلم

فلما رأى المعلم يصرف له نصف الريال بغير تردد قال :

— لقد ذهب إلى توازي

— وكيف عرفت ؟

— لم يكن الأمر عسيراً ، فاني أعرف الحصان وأعلم أنه ملك للجزار الذي يؤجره لبازان بين الحين والحين . وأدركت أن القصاب لايؤجر جواده من دون أن يعرف هذه

الرحلة . فسألت القصاب صاحب الحصان فقال لى انه تعود السفر إلى توازى مرتين أو ثلاثاً كل أسبوع

— وهل فى توازى دير للرهبان ؟

— دير كبير لليسوعيين

فشكر دارتانيان الغلام وقيداسمه وعنوان الخان فى مفكرته ثم انصرف إلى فندقه مسرعا



استقر عزم دارتانيان على ألا يصل الى توازى والشمس فى أفق السماء خشية أن ينكشف أمره فانتوى أن يتخذ الليل له ستاراً . ومعنى هذا أن أمامه فسحة من الوقت طويلة قبل الرحيل ، فتوازى لاتبعد عن باريس الا بمقدار أربعة فراسخ على أكثر تقدير . لهذا انصرف بكليته إلى الاهتمام بتناول وجبة غداء دسمة وافرة ، ثم بدل ثيابه حتى لايفضحه زيه الرسمى ، ثم تخير أطول وأصلب سيف من سيوفه الثلاثة .حتى إذا كانت الساعة الثانية بعد الظهر أسرج جوادين وخرج من بوابة فيت يتبعه بلانشيه فى هيئة الخدم ، ومرا على هذه الصورة برجال الحكومة الذين يملأون الشارع

فلما صارا على بعد فرسخ ونصف من باريس تبين دارتانيان أنه تعجل الرحلة لهفة منه على العثور بصديقه فنزل بخان على الطريق ليستريح ويريح الجوادين.فوجد الخان مزدحماً بجماعة يبدو على وجوههم أنهم من شرار الأوغاد ، وخطر له أنهم ما اجتمعوا على هذه الصورة إلا للقيام بهجمة ليلية فى بقعة مجاورة

وفيما كان يحتسى قدح النبيذ سمع من ربة الخان اسماً معيناً لفت نظره : هو اسم الدوقة لونجفيل ، فهذه السيدة من كبريات العقائل فى المملكة ، ومن أجل نساء البلاط وهى شقيقة الأمير كونديه ، ويشاع أن لها صلة بالأمير مارسياك الابن الأكبر للدوق روشفوكول الشيخ . .

وفى هذه اللحظة مال بلانشيه على أذن سيده وقال له إنه لاحظ أثناء انزوائه فى الاسطبل المظلم أن رجلا ملتفاً بمعطف فضفاض دخل الاسطبل ومعه رجلان من هذه العصابة ، فلم يبصروه لأنه كان فى أشد أركان الاسطبل ظلاما،وإذا أحد الرجلين يقول لذى المعطف :

— إنه إما أن يكون فى توازى أو يصلها فى هذه الليلة ، فقد رأيت خادمه

فأجابه ذو المعطف :

— أمتأكد أنت !

— أجل ياسمو الأمير . فماذا تأمر إذا وجدناه هناك ؟ فهو ليس رجلا سهل المنال ، وربما عمد إلى سيفه

— تعمدون إذن إلى سيوفكم ، وإن كنت أرى لو أصبتموه حيا . وهل معكم حبال لتقيدوه بها وكامة لتسدوا فمه ؟

— لدينا ذلك كله

— على بركة الله . وسأكون هناك لتوجيهكم

ولما انتهى بلانشيه من رواية هـذا الحوار قال إن الرجال الثلاثة خرجوا على أثر ذلك من الاسطبل ، فقال دارتانيان لبلانشيه :

— ومن يعنون بهذا الحديث ؟

— أواثق أنت أننا لسنا المقصودين به ؟ان فى الحديث قرائن تنم على خلاف ذلك . فأنا الخادم ، وأنت الفارس المخشى بأسه

— على رسلك ياصاح ، فقد مضى الزمن الذى كان الأمراء فيه يتربصون بى ويعنيهم شأنى ويدبرون للايقاع بى . فاهدأ بالا

وعلى أثر هذا استأنف دارتانيان وبلانشيه ركوبهما . فلما قطعا فرسخاً آخر اقترب بلانشيه من دارتانيان وقال له :

— ألا يرى سيدي فى هذه الناحية أشباحاً تنسل متزملة بالظلام ؟ اصغ ! يخيل الى أنى أسمع وقع حوافر خيل

— يخيل الى فعلا أنى أرى أشباحاً . أما وقع حوافر الخيل فكيف نسمعه والأرض مشبعة بماء المطر ؟ وى ! هـذا صهيل الخيل ولـكن ماشأننا بهذا ؟ انهم رفقة فى سرى مثل سرانا فا كفف

واستأنفوا سيرهم حتى بلغوا مشارف نوازى ، فرأوا بناء كبيراً نخيا عرف فيه دارتانيان قصر الدوقة لونجفيل . وقال بلانشيه :

— انى أعرف موقع الدير ، فهو فى الطرف الآخر من المدينة

— أسرع أنت إلى هناك ريثما أعيد إحكام السرج ثم عد إلى بخبر الدير وهل ترى فى نوافذه نورا

وبعد خمس دقائق كان بلانشيه قد عاد ، فقال لدارتانيان :

— هناك نافذة واحدة مضيئة فى الجهة التى تطل على الحقول

وأسرعا إلى هناك ، فاذا تلك النافذة الوحيدة وقد انطفأت أنوارها ، ثم سمعا لغطا ، وأقبلت سريتان من الفرسان ، عدة كل منهما عشرة فسدتا الطريق وقطعتا خط الرجعة على دارتانيان وبلانشيه ، فامتشق دارتانيان حسامه وكمن وراء جواده ، وقلده بلانشيه ، أما الأعداء فجردوا سيوفهم وتصايحوا :

— ها هو ذا . لقد أدركناه

فخاطبهم صوت عال آمر قائلا :

— لاتقتلوه

— كلا ياصاحب السمو . اطمئن !

وحينئذ بدا لدارتانيان أنه قد آن له أن يشترك فى الحديث بصوت عال وبلهجة غسقونية فج :

— ماذا تريدون أيها السادة ؟ مامرادكم ؟

فتصايح الجنود فى صوت واحد :

— ستعرف مرادنا عما قليل

فصاح بهم الصوت الآمر :

— كفوا عنه . ليس هذا صوته

وصاح دارتانيان :

— أترى أهل توازى بهم سمار ؟ حذار إذن أن تقتربوا منى ، فأول من يدنو منى سيخترقه سيفى ، وإن لى لسيفا طويلا

واقترب منه قائدهم ذو الصوت الآمر ، فسأله فى استعلاء :

— ماذا تصنع هنا ؟

— وأنت ، ماذا تصنع هنا ؟

— تأدب وإلا أدبناك ! فلئن رغبنا عن إعلان شخصنا إلا أننا نحرص على احترامنا كما ينبغى لمقامنا ومكانتنا

— أنت لاتريد أن تكشف عن شخصك لأنك تقود عصابة تسطو على الناس فى جوف الليل . أما أنا فلا يحول بينى وبين إعلان اسمى مثل ذلك السبب

— أقصر . ما اسمك ؟

— سأقول لك اسمى لا لأنك طلبته ، ولكن لتعرف أين تجدنى ياصاحب السمو أو صاحب السيادة أو صاحب المجد أو صاحب أى نعت تحب أن يناديك الناس به ، فاذا عرفت أين أكون سهل عليك أن تطلب لقائى لقاء الأكفاء فى أى زمان ومكان . هل تعرف السيد دارتانيان الملازم فى حرس فرسان الملك ؟

— أأنت السيد دارتانيان ؟

— أجل ، ولا اخالك إلا تعلم أن لدارتانيان قبضة من فولاذ وحساما كأنه لعاب المنون !

— لقد جئت إذن للدفاع عنه ؟

— عنه ؟ عن من ؟

— من نبحث عنه

— يبدو لى أننى حين دخلت نوازى ألقيت بنفسى فى بحر الألغـــاز وتيه المعميات والاحاجى

— تكلم . هل أنت تنتظره هنا تحت النوافذ ؟

— انى لا أنتظر أحداً ولا أعتزم الدفاع عن أحد سوى نفسى

— هذا جيل . تفضل إذن من هنا واترك لنا هذا المـكان !

— اترك هذا المـكان ؟ ليس هذا يسيراً ، ولا سيما أننى أكاد أسقط إعياء ، وكذلك جوادى ، اللهم إلا إذا كنت تنوى أن تدعونى للعشاء والمأوى فى مكان قريب

— يالك من وغد !

— صن لسانك يصنك ، والا رددت بذاءك فى حلقك ملـكا كنت أو أميراً أو مركيزاً أو ماشئت

فالتفت الرجل لرجاله وقال :

— هذا كلام لا يصدر إلا عن غسقونى متهور ، فالرجل ليس ضالتنا المنشودة ، وقد ضاعت ليلتنا فى غير طائل ، فهيا بنا ننصرف

وانصرفوا فعلا تاركين دارتانيان وبلانشيه حيث هما تحت نوافذ الدير ، وقال دارتانيان :

— ها أنت ترى أيها الفتى أننا لم نكن المقصودين ، وما يعنينى الآن قبل كل شىء هو دخول هذا الدير ، فهيا نركب الى جهة الباب لنقرعه وليكن ما يكون ، فلن يأكلونا على كل حال

وركبا جواديهما وهما أن يسيرا ، وإذا بثقل يسقط على عجيزة جواد بلانشيه حتى كاد يقع على الأرض ، وصاح بلانشيه :

— لقد أردف رجل نفسه ورائى يا سيدى !

والتفت دارتانيان فرأى مصداق ذلك فامتشق حسامه وهم أن يهجم على ذلك الفضولى وهو يصخب بالسباب ، فقال الغريب :

— رويدك يا عزيزى دارتانيان . هذا أنا أراميس . أسرعا بربكما إلى أقصى المدينة

فلما بلغا الطرف الآخر من البلدة دار بلانشيه الى اليسار كما أمره أراميس ، ثم وقف تحت نافذة مضيئة ، فنزل أراميس إلى الأرض وصفق بيديه ثلاثاً ، ففتحت النافذة وتدلى

منها سلم من الحبال ، فقال أراميس لدارتانيان :

— إذا أذنت بالصعود يا صديق يا صديق أسعدنى ذلك كثيراً

— وهل هذه هى وسيلة الدخول الوحيدة الى بيتك ؟

— متى تجاوزت الساعة التاسعة مساء لم يكن من ذلك بد ، فلوائح الدير غاية فى الصرامة

— إذن تقدمنى حتى أصعد على هداك

وصعد أراميس على سلم الحبال ، ووراءه دارتانيان ، فصاح بلانشيه معترضاً :

— قد يصلح هذا لسيدى أراميس ولك ، وربما لى أنا أيضاً ولكن هذان الجوادان كيف نصعد بهما على سلم الحبال ؟

فقال أراميس مشيراً الى مظلة للبهائم فى الرحبة المقابلة :

— امض بهما الى هناك وستجد علفاً كثيراً وماء

— وأنا ؟

— اربط الجوادين وعد فصفق ثلاثاً فندلى اليك الطعام

ثم جذب أراميس الحبل وأغلق النافذة ، وراح دارتانيان يفحص الحجرة بنظره ، فاذا أثاث فى غاية البساطة ولكنه مريح وينى بالغرض ، فقال له أراميس :

— إنها حجرة متواضعة ، حجرة راهب ياعزيزى . ولكن عم تبحث وراء الأثاث ؟

— عن الشخص الذى دلى لك سلم الحبال

— إنه بازان ، فهو شاب ماهر ولبيب ، إذا رأى معى ضيوفاً انسحب لكى لا يقيد حريتى . اجلس يا صديق لنتحدث ، وسنتعشى معاً طبعاً . أم لديك مانع ؟

— كلا على الاطلاق . بل إنى أقبل الدعوة بكل سرور ، فلا أكتمك أن السفر قد فتق شهيتى

— ولكننا فى الدير لا نتال إلا طعام الزهادة ، وحضورك لم يكن متوقعاً . ولكن سنرى ماذا يستطيع بازان أن يفعل . يا بازان

وانفتح الباب وأطل منه بازان ، فما ان وقع نظره على دارتانيان حتى أطلق صيحة فزع وارتياع فقال له دارتانيان :

— يا صديق بازان ، لقد سرنى كثيراً أن ألمس مدى تقدمك فى الكذب بثبات وجرأة منذ دخلت فى سلك الكهنوت ، ولا سيما إذا كان الكذب فى ساحة الكنيسة المقدسة

— لقد تعلمت يا سيدى من الآباء اليسوعيين أنه لا بأس من الكذب إذا كان ذلك فى سبيل غاية طيبة

وتدخل أراميس فى المناقشة قائلا :

— حسناً يا بازان . إن دارتانيان يكاد يموت جوعاً ، وأنا كذلك ، فأعدد لنا خير عشاء فى وسعك ، وتحر على الخصوص أن تأتينا بكمية طيبة من النبيذ الجيد

فتنهد بازان وانحنى ثم خرج وتركهما . فقال دارتانيان :

— قل لى يا عزيزى أراميس ، أين كنت بحق الشيطان حين قفزت على الحصان وراء بلانشيه ؟

— لقد هبطت كما رأيت من السماء

— لا يبدو عليك أنك كنت هناك يا صديق . بل إننى أشم فى الأمر رائحة امرأة . فذلك أشبه بك من السماء

— أنت كالعهد بك . مهذار . ظن ما شئت ولكن إياك أن تعتقد أن الدوقة لونجفيل هى التى شغفتنى

— إن هذا صعب ولا سيما أننى أعلم أنك كنت الصديق الحميم لعدوتها الدوقة شيفريز مدة طويلة

— أين ذهب هذا الحيوان بازان ؟ نحن جائعان كالذئاب

وفى هذه اللحظة فتح الباب ودخل بازان بما أحضره من الطعام والشراب ، وصفق بلانشيه تحت النافذة فدلى اليه بازان رغيفاً ودجاجة محمرة وزجاجة من النبيذ ، ثم أقفل بازان النافذة وانسحب من الغرفة ، فأقبل دارتانيان على المائدة الحافلة بأخر أطايب الطعام وهو يعجب من أمر صاحبه الذى لا يشبه فى شىء خلائق الرهبان ومعيشتهم ، فلما فرغا قال أراميس :

— لقد علمت من بازان أنك كنت تبحث عنى

— سأقول لك لماذا . ولكن قل لى أولا ، أتهتم بالسياسة ؟

فرت سحابة خاطفة بجبين أراميس وأجاب بالسلب

— وهل لم تخطر ببالك يا عزيزى أراميس أيامنا الخالية ؟

— بلى ! وكم أتحسر عليها

— وعلام التحسر ؟ إن هذه الأيام يسير أن تعود سيرتها الأولى . وقد كلفت بجمع زملائى ، وقد بدأت بك ، لأنك قلب مجموعتنا النابض

فانحنى أراميس شكراً وتأدباً وقال :

— أتريد أن تعيدني الى هموم السياسة وتخرجني من معيشتي الراضية المستقرة ؟ كفانا ياصديقي ما لمسناه من جحود السادة القواد والزعماء

— الحق معك . ولكن لعل أولئك الجاحدين ندموا على جحودهم

— والله يغفر للتائبين . ولعل الوقت الحاضر مناسب لعودتنا الى حلبة السياسة ، فقد سمعت ان مازاران غير مطمئن الى سير الأمور ، وانه يسعى الى توطيد نفوذه

— لقد أصبت يا أراميس . فالكردينال هو الذى كلفنى ...

— ولكنى علمت أيضاً ان مازاران ليس رجلا موهوباً للقيادة والسياسة ، وانما كل رأس ماله انه حظى الملكة . فهو ظل لها ، وهى سنده الوحيد

— وهى سند غير هين ياعزيزى أراميس

— ولكن لاتنس أن الملك ليس معه ، بل عليه

— انه غلام قاصر

— غلام سيبلغ رشده بعد أربع سنين

— انما الساعة التى نحن فيها

— وحتى فى الساعة التى نحن فيها ضده قوى كثيرة ، فالبرلمان ضده ، والشعب ضده ، والنبلاء ضده ، وأمراء الجيش ضده أيضاً ، وانى أشفق عليك أيها الصديق من مغبة ربط مستقبلك بذلك الأجنبي المكروه

— أنا ؟

— ألم تتحدث إلى انك موفد من قبله ؟

— أنا تحدثت عن ذلك ؟ لقد كنت إذن مخطئاً فى التعبير . وكل ماهنالك أنى قلت بنفسى ان تعقد الأمور فى حلبة السياسة قد يكون فرصة مواتية لنا كي نصل الى شيء . ولكنى حريص طبعاً على تعرف اتجاهات الريح ، وأن نكون مع الفريق الرابح

— ذلك أمر صعب ، فمن يدرى من الرابح فى بحر السياسة ومن الفريق ، وانى أوثر ألا أورط نفسى فى تلك التيارات والمزالق

— الحق معك يا أراميس . فأنت على عادتك فيلسوف حكيم راجح العقل . ولست أدرى أى شيطان ركبنى فزين لى المطامع . وقد عزمت على أن أقتدى بك فى إيثار السلامة وصح عزمى على التوجه لزيارة صديقنا بورتوس كى أتلهى بالصيد فى أراضيه . فقد سبق له أن دعانى لذلك . وأنت تعرف طبعاً ان لصديقنا بورتوس أرضاً ؟

— طبعاً . ضياع وغابات وسهول ووديان ، ولمحقوق إقطاعية كانت محل خلاف بينه وبين أسقف نويون

فقال دارتانيان فى نفسه :

— عال ! هانحن قد عرفنا أنه يقيم في نواحي بيكارديه

ثم قال بصوت عال :

— وأعتقد أنه استرد اسمه القديم (دى فالون)

— وأضاف إليه لقب (دى براسيه) ، وهى ضيعة فى مرتبة البارونية

— إذن سأرى صديقى بورتوس وقد أضحى بارونا

— طبعاً . وسيعجبك حاله . وستعجبك على الخصوص البارونة الحسناء

وانفجر الاثنان ضاحكين . ثم استأذن دارتانيان فى الانصراف فقال أراميس :

— لا أستطيع احتجازك ، لأنى لا أدرى أين تنام عندى !

— لا عليك ، فالمسافة الى باريس قصيرة

وأصر أراميس على أن يودع دارتانيان بنفسه ، فتقلد سيفه واستدعى بازان ، وكلفه أن يأتى بسلم الحديقة الخشبي ، فوضعه بازان فى مكان سلم الحبال ، فقال دارتانيان معلقاً على ذلك :

— ياله من سلم متين مأمون لا تخشى امرأة أن تصعده

فحدق فيه أراميس كأنما يريد أن يستشف ماوراء هذا التعليق من مغزى ، ولكن دارتانيان كان المداعبة بعينها ، ثم نزل الصديقان وبقى بازان فى الحجرة ، واتجه الصديقان الى المظلة التى ينام تحتها بلانشيه ، فإذا به واقفاً والجوادان فى يده ، فركب الصديقان وسار خلفهما بلانشيه لأن أراميس أصر على توديع صاحبه الى أن يخرج من حدود القرية وهناك تعانقا ، وعاد أراميس راجلا ، أما دارتانيان وبلانشيه فألهبا جواديهما وأسرعا فى طريق باريس . ولكن ما أن ابتعدا مائتى خطوة حتى وقف دارتانيان وترجل عن جواده وألقى بعنانه الى بلانشيه ، وتمنطق بغدارتيه ، فصاح بلانشيه :

— ماذا جرى ياسيدى ؟

— جرى انه مهما كان أراميس ماكراً ، فلن يستطيع تغفلى ، فانتظر هنا ولا تتحرك

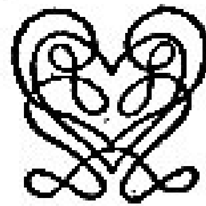
ثم أسرع دارتانيان يخترق الحقول ملتفاً حول القرية ، فكان قد لاحظ أن بين قصر لونجفيل ودير اليسوعيين أرضاً فضاء سورها من القش والأعشاب ، فأسرع بالكمون بين حشائش هذا السور . وما هى إلا لحظة حتى سمع وقع خطوات خافتة تقترب ، وصوت همس ، ثم وقفت الخطوات عند أول السور ، وظهر بعد ذلك رجلان ، فدهش دارتانيان لذلك . بيد أن دهشته لم تطل إذ سرعان ماتكلم الرجلان فإذا لأحدهما صوت ناعم ، صوت امرأة متنكرة فى ثياب رجل ، وإذا الصوت الآخر صوت صديقه أراميس يقسم لها قائلا :

— ثقى يا مولاتى الأميرة أن حرصى على سمعتك أعظم من حرصى على حياتى ، ولهذا ألتزم جانب الحذر

— ولكنني يا عزيزي رينيه اطمئنك بأن حادث الليلة لن يتكرر ، فقد اكتشفت سردابا بين قصري وحجرتك في الدير يمر تحت الشارع

وفي هذه اللحظة أطار الهواء قبعة السيدة فأنار القمر وجهها ، واستطاع دارتانيان أن يعرف فيها الدوقة دي لونجفيل ، ذات العينين الزرقاوين الواسعتين ، والشعر الذهبي ، والجمال الذي يتحدث به كل أبناء زمانها

وتناولت قبعتها ، وانصرف الشبحان ، وتسلل دارتانيان عائداً الى جواده وخادمه اللذين ينتظرانه في طريق باريس



لقب بارون

استقر عزم دارتانيان وتابعه الذى تعلق به على السفر إلى بيكارديه لمقابلة بورتوس . وقد وافق بلانشيه على أن يصحبه ولو إلى أقاصى الأرض ، ولكن بشرط أن يخرجا من باريس تحت جنح الظلام ، لأن بلانشيه كان لايزال خائفاً من مطاردة رجال الحكومة له بعد قيامه بتخليص دى روشفور من عربة السجن ، وقد أجابه دارتانيان إلى طلبه ، فلم يبدآ فى مبارحة باريس إلا فى نحو الساعة الثامنة مساء .

فما وصلا عند منتصف الليل إلى قرية حتى نزلا بخانها ، ثم استأنفا ركوبهما فى الصباح الباكر ، فوصلا فى نحو الساعة التاسعة صباحا إلى « تانتى » فنزلا هناك لتناول الافطار ، وقد صارا فى صميم مقاطعة بيكارديه . وكان رب الخان رجلا طيب القلب صريحاً ، وكان بلانشيه من أهالى الاقليم وان كان قد هاجر منه منذ زمن طويل ، لهذا أنس صاحب الخان اليه ولم يبخل عليه بكل مالديه من المعلومات . فعرف منه أن ضيعة « براسيه » لاتبعد إلا بضعة فراسخ عن مدينة عينها له ، فاتجه دارتانيان مع بلانشيه إلى تلك المدينة ، ونزلا فى فندقها المسمى « الدلفين الذهبى » . وكانت المعلومات المستقاة من ذلك الفندق تبعث على الرضى . فقد اتضح أن ضيعة « براسيه » لاتبعد فعلا عن هـذه المدينة إلا بمقدار أربعة فراسخ . ولكنهما علما أيضاً أن البارون بورتوس لايقيم فى الوقت الحاضر بضيعة « براسيه » بعد أن ضاق بطول الخلاف بينه وبين أسقف « نويون » بخصوص ضيعة « بييرفون » المتاخمة لأرضه ، وانتهى به الأمر أخيراً إلى فض الاشكال بشراء تلك الضيعة ، وأضاف اسمها إلى اسمه بحيث صار ينادى فى الوقت الحاضر « السيد بورتوس دى فالون دى براسيه دى بييرفون » وهو يفضل الآن الاقامة فى ضيعته الجديدة ، وهناك ينبغى أن ينشده دارتانيان

وكان لابد من الانتظار إلى اليوم التالى ، لأن الجوادين كانا متعبين بعد الرحلة الشاقة من باريس ، فلما كان الصباح ركبا فى الساعة الثامنة ليخترقا الغابة المسماة غابة « كومبيينى » ، ثم يتجهان بعد اختراقها إلى اليمين

فما أن اخترقا الغابة حتى تراءت لدارتانيان ابراج حصن اقطاعى هائل كقصور كبار الأمراء ولما بلغا نهاية الطريق ، أبصرا تحتهما واديا رائعاً فيه بحيرة جميلة تتناثر حولها بيوت صغيرة

لطيفة ، وتشرف عليها جميعاً قلعة جميلة ينتهى عندها الطريق . فأدرك دارتانيان أن صديقه بورتوس يقيم فى تلك القلعة

وبعد عشر دقائق وجد دارتانيان نفسه على رأس ممر مستقيم تحف بجانبيه أشجار السنديان ، ويفضى ذلك الممر إلى سور من الحديد المذهب . والتق فى وسط ذلك الطريق بسيد عليه حلة خضراء مذهبة ، تضاهى ذلك السور المذهب ، ومن تحته جواد ضخم الجثة غالى الثمن من خيول النزهة ، ويحف بجانبيه وصيفان تملأ النقوش الذهبية كل موضع فى حلتيهما ، وبين يديه جمهور من الفلاحين تقوست ظهورهم اظهاراً للولاء . وخطر لدارتانيان أن هذا هو صاحبه القديم بورتوس فى مجده الطريف ، فأسرع يهمز جواده ليطير به اليه ، فاذا به يتبين فيه خادم بورتوس القديم السمين ، نقيض بازان فى الجسم والسجايا ، الملقب بـ « موسكيتن » . وتهلل وجه الرجل وهو يخف للقاء صديق سيده دارتانيان ، وأنزله الوصيفان عن حصانه ، لأن جسمه الضخم لا يسمح له بالركوب والنزول بنفسه ، وما رأى الخدم والفلاحون ترحيب « موسكيتن » حتى اتجهوا باحترامهم إلى تلك الشمس الطالعة ، وصاح موسكيتن :

— ما أشد فرح مولاى سيد ڤالون وبراسيه وبيرفون بحضور سيدى الكونت دارتانيان

— يا لموسكيتن الطيب القلب ! سيدك هنا إذن ؟

— إنك ياسيدى تقف فى حدود أراضيه

وهجم بلانشيه على موسكيتن يعانقه ويحاول عبثاً أن يضم ذراعيه حول خاصرته . وبعد أن انتهى ذلك العناق قال موسكيتن لدارتانيان :

— والآن ياسيدى اسمح لى أن أغادرك ، فانى لا أرضى أن يسمع مولاى بقدومك من فم أحد سواى

— يا لذلك الصديق العزيز . انه إذن لم ينس صاحبه القديم !

— ينساك ياسيدى ؟ مامن يوم انقضى إلا ونحن ننتظر أن نسمع أنك قد عينت مارشالا لفرنسا خلفاً للسيد دى « جاسيون » أو فى مكان السيد دى « باسوتبير » . فانك لست أقل بسالة ومقدرة فى الحروب من أيهما

فافترت شفتا دارتانيان عن ابتسامة حزينة ، وصاح « موسكيتن » فى الوصيفين :

— إبقيا أيها الصُّعلوكان هنا بين يدى سيدى الكونت دارتانيان ، واياكما أن تقصرا فى تقديم الاحترامات والانحناءات له طول الوقت ريثما أخطر مولاى

ثم تعاون الوصيفان على رفع موسكيتن إلى صهوة جواده الضخم ثم أسرع يعدو فوق الحشائش نحو القصر

اخترق دارتانيان السور الحديدى المذهب فألفى نفسه فى مواجهة القصر ، فما ان ترجل عن جواده حتى رأى على الدرج الكبير عملاقاً ضخما دق لمرآه قلبه ، فقد كان ذلك العملاق الذى تدل قامته وطلعته على الشجاعة والطيبة هو صديق الزمان الخالى بورتوس . فأسرع يعدو نحوه فاتحاً ذراعيه . وصاح بورتوس بصوته الأجش وهو يعصر صديقه بين ذراعيه :

— ما أسعدنى برؤياك يا عزيزى دارتانيان . ها أنت لم تنسنى

— أنساك يا عزيزى دى فالون ؟ وهل يستطيع المرء أن ينسى أجمل أيام شبابه وأعز أصدقائه الذين جمعهم به الخطر المشترك ؟

فجعل بورتوس يسوى شاربه الضخم ويفتله على ذكر تلك الأيام وقال :

— طبعاً طبعاً . لقد فعلنا الأفاعيل وسببنا المتاعب الجسام للكردينال المسكين . فرحباً بك يا صديقى كى تدخل العزاء والسرور على قلبى . وغداً نصطاد الأرانب البرية فى السهل ، وان لى لسهلا جميلا ، أو نصطاد الأيائل فى بعض غاباتى ، وإن لى لغابات رائعة . وان كلاب صيدى من جميع الأنواع ليس لها نظير فى المنطقة كلها

ثم ندت عنه آهة عميقة لم تغب عن دارتانيان فقال فى نفسه :

— أترى هذا الرجل الوجيه قد أخطأته السعادة ؟

ولكنه أجاب صديقه بصوت مرتفع :

— أحب قبل هذا وذاك أن تقدمنى الى قرينتك مدام دى فالون

فتنهد بورتوس مرة أخرى فى حسرة وقال :

— لقد فقدت مدام دى فالون منذ سنتين . وها أنت ترانى لا أزال متألماً من هول الصدمة . وقد تركت قصرى فى ضيعة فالون للاقامة فى قصرى بضيعة براسيير حباً فى التغيير والابتعاد عن المكان الذى سعدنا فيه معاً . وقد أدى ذلك الى شرائى هذا القصر

— أنت إذن غنى وأعزب ؟

— أجل وا أسفاه . فأنا أرمل ودخلى أربعون ألف جنيه . هيه ! هيا بنا نتغدى !

فدخلا القصر فاذا نقوش وطنافس مذهبة فى كل مكان من الأرض الى السقف ، والأثاث أيضاً كان مذهباً . وكانت المائدة معدة فجلس الصديقان اليها ، وراح بورتوس يتنهد بين كل لقمة وأخرى . ودارتانيان يحصى التنهدات ، وأخيراً قال :

— يبدو لى يا صديقى أنك مهموم

— لا أكتمك يا صديقى أننى لست سعيداً

— أنت يا بورتوس غير سعيد ، ولك القصور والضياع ، والسهول والتلاع ، والغابات والقلاع ؟

— وما قيمة هذا كله وأنا فيه وحيد فريد ؟ وليت الأمر اقتصر على هذا يا عزيزى دارتانيان ، فمن حولى أثرياء محدثون ، أقل منى فى كل شىء ، ومنهم من يزعم أن نسبه يرتفع الى شرلمان . آه يا صديق لو أنى كنت . . .

— بارونا ؟ أليس كذلك ؟

— آه يا صديق . لو كنت بارونا

— اطمئن يا صديق فهذا اللقب هو ما جئت أحمله إليك !

فقفز بورتوس من مقعده قفزة ارتجت لها القاعة الكبيرة ، وتدحرج لشدتها أكثر من قارورة من قوارير النبيذ . ونهض الصديقان للتمشى فى الحديقة الكبيرة ، ضماناً لحسن الخلوة أثناء الحديث ، وهناك فاتحه دارتانيان فى أنه ليس عليه للحصول على ذلك اللقب إلا أن يعود الى بعض سيرته الأولى أيام الصعلكة والمغامرات . فصاح بورتوس :

— هى الحرب اذن ؟

— إى وربى !

— وضد من ؟

— إننى موفد يا صديق من قبل نيافة الكردينال مازاران

— ومن الذى حدث نيافته عنى ؟

— إنه دى روشفور . ألا تذكره ؟

— أجل ، فقد كان من أعتى الخصوم وأنبلهم . وماذا قلت للكردينال حين كلفك الاتصال بى ؟

— اشترطت لك شروطاً . أهمها طبعاً براءة البارونية

— وهل لم تفكر فى صديقينا الآخرين ؟

— بلى ! وقد قابلت أراميس

— وما مطالبه ؟ الأسقفية ؟

— إن أراميس يا صديق قد أشرب الرهبنة حتى زهد فى كل شىء ولم أفلح فى إقناعه بالاهتمام بالدنيويات

— واخسارتاه . لقد كان دائماً رجل تأمل . وآتوس ؟

— لم أره بعد . وسأتوجه اليه بعد مغادرتك . أتدرى أين أجده ؟

— بالقرب من « بلوا » فى ضيعة صغيرة ورثها لا أدرى ممن

— وما اسم هذه الضيعة ؟

— كنتية براجيلون . فهو الآن كونت دى لافير وكونت براجيلون . ولكنها قطعة أرض صغيرة

— وهل أنجب أولاداً ؟

— لقد سمعت أنه تبنى غلاماً يشبهه كل الشبه

— سأذهب من غد لزيارته ، فاذا انضم الينا كان خيراً ، والا اكتفينا باتحادنا الثنائى ، فنحن بمقام اثنى عشر رجلا

— تماما ، ولكن أربعتنا بمقام ستة وثلاثين . وهل تدوم هذه المهمة العسكرية طويلا ؟

— ربما دامت ثلاثة أعوام أو أربعة ، وربما احتدم القتال

— على بركة الله . فان يدى تأكلنى شوقا الى امتشاق الحسام

ثم نادى تابعه السمين وكلفه بتجهيز عدة الحرب من الدروع ، وتطهير الخيل ، وصقل السيوف ، فوجم وكيل الدائرة — فهذه هى وظيفة الخادم القديم فى العز الجديد — ولكنه لم يلبث أن رضخ على مضض لارادة سيده ، وهو يشعر أن الانسان كافر بالنعمة يدخله الله الجنة فيخرج منها بمحض رغبته

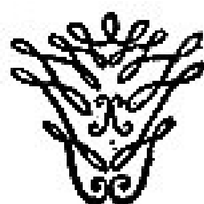
ولما حان أن يفترق الصديقان ، سأل بورتوس دارتانيان عن التعليمات فقال له :

— ستستغرق رحلتى الى « بلوا » ثلاثة أيام ، وأقيم هناك يوما . وتستغرق رحلتى من هناك الى باريس ثلاثة أيام أو أربعة . فيحسن أن ترحل من هنا بعد أسبوع فى عدتك وعتادك ، وتنزل فى فندق العنزة الصغيرة بشارع « تيكتن » ، وهناك تنتظر أوبتى

— وهو كذلك



وودع دارتانيان صديقه بعد ذلك وركب مع تابعه بلانشيه الى بلوا . ولكنه لم ينس فى منتصف الطريق أن يكتب الى الكردينال تقريراً مختصراً عن قبول بورتوس للخدمة ، وأنه فى طريقه إلى آتوس فى قصر براجيلون من ضواحى مدينة بلوا



قصر براجيلون..

وصل دارتانيان وبلانشيه بعد ثلاثة أيام الى ضواحي « بلوا » . وهنــاك رأيا حطاباً يسوق عربة محملة بالأخشاب المقطوعة من الغابة فسألاه عن الـكونت دي براجيلون . فقال لهما الرجل ان الغابة التي يحتطب منها ملك للـكونت ، وانه في طريقه الآن الى قصره ، ثم أشار الى طريق مستقيم يفضي الى القصر ونصحهما بالتزامه بدلا من أن يتبعا عربته البطيئة التي تجرها الثيران . وأخيراً وصلا الى قصر متواضع ، فجذب بلانشيه حبل جرس الباب ، ففتح لهما وصيف أشيب الشعر معتدل القامة ، فأدخلهما . وذهب ليبلغ سيده بمقدم الضيف

وكان لقاء حاراً بين الصديقين ، تبادلا فيه العناق ، ثم جذب آتوس يد دارتانيان ودخل به قاعة غاصة بالضيوف ، فنهض الجميع لتحيته ، وقدمه آتوس اليهم خير تقديم ، ثم جلس دارتانيان بينهم فاستأنفوا الحديث الذي انقطع بقدومه ، وأدهشه أن يرى ان صديقه آتوس لم تنل منه السن في تلك المدة الطويلة ، بل ان نظراته أصبحت أصفى، بالنسبة للراحة وانتظام المعيشة في هذه السنوات

ولم يلبث الضيوف أن أدركوا ان وجودهم غير مرغوب فيه فاستأذنوا في الانصراف ، بيد انه سمعت في صحن الدار جلبة ، ونباح كلاب ، فقال نفر من الضيوف في صوت واحد :

— هذا هو راؤول قد عاد

والتفت دارتانيان التفاتة آلية فإذا غلام في نحو الخامسة عشرة ، بسيط الهندام ولكن في ذوق حسن . ولاحظ دارتانيان الشبه الشديد بين هذا الغلام وبين صديقه الذي احتفى بالغلام وهش له ، ولـكنه رأى في وجهه شحوباً فقال له في لهفة :

— ماذا بك ياراؤول ؟ فاني أراك مكفهر اللون

— ذلك ياسيدي أن مكروهاً وقع لجارتنا الصغيرة الآنسة لافاليير

فارتفعت في القاعة أصوات كثيرة تستفسره فقال :

— لقد كانت تتنزه مع مربيتها مارسلين في الغابة حيث يعمل الحطابون في قطع الأشجار، حين مررت على صهوة جوادي فرأتني وقفزت من فوق كومة من الأخشاب لتسرع إلىّ فالتوى قدمها

— وأمها ؟ هل علمت بالخبر ؟

— انها ياسيدى فى بلوا لدى دوقة أورليان . وكان همي أن تقدم الاسعافات الأولية للطفلة المسكينة ، وأخشى ألا تكون كافية

— اذهب حالا الى بلوا واخبر أمها . ولكن أين لويز نفسها ؟

— لقد أتيت بها الى هنا ووضعت امرأة شارلو قدمها فى ماء بارد

وبعد انتهاء هذه المناقشة انصرف الضيوف ماعدا دون باريه العجوز الذى دخل ليرى لويز . وكانت تبكى ، ولكنها ما رأت راؤول حتى لاحت الابتسامة فى عينيها فى الحال . وعرض الدوق العجوز أن يأخذها فى عربته الى امها ، فوافق آتوس على أن يصحبها راؤول ثم يعود

وحمل الفتى الطفلة بين ذراعيه فوضعها فى العربة وانطلقا . وسار دارتانيان مع آتوس يتمشيان فى الحديقة انتظاراً لتجهيز العشاء ، وقد لاحظ آتوس أن ضيفه وصديقه القديم متعجب مما يرى ، فراح يمازحه ويتذكران معاً أيامهما الخالية . الى أن سأله :

— وهذا الشاب ، أهو من أقربائك ؟

— انه ياصديق يتيم تركته أمه فى حضانة قسيس فتبنيته وربيته . وأعتقد انه يحبنى كما لو كنت أباه . وهو شديد العرفان لجميلى مع أنى فى الواقع أنا المدين له بعتقى الوحيدة فى الحياة ، فهو نور سعادتى والسبب فى النضرة التى تراها على وجهى



وبعد العشاء بقليل وصل راؤول ، فقدمه آتوس لدارتانيان ، فقال الفتى :

— كثيراً ماحدثنى سيدى الكونت دى فالون عنك ياسيدى بوصفك مثلا من أعظم أمثلة الشجاعة والخلق الكريم

فتأثر دارتانيان كثيراً لفرط أدبه ، وقال :

— الحق ياعزيزى الشاب ان كل مايعزوه إلى من الفضائل انما مرده الى الكونت ، فقد كان أستاذى فى مكارم الأخلاق ، وهنيئاً لك انه صار أستاذك أنت أيضاً

ثم سأل الكونت راؤول عن صحة الفتاة فقال إن الطبيب لايستطيع أن يجزم بشىء حتى الآن . ولكنه يعتقد أن المسألة سليمة العواقب

وأثناء السهر راح دارتانيان يقص على راؤول طرفاً من مواقف البسالة التى وقفها آتوس فى الزمان الخالى ، الى أن نبه آتوس راؤول الى أن الضيف متعب من وعثاء السفر وينبغى أن يترك لينام

أوى دارتانيان إلى فراشه، لا لهفة على النوم، بل تلهفاً إلى الخلوة بنفسه كي يطلق لأفكاره العنان ويتأمل ويسترجع كل ما شاهده وسمعه ذلك النهار . فمن هو ذلك الشاب الذي يقول آتوس أنه تبناه ، والذي يشبهه شبهاً عظيماً ؟ وكيف يوفق بين اعتكاف صاحبه في الريف وتقشفه في مسكنه ولباسه وطعامه وشرابه ـ فقد كانت المائدة بسيطة غاية البساطة ـ وبين اتصاله بالناس وتزاوره معهم ، حتى لقد اجتمع ذلك اليوم في صالونه منهم خلق كثير ؟

وقد دله كل ذلك على أن صاحبه رجل لا يفرض عليه العزلة إلا ضيق موارده، وأن نفسه تنازعه مع ذلك إلى الظهور. وذلك دليل على يقظة مطامعه، وأن الثراء والجاه هما نقطة الضعف التي يمكن أن يساس منها. فلما اطمأن إلى ذلك الرأي استسلم للنوم ، ولكنه استيقظ عند السحر على عادته في البكور، فقفز من فراشه وفتح النوافذ وقد بدأت أشعة الفجر تلقي لونها الذهبي الباهت على كل شيء، فخيل إليه أن شخصاً ما يمشي في صحن الدار محاذراً أن تنم عنه أصوات خطواته ، فحدق دارتانيان في ذلك الشبح ، فعرف في قامته وشعره القزير راؤول

وفتح الشاب باب الاسطبل فخرج منه جواد أشهب، هو الجواد الذي كان يمتطيه في اليوم السابق فأسرجه وألجمه في مهارة وسرعة أعجب بهما دارتانيان ، ثم انطلق فوقه كالسهم في الطريق المفضي إلى بلوا . وظل دارتانيان مطلا من النافذة، حتى إذا سمع أصواتاً في القصر تنم عن اليقظة مشط شعره وسوى شاربيه ونزل إلى الحديقة ، فإذا آتوس منحن فوق الأرض كمن يبحث عن درهم ضائع ، فحياه ثم سأله مستغرباً عم يبحث ، فقال له :

ــ إني أبحث عن أزهار صغيرة كانت هنا بالأمس ، ويبدو أن البستاني الأحمق داسها بقدمه . كلا. بل هذه حوافر جواد فيظهر أنه فعل ذلك عند عودته بالجواد من السقاة . كلا . فهذه علامات جديدة ليست منذ أمس . فمن يا ترى الذي خرج راكباً في هذه الساعة المبكرة ؟ أم ترى أفلت جواد من الاسطبل ؟

ــ ان مواضع الحوافر منتظمة انتظاماً لا يدل على الهرب، بل على أن راكباً ماهراً كان فوق صهوة الجواد

ــ أين راؤول ؟ إنه لا يستيقظ مبكراً على الدوام

فابتسم دارتانيان ابتسامة ذات مغزى ووضع سبابته على فمه ، ففهم آتوس المقصود ، وابتسم بحنان وقال :

ــ لا بد أنه ذهب إلى بلوا للاطمئنان على الصغيرة المسكينة لما أصاب قدمها أمس ، فهو مفتون بها

ــ بهذه الطفلة التي لا تعدو السابعة ؟

ــ ان الحب في هذه السن له شؤون غريبة . وأنا أحسبه اتجه ذلك الاتجاه لأنه لا يجد

ما يشغله . لهذا فكرت فى ابعاده عن هنا ، فما رأيك فى ارساله الى باريس ؟

— استحسن أن يلتحق بالجيش . أم لا يروقك أن يحيا الفتى حياة مغامراتنا الأولى ؟ ألا تشتاق إليها أنت ؟

— أهو عرض تعرضه أم مجرد كلام عابر ؟

— بل عرض صريح واضح

— ممن وضد من ؟ ألا فاعلم أننى لا أرى قضية تستحق أن يخدمها مثلى اللهم إلا قضية الملك . والملك بالذات ، لا الملكة أومازاران تحت ستار الملك . فباسم أيهما تتكلم ؟

— يا له من رد مفحم . ولكن اعذرنى يا صديق ، فظروفى غير ظروفك ، فأنت مثلا ميسور المعاش وكذلك بورتوس من كبار الأثرياء ، وأراميس أيضاً مطمئن إلى حياته، أما أنا فما زلت ملازماً فقيراً . وقد جئتك ألتمس النصح لتحسين حالى ، ولا سيما أنى أرى أنى لا أستطيع بدونكم شيئاً مذكوراً

— وهل وافقك بورتوس على الانضمام لك فى طلب المجد ؟

— أجل . وثمن ذلك براءة البارونية

وفى هذه اللحظة دخل راؤول بادى الحزن ، فالطفلة لم تنم طول الليل من شدة الألم ، والطبيب تساوره الشكوك والمخاوف أن تظل الفتاة عرجاء طول حياتها . ويحز فى نفس راؤول أن ذلك كان بسببه

وبعد الافطار ورد خطابان قرأهما آتوس بعناية شديدة . وقد تبين دارتانيان فى أحدهما خط أراميس الراهب، والآخر بخط امرأة . وفى هذه اللحظة دخل الخادم شارلو برسالة لدارتانيان حملها رسول خاص ، وكانت دعوة من مازاران كى يعود فوراً إلى باريس . فقال :

— إنى راحل يا صديق ، فهل أنت مصمم ألا تأتى معى ؟

— إذا ذهبت إلى باريس فسيسرنى أن أراك

ثم تعانق الصديقان ورحل دارتانيان وبلانشيه . وما أن غابا عن الأنظار حتى قال آتوس لراؤول :

— استعد فنحن راحلان الليلة إلى باريس . فاذهب وودع لويز وأمها وعد قبل الساعة السابعة



فرار من السجن

وهذه من الحوادث التى تسببت فى استدعاء دارتانيان إلى باريس بصفة عاجلة . ففى ذات ليلة بينما كان مازاران على عادته فى طريقه إلى جنـاح للملكة الخاص ، مر من أمام قاعات الحرس فسمع من داخلها كلاما بصوت مسموع فمشى متسللا كالذئب دون أن يسمع لخطواته صوت وأخذ يتسمع ، فاذا مناقشة حامية بين الجنود ، على الوجه التالى :

— ان العراف « كويزل » قد تنبأ بهذا ، فمن المؤكد أنه سيحدث حتما ، فانى وان كنت لا أعرفه شخصياً ، إلا أنى سمعت أنه ليس منجما فحسب ، وإنمـا هو ساحر عظيم أيضا

— حذار ياصديق أن تقول لأحد هذا الكلام فانك بهذا تضره ولا تنفعه

— لماذا ؟

— لأنه قد يقدم إلى المحاكمة بتهمة السحر . ثم هـل تعتقد أن الهرب من القضاء والقدر ممكن ؟ إذا كان مكتوبا للدوق دي بوفور أن ينجو من الاعتقال فكل احتياطات الكردينال لن تجدى فى منعه

فانتفض مازاران عندما سمع هذا ، فهو ايطالى ، والطليان شديدو الاعتقاد فى التنجيم ، ففتح الباب ودخل القاعة وقال :

— ماذا كنتم تقولون أيها السادة ؟ هل الدوق بوفور هرب ؟

— كلا ياصاحب النيافة . بل كنا نقول أنه لابد سيهرب

— ومن الذى تنبأ بهذا ؟

— منجم يدعى كويزل أكد أنه مهما كانت الحراسة على الدوق دى بوفور شديدة فانه سيستطيع الهرب قبل عيد العنصرة

فطأطـأ مازاران رأسه وانصرف مهموما لأن ذلك العراف كان مشهوراً بالتنبؤات الصادقة ، فهو الذى تنبأ فيما مضى بأن الملكة ستنجب ولداً ذكراً ، وأن « كولينى » سيموت مقتولا بسيف الدوق دى جيز . وبدلا من أن يتم طريقه إلى مخدع الملكة ، عاد الى مكتبه وأمر باستدعاء رئيس القوة المكلفة بحراسة سجن فنسين حيث الدوق دى بوفور —

ومهمة حراسة الدوق هي المهمة التي كان مازاران قد عرضها على دي روشفور فرفضها

وفي الساعة السابعة صباحا كان رئيس الحرس « لاراميه » قد جاء ، فلما دخل عليه قال له الكردينال :

— اتدري ياسيدي ماذا يقال هنا ؟

— كلا ياصاحب النيافة .

— يقولون ان الدوق دي بوفور إذا لم يكن قد هرب فعلا فهو لابد سيهرب قبل عيد العنصرة

فقهقه الضابط ضاحكا لأنه ظنها نكتة من جانب الكردينال

— يظهر أن صاحب النيافة لايعرف مدى الترتيبات والاحتياطات المتخذة في فنسين . فالحيطان يبلغ سمكها سبعة أقدام ، والنوافذ لها قضبان متعارضة ، كل قضيب منها في سمك الذراع ، والدوق محوط على الدوام بثمانية حراس ، أربعة منهم في حجرته لا يفارقونه أبداً ، وأربعة آخرون في حجرة الانتظار الملحقة بها

— ولكنه يخرج من الحجرة ويلعب التنس

— يا صاحب النيافة ، هذه ألعاب مسموح بها للسجناء الأشراف . وعلى كل حال ففي الامكان إذا أردتم أن نحرمه منها

— ومع من يلعب ؟

— مع ضابط الحرس أو معي أنا ، أو مع غيره من السجناء

— وهل لايقترب من الأسوار أثناء اللعب ؟

— ان نيافتكم لاتعرفون هذه الأسوار . فارتفاعها ستون قدما ، ولا أظن الدوق قد ضاق بحياته إلى حد القفز من هذا الارتفاع فتدق عنقه . يضاف إلى هذا أن حاكم السجن هو السيد دي شافيني ، وهو ليس من المشهورين بصداقته للدوق بوفور

— هذا صحيح ، ولكن السيد دي شافيني يتغيب أحيانا

— إذا تغيب هو فلابد أن أكون أنا موجودا

— وإذا حدث أن غبتما معا ؟

— في هذه الحالة يحل محلي شاب طموح إلى الترقي ، وأنا أضمن حسن حراسته . ومنذ عين هذا الشاب — أي منذ ثلاثة أسابيع — ولا مأخذ لي عليه إلا أنه يتغالى في التشديد على السجين

— وما اسم هذا الشاب ؟

— جريمو ...

— وماذا كانت صناعته قبل أن تستخدمه ؟

— كان يقيم في الريف ، ويظهر أنه ارتكب ماجعل إقامته هناك خطرة على حياته ، فن مصلحته أن يحتمي بخدمة الملك لينجو من العقاب

— ومن الذى أوصاك بهذا الرجل ؟

— وكيل دائرة الدوق دى جرامون

— فهو إذن أهل للثقة في رأيك ؟

— كما تثق في شخصي تماما ياصاحب النيافة

— اذن أكرمه وأجزل له العطاء كي يتفانى في الخدمة والحراسة

وراح الكردينال يلقي عليه أسئلة كثيرة خاصة بأحوال السجين وعلم من جوابه أن جريمو حارس لانظير له ، حتى لقد تمنى أن يكون هناك عشرة من أمثاله ليكفوه مؤونة جميع الأمراء المسجونين

ومع هذا رأى من الاحتياط أن يستدعي دارتانيان فوراً كي يضاعف به الحراسة على الدوق . فهذا الدوق حفيد هنري الرابع ، وهو مثل جده بسالة واعتزازاً بنفسه وعنادا ، ولكنه محدود الثقافة . وكانت له المكانة الأولى في البلاط في عهد لويس الثالث عشر ، حتى حل محله مازاران ، ومنذ هذه اللحظة بدأت عداوتهما الشديدة

فن هو جريمو ؟

إنه خادم آتوس القديم ، أي صنو بازان وبلانشيه وموسكيتون . ولم يجد دارتانيان له أثراً عند زيارته لآتوس ، فسأله عنه فقال إنه أقرضه لبعض جيرانه مؤقتا . . . وهانحن نجده متخفيا في زى حرس الملك ، سجانا للدوق دى بوفور ، زعيم المعارضة ، والذى تآمر المعارضة لتهريبه من سجنه المنيع . . .

وقد تقمص جريمو شخصية السجان القاسي على خير وجه ، فقد تقدم الى حاكم السجن بوجه عابس ، تظله جبهته الضيقة ، ونظرته التي تنم على السخط ، وفمه المطبق الذى لايعرف الكلام إلا في النزر اليسير . فاذا ما حدثه الحاكم عشرين كلمة أجابه بكلمتين ، فاكتسب لديه ثقة في صلاحيته للعمل ، وكانت الوصية الأولى اليه ألا يدع السجين وحيداً بأى حال ، وأن ينزع من يده كل آلة حادة أو مدببة ، وأن يمنعه من التخاطب بالاشارة من خلال النافذة مع أى إنسان خارج السجن ، وأن يحول دون اشتباكه في الحديث أكثر مما يجب مع حراسه

وبهذه التعليمات المشددة دخل جريمو على الدوق دى بوفور ، فاستطاع أن يكتسب

نفوره وكراهيته من أول لحظة ، وذلك بالطريقة الخشنة المتعنتة التي أدى بها واجباته .
وفي ذات مرة ، وقد خلت الحجرة إلا منهما ، طفح الكيل وثارت ثائرة الدوق ، فصاح بجريمو محنقا :

— يا لك من عتل ! لأحطمن عظامك ، إذ يبدو أنه لا سبيل إلى الخلاص منك إلا أن أخنقك بيدي ، وإني فاعل ذلك من ساعتي هذه نظير البر عاجله !

وهجم على جريمو وقد تشنجت أصابعه كي يخنقه . وكانت له أصابع كأنها كلابات من حديد . فالدوق من أشهر أهل زمانه بالقوة البدنية ، فاذا بجريمو يخرج من طيات ثيابه رقعة ذات غلاف فاخر ويقدمها الى الدوق دون أن ينبس ببنت شفة . فتراخت يدا الدوق ، وتناول الرقعة وهو في أشد حالات الدهشة ، وفضها وقرأها عدة مرات لأنه لم يكن يصدق عينيه . وجاء فيها تزكية لجريمو ، وكيف أنه وصيف أحد رجال العصبة ، وأن ساعة الخلاص قد دنت ، وكان التوقيع « ماري دي مون بازون »

فلما خفت دهشة الدوق وأدرك مغزى الرسالة ، مد يده إلى جريمو فتناولها جريمو وطبع عليها قبلة احترام ، فوصيف آتوس كان قد تعلم على سيده آداب اللياقة . وسأله الدوق عما ينبغي أن يفعل ، فقال :

— الساعة الآن الحادية عشرة قبل الظهر . فما على مولاي إلا أن يطلب في الساعة الثانية أن يلعب التنس مع قائد الحرس « لارآميه » (وهو نفسه الذي رأيناه في الفصل السابق بين يدي مازاران لتشديد الحراسة) ، ثم تقذف كرتين أو ثلاثة خارج الأسوار . ثم يقترب مولاي من الأسوار ويصرخ في رجل يعمل في الخندق أن يقذفها الى داخل السجن ثانية . ولكني أطلب من مولاي وعداً قاطعاً قبل كل شيء

— وماذاك ؟

— أن يدعني مولاي حين نشرع في الهرب أسبقه باستمرار وأمشي أمامه ، لأنه إذا أمسك مولاي فأقصى ما يتعرض له أن يعاد إلى السجن ، أما إذا لحقوا بي أنا فهي المشنقة ولا مراء !

— هذا حق ، وأعدك بتنفيذ هذا الشرط وعد الشريف الحر

— وشرط آخر ، أن يستمر مولاي على إظهار الكراهية والبغض لي

وفي هذه اللحظة دق الباب ، فأخفى الدوق الرقعة في جيبه وانطرح على الفراش ، وفتح جريمو الباب ، فاذا لارآميه عائداً من لدى الكردينال

وفي الساعة الثانية طلب الدوق أن يلاعبه لارآميه التنس ، فاستمهله لارآميه نصف

ساعة ، لأن بطنه تشكو الجوع ، فعرض عليــه الدوق أن يستحضر له غذاء من طعامه الخاص ، فاعتذر قائلا :

— إن أمام السجن صانع حلوى من أهالى باريس ، يقال إن الأطباء نصحوا له بجو الريف ففتح محله هـــذا منذ أسبوع ، وقد رأيت فى واجهة حانوته أشياء يامولاى يتحلب لها اللعاب ، وقد نادانى والتمس منى أن أجعله متعهد السجن ، وكى يبرهن لى على حسن صنعته ، أرانى فطيرة فاخرة وزجاجة نبيذ برغندى فاخر جعلهــا لى ، وقد وعدته أن أتناولها عنده بعد نصف ساعة ، فلا تحرمنى يامولاى من هذه الفرصة النادرة



وما انقضت نصف الساعة حتى عاد لاراميه وعلى وجهه آيات السعادة واضحة ، شأن من اكتظت بطنه بالطعام وانتشى بالشراب . وفى هذه الحالة بدأت لعبة التنس بينه وبين الدوق . فلم يكن أسهل على الدوق من تنفيذ تعليمات جريمو بالقاء الـكرات فى الخندق ، الأمر الذى ابتهج له جريمو كثيراً لأن كل كرة تقع فى الخندق تسجل له كسباً مقداره خمسة عشر بنطاً . وظل الدوق يقذف بالـكرات فى الخندق حتى قل عددها جداً وصارت استعادتها ضرورة حتمية لاستمرار اللعب ، وحينئذ توجه الدوق إلى الاستحكامات فوجد رجلا يعمل فى قاع الخندق وعمقه ستون قدماً ، فصاح به ان اقذف لنا الـكرات ، وقذف الرجل الـكرات وراح يتلقفها الحراس ، ولـكن واحدة منها وقعت عند قدمى الدوق فالتقطها ووضعها فى جيبه

وبعد أن انتهى اللعب أوى الدوق إلى غرفته وأعلن عن رغبته فى النوم ، وخلع ملابسه ، ولـكنه تمكن من اخفاء الـكرة بين الوسائد ، وأخذ لاراميه الملابس بحجة تنظيفها من التراب ، والواقع انه أراد أن يضمن عدم خروج الدوق من الغرفة

وما أن أقفل عليه باب الغرفة حتى مزق بأسنانه الغلاف الخارجي للكرة ، فوجد بداخله الكلمات الآتية :

— ان أصدقاءك يامولاى ساهرون وقد اقتربت ساعة الخلاص فاطلب بعد غد أن يأتوك من محل الحلوى المقام أمام السجن بفطيرة فاخرة ، فليس صاحب هذا الحانوت إلا طاهيك القديم « نورامون » ولا تفتح الفطيرة إلا حين تكون وحيداً . وأتمنى أن ترضى عما ستجده بداخلها ، وأن ترضى عن المخلص لسموك الـكونت دى روشفور

وأحرق الدوق الرسالة ، وكاد يحرق الـكرة أيضاً ، لولا أنه تذكر أنها قد تفيده فى إرسال الرد . ورأى لاراميه اللهب من زجاج الباب ففتح الباب ودخل ، فأفهمه الدوق انه يشعر بالبرد ولذلك فكر فى إشعال المدفأة ، ثم أردف :

— وهذه وسيلة الدفء الوحيدة التى يستطيعهــا من لا يأكلون الفطائر الدسمة مع النبيذ البرغندى

— هذا أمر سهل يامولاى ، فقد وعدت الرجل أن أجعل نزلاء السجن الأشراف من زبائنه ، وهو قد أكرمنى وسيكرمنى لهذا الغرض ، فر تأتك بالفطائر فى أى وقت تشاء

— أليس بعد غد عيداً ؟

— بلى ! عيد العنصرة

— فهل لك إذن فى إعطائى درساً خصوصياً بعد غد ؟

— فى أى مادة يامولاى ؟

— فى مادة الشراهة !

— بكل سرور يامولاى

— وأحب أن يكون الدرس على انفراد حتى نأخذ راحتنا فى الأكل أنا وأنت فتصرف الحراس ، وأترك لك حرية التصرف فى الأنواع والكميات ، على أن تكون الفطيرة من بينها

وفكر لاراميه قليلا فلم يجد بأساً فى الموضوع ، لأنه هو الذى سيشرف على إعداد الأصناف وسيضمن أن تكون خالية من أى مخدر ، ولكنه أخذاً بالأحوط اشترط أن يخدمهما على المائدة جريمو ، فقبل الدوق ولكن تصنع التبرم بهذا العمل الذى يقتل الشهية فقال لاراميه :

— سأوصيه أن يقف وراء مولاى حتى لا يرى خلقته

وما خرج لاراميه وخلى فى الغرفة جريمو والدوق ، حتى أخرج جريمو قلماً وورقة وأملى على الدوق الخطاب التالى :

— كل شىء على مايرام لغد مساء . كونوا على استعداد فى السابعة والنصف . أعدوا جوادين سريعين للركوب . سنهبط من النافذة الأولى فى العنبر

ثم أخذ جريمو الورقة وخاطها حول كرة التنس وكلفه أن يقذفها فى الخندق أثناء اللعب ، ثم أخبر الدوق أن الفطيرة سيكون حشوها خنجران وحبـل ذو عقد ، وكمامة تعذيب للسيد لاراميه



حوالى هذا الوقت الذى تقام فيه الاستعدادات لهرب الدوق من السجن ، كان فارسان يتبعهما خادم يدخلان باريس من ناحية حى سان مارسل . وكان هذان الفارسان هما آتوس (الكونت دى لافير) والفيكونت دى براجيلون (راؤول) . وكانت تبدو على آتوس أمارات الطمأنينة . فلما وصل الفارسان الى فندق الثعلب الأخضر أودعا جواديهما الاسطبل بعد أن أشرفا على أكلهما وراحتهما ، ثم طلبا بعد ذلك حجرتين لاقامتهما ، وحينئذ قال آتوس لراؤول :

— اعتن بزينتك لأنى سأقدمك الى بعض الناس بعد نصف ساعة

وفعلا توجه آتوس وراؤول الى قصر الدوقة دى شيفريز سايلة أمراء « لوين » ، فقدم آتوس راؤول إليها ، وطلب وساطتها لالحاقه بالجيش فوعدت الدوقة بالتوسط لدى الأمير مارسياك والدوقة لنجفيل لتوصية قائد الجيش العام الأمير كونديه به خيراً

وفى المساء توجه آتوس وراؤول الى الأب « سكارون » الذى يمنعه المرض من مغادرة كرسيه المتحرك، فوجدوا عنده خلاصة أهل الفكر والأدب ، ونائب المطران «جوندى» وأراميس أيضاً والدوقة دى شيفريز ، التى أعطت راؤول خطابى التوصية الى الأمير كونديه

وفى ركن من الصالون اختلى آتوس بأراميس ونائب المطران جوندى واستغرقا فى مناقشة حامية ولكن بصوت خافت . وبعد قليل من الليل استأذن آتوس فى الانصراف ، وقال لراؤول :

— نم هذه الليلة ما استطعت فهى آخر لياليك فى الحياة المدنية ، فانك راحل منذ غد الى ميدان القتال لتنخرط فى جيش الأمير كونديه

وما انبثق النهار حتى كان آتوس قد استيقظ وارتدى ملابسه وقد بدت على محياه أمارات الأرق ، فإنه لم يغمض له جفن تلك الليلة ، لقلقه بسبب رحيل راؤول. وشرع يعد لممعدات السفر ، فلما فرغ منها وقد ارتفعت الشمس فى كبد السماء ، فتح باب حجرته فوجده غارقا فى النوم ، فانحنى فوقه وقبل جبهته ، فاستيقظ الفتى وأظهر الخجل لتأخره فى النوم ، وما هى إلا عشر دقائق حتى كان قد ارتدى ملابسه ، وأراد أن يعد حقائبه فأدهشه أن يجدها قد أعدت ، فتناول إفطاره بسرعة ، وركب مع خادمه الخاص أوليفان ، وركب معهما الكونت ليودعهما جزءاً من الطريق

وسار الرجل والغلام صامتين ، وراؤول يحس باقتراب ساعة الوداع ويشفق منها الى أن وصلا الى باب المدينة المسمى باب سان دينيس ، وكان يحرسه جنديان ، فقال أحدهما بصوت مرتفع :

— يبدو أن هذا شاب آخر فى طريقه للالتحاق بالجيش

فقال له آتوس فى دهشة :

— ومن أدراك ؟

— شكله العام ، وسنه ، فهذا ثانى شاب يمر اليوم من هنا لهذا الغرض

— أحقاً ؟

— أجل ، وقد مر الشاب الأول فى موكب وزينة تنبىء عن حسب حسيب

فصاح راؤول مبتهجاً :

— مرحى مرحى ! سيكون هذا الشاب خير رفيق لى فى الطريق ، ولكنه والأسفاه ن يجعلنى أنسى الرفيق الذى فارقته

فقال له آتوس :

— لا أعتقد أنك ستدركه ياراؤول ، فستنتظر هنا قليلا لأنى أريد أن أتحدث إليك بعض الوقت

وراح الاثنان يسيران ببطء مخترقين الحارات الضيقة المكتظة بالناس لمناسبة قرب عيد العنصرة ، الى أن وصلا الى كنيسة كبيرة تتلى فيها الصلاة ، فقال آتوس حينئذ :

— لنترجل هنا ولنترك الخيل بين يدى أوليفان

وتناول آتوس سيفاً ودخل مع راؤول الكنيسة ، فركع أمام الهيكل ، ثم تقدم منه آتوس وقال له :

— هذا هو سيفك أيها الشاب ، وقد كان هذا السيف لأبى ، وكان أبى شريفاً شهماً كريماً . ثم حملته أنا . فإذا كانت يدك لاتزال غضة لدنة لا تقوى على حمله حق حمله ، فان أمامك فسحة من الوقت تتعلم فيها متى ينبغى أن تجرده فلا ترده الى قرابه حتى تقوم له بحقه ، وما حقه إلا أن تنصر به حقاً ، وتمحق به باطلا ، وتنتصر به لضعيف ، وتقهر به طاغياً جباراً

— أعدك ياسيدى أن أكون عند هذا الشرط

ثم جرد السيف من غمده وقبل صفحته فى احترام عميق ، فأنهضه آتوس وعانقه وقبله . وكان هذا وداعهما



كان لاراميه سجاناً بالسليقة ، أميناً فى أداء عمله ، ولم تكن فيه إلا نقطة ضعف واحدة ، وتلك هى شراهته وحبه المفرط لأطايب الطعام والشراب . فما أن فتح له الدوق كيسه وخوله حرية التصرف فى إعداد طعام العيد حتى راح يتفنن ،وطلب إلى صانع الحلوى أن يعد فطيرة ضخمة ، وقال له إنها للدوق دى بوفور كى يجود فى صنعها ولايهتم بالتكاليف فغير غريب إذن أن نجد لاراميه منذ صباح العيد الباكر منهمكا فى تفاصيل المأدبة ، وأن ينتظر الساعة السادسة باللهفة والقلق اللذين ينتظرها بهما الدوق نفسه . ولما زار عند الظهر صانع الحلوى أراه فطيرة كالبرج فجرى الريق فى فم لاراميه ودخل على الدوق وهو يفرك راحتيه

وتصادف لحسن الحظ أن كان الحاكم قد تغيب فى يوم العيد اعتماداً على همة لاراميه . وقضى الدوق الصباح فى لعب التنس مع لاراميه . وحرص جريمو على الجلوس فوق السور

زيادة في الحراسة ، وجعل رجليه إلى خارج السجن ، فكان ذلك علامة على أن هذا هو الموضع الذي سيربط فيه سلم الحبال . ولما بدأت المباراة بانتصار الدوق ، أظهر الدوق سروره بأن نفح كل حارس جنيهين على سبيل العيدية كي يشربوا نخب صحته . ثم انصرف لاراميه بعد ذلك إلى الاشراف على المعدات النهائية للعشاء المنتظر

وأخيراً حانت الساعة السادسة ، فاذا كل شيء حاضر جاهز ، وان كان العشاء لن يبدأ قبل السابعة . وكانت الفطيرة الهائلة الشهية موضوعة على الخوان ، ومن حولها ألوان الطعام . وقد بدا على الجميع التلهف والعجلة : الحراس كي يشربوا ، ولاراميه كي يأكل ، ودى بوفور كي يهرب . أما جريمو فكان الشخص الوحيد الذي لم يظهر على وجهه شيء فكأنه تمثال من الصخر ، حتى لقد كان الدوق يختلط عليه الأمر أحيانا وهو ينظر اليه فيشك في حقيقة الخطة ويعتقد أن الأمر ربما كان حلما

وصرف لاراميه الحراس كي يشربوا نخب صحة الأمير ، فلما انصرفوا أغلق الباب ووضع المفاتيح في جيبه ، وأشار إلى المائدة كمن يقول :

— تحت أمر مولاى

ونظر الأمير إلى جريمو ، ونظر جريمو إلى المزولة ،وكانت تدل على أن الساعة لم تجاوز السادسة إلا بخمس عشرة دقيقة على الأكثر ، وكان الموعد ، أو ساعة الصفر بالتعبير العسكرى هي السابعة تماما ، فلابد إذن من الانتظار ثلاثة أرباع الساعة فتعلل الأمير لتضييع ربع ساعة أخرى بأنه يقرأ فصلا ممتعاً يجب أن يتمه أولا . فراح لاراميه يتشاغل بفتح زجاجات النبيذ وتشمم الفطيرة ، تحايلا منه على تصبير عصافير بطنه الضاوية . فلما صارت الساعة السادسة والنصف قام الدوق وجلس إلى المائدة مشيراً إلى لاراميه أن يجلس أمامه ، فلم يضيع لاراميه وقتاً في المبادرة إلى إجابة دعوة الأمير ، فابتسم الأمير وقال :

— بحق الشيطان يالاراميه ، لو قال لى قائل إن في فرنسا كلها من هو أسعد منك في هذه اللحظة لما صدقته

— أرجو من الله أن يديم على هذه السعادة بدوام صحبة الأمير

— يالها من أمنية طيبة أيها الرجل . أهذا جزائى منك ؟

— وماذا يريد مولاى من الحرية ؟ انك لو خرجت من هنا ، من هذا المعتقل الهين اللين ، فستقع في بحر السياسة ، وتختصم مع أصحاب النفوذ في البلاط في الوقت الحاضر ، وتدخل الباستيل الفظيع ، ونار سجننا أهون ألف مرة من جنة الباستيل

— صدقت ...

وراح الدوق يدير المناقشة على هذا النحو وهو يرقب عقارب المزولة ، حرصاً منه على الموعد ، ثم قال أخيراً :

— أنت ترى إذن ياصديقى لاراميه أنه من نكران الجميل أن أفكر أحيانا فى الهرب؟ ولكنى أصارحك أن هذه الفكرة تراودنى بين الفينة والفينة . وفى ذهنى أربعون وسيلة للفرار من هذا السجن

فراح لاراميه يصب لنفسه كأساً من النبيذ ثم رفعه فى مواجهة الشمس وراح يحدق فيه مستمتعاً باحدى عينيه كما يحدق الواله فى محبوبته الحسناء ، وهو يقول فى لهجة من يفهم الدعابة ويقدرها :

— هلا حدثتنى يامولاى بوسيلة من هذه الوسائل الأربعين ؟

ورمق الدوق المزولة فوجدها تشير إلى السابعة إلا عشر دقائق . وفى هذه اللحظة حمل جريمو الفطيرة فوضعها أمام الأمير ، فتناول الأمير سكينة — وسلاحها من الفضة الخالصة كتعليمات السجن حتى لاتوضع بين يديه أسلحة حديدية قد تفيده فى الهرب — وهم أن يرفع الغطاء ، ولكن لاراميه خشى ألا تجدى تلك السكين فى قطع الفطيرة فتفسدها ، فقدم إلى الدوق سكينه الفولاذية ، فقال له الدوق وهو يتناولها :

— شكراً يالاراميه

— ولكنك لم تحدثنى يامولاى عن الوسيله ؟

— أتريد تلك التى أعتبرها من بين الأربعين وسيلة أولاها بالاعتبار ؟

— طبعاً . . .

فأخذ الأمير يحفر الفطيرة بيده وباليد الأخرى يرسم دائرة فيها بالسكين وهو يقول :

— قبل كل شىء يلزم أن يكون سجانى شابا شهما مثل السيد الهام لاراميه

— جميل ! لديك يامولاى هذا السجان . وبعد ؟

— وبعد ذلك أغبط نفسى عليه !

فأحنى لاراميه رأسه تحية وشكرا ، واستطرد الأمير :

— ثم أعمل على أن يزكى بعض أصدقائى مساعداً له مخلصاً يساعدنى على إعداد العدة للهرب

— خيال بديع

— أليس كذلك ؟ ويحسن أن يكون ذلك المساعد وصيفاً سابقاً لنبيل من أعداء مازاران الخنزير الايطالى

— من فضلك يامولاى دع الكلام فى السياسة

— فتى حصلت على ذلك الشخص أمكننى أن أتصل بأصدقائى عن طريقه فى الخارج ، وأيضاً عن طريق كرات التنس ! فألقى مثلا بالكرات إلى الخندق ، ويكون بعض أعوانى كامناً فيه فيرسل إلى الرسائل فى كرات التنس

— يالها من فكرة ! لقد نبهتني يامولاى وسآخذ حذري من هذه الناحية

— ليس هذا فى ذاته شيئاً ، بل يجب أيضاً أن أبعث فى بعض كرات التنس برسائل كى يكون أصدقائى فى ساعة معينة كامنين ومعهم الخيل فى الجهة الأخرى من الخندق

— ولـكن يلزمك يامولاى جناحان للطيران من فوق السور إلى أسفل الخندق، فالمسافة ستون قدما بالتمام والكمال

— لدى وسيلة أخرى لاتقل عن الأجنحة

— وما هى ؟

— لدى سلم من الحبال

— هاها هاى ! ولـكن سلم الحبال ، ولا تنس يامولاى ، لايمكن ارساله مثل الخطاب حول كرة التنس

— ولـكن يمكن ارساله فى شىء آخر

— شىء آخر . هاها . شىء آخر مثل ماذا ؟

— فى فطيرة مثلا ، فلنفرض أن رئيس طهاتى نوارمون افتتح محلا للحلوى أمام السجن ، واستطاع الاستحواذ على لب لاراميه الجشع الشره بفضل مهارته الفائقة فى صنع الفطائر ، والبقية أنت تعرفها ياسيد لاراميه ، والآن مثلا الساعة السابعة إلا بضع دقائق ، وهى ساعة الصفر لبدء عملية الهرب ، أرفع غطاء الفطيرة فأجد خنجرين . صه لاتتحرك وإلا غرست الخنجر فى كرشك البديع التكوين

وقرن الدوق القول بالعمل فوضع سن الخنجر أمام بطنه وسلم الخنجر الآخر الى جريمو ، الذى أخرج من الفطيرة سلم الحبال دون أن ينبس ببنت شفة أو تتحرك فى وجهه عضلة واحدة . وصرخ لاراميه وهو يكاد يبكى قائلا :

— ارحمنى يامولاى ! أيهون عليك أن تقتلنى ؟

— كلا . مالم تعترض هربى

— وإذا تركتك تهرب خربوا بيتى

— سأدفع اليك مرتب وظيفتك طول حياتك

— أأنت مصمم نهائياً يامولاى ؟ اذن تفضل بتقييد يدى ورجلى من خلاف وتكميم فى جيداً حتى لا أتهم بالتواطؤ معك

وكان له ما أراد ، ثم أخذ الدوق المفاتيح وتقدمه جريمو كما وعده إلى ملعب التنس حيث ربط سلم الحبال ، وهبط عليه جريمو كشرطه أولا ، حتى إذا بلغ ثلاثة أرباع المسافة سقط فى الخندق ، فندت عن الدوق صرخة خوفا عليه ، أما جريمو فلم ينبس ، وأخرجه

من الخندق الرجال المنتظرون بالحبل ، ثم أشاروا إلى الدوق كى يهبط ، فهبط ووجد أن الحبل ينتهى على ارتفاع خمسة عشر قدما من قاع الخندق ، بيد أنهم طمأنوه إلى أن قاع الخندق مغطى بالحشائش الطرية . واستطاع الدوق أن يهبط سالماً بفضل مهارته وقوته البدنية ، وقفز المسافة الباقية قفزة موفقة فلم يصب بسوء ، ثم تسلق جدار الخندق ، حيث وجد فى انتظاره الكونت دى روشفور ومعه سيدان لايعرفهما

وكان جريمو قد أغمى عليه فربطوه فوق جواد ، وقال الدوق :

— أريد أن أشكركم أيها السادة ، ولكن ليس هذا وقته ، أما الآن فلا ينبغى أن نضيع لحظة واحدة

وامتطى صهوة جواد ولكز بطنه بمهمازيه ، وصاح بأعلى صوته :

— من أحبنى فليتبعنى!

وانطلقت الجياد تسابق الريح ، والدوق يملأ صدره من الهواء الطلق ، هواء الحرية التى كاد يقنط منها بعد سجن طال خمس سنوات





« ... وأرجو منك الآن أن تعيد الخاتم الماسي إليه .. »

جاء فى ميعاده

وصل دارتانيان وتابعه بلانشيه إلى باريس ، واتجها إلى فندق العنزة الصغيرة حيث كان دارتانيان يتوقع أن يجد بورتوس فى إنتظاره . وقد وجده هناك بالفعل ، فقابله بورتوس بالشكوى من سوء المقام فى هـذا الفندق المتواضع ، ومن وخامة الجو فى ذلك الحى ، أما موسكيتن تابع بورتوس فكان شديد التذمر من سوء الطهو وقلة كمية الطعام ، فطيب دارتانيان خاطرهما وطلب الى بورتوس أن يركب معه لمقابلة الكردينال مازاران ، وركب دارتانيان جواداً من جيـاد بورتوس الأصيلة فوصلا إلى الباليه رويال فى الساعة السابعة والربع وكانت الشوارع غاصة بالناس لأن اليوم كان عيد العنصرة . فراحت الجماهير تتطلع الى الفارسين باستغراب ، لأن أحدهما كان فاخر الثياب (وذلك هو بورتوس) والآخر كانت عليه كمية هائلة من غبار السفر الطويل

فلما وصلا الى قاعة الانتظار قابله زملاؤه ضباط حرس الفرسان الذين كانوا يتولون الحراسة فى هذه الساعة بكل ترحاب . وكلف دارتانيان الحاجب بإبلاغ نيافة الكردينال مازاران نبأ وصوله ، والتفت إلى صاحبه بورتوس الوجيه الضخم فوجده يعانى اضطراباً ظاهراً لرهبته الفطرية من الحكام وتهيبه لقاءهم مع ما بلغه من ثراء ومكانة ، فابتسم دارتانيان واقترب من أذن صاحبه وقال له هامساً :

— تشجع يا صديقى العزيز ، ولا تدع للحياء عليك سبيلا ، فليس الكردينال الذى ستقابله هو كردينال الزمان الخالى ريشيليو ذا النظرة الثاقبة وعينى الصقر . فليس هذا الذى يشغل مكانه الآن إلا غراب لا ترهب له نظرة ولا يخاف له مخلب . وأنى أحذرك أيهـا الصديق من الوقوف زنهار أو الافراط فى الانحناء عند التحية ، والا استخف هذا الايطالى اللئيم بك ولم يحسن معاملتك

وظهر الحاجب فى هذه اللحظة يدعوهما للدخول ، فوجدا مازاران جالساً إلى مكتبه منهمكا فى شطب أكبر عدد ممكن من الأسماء من قائمة المعاشات والهبات الخيرية . وقد لمح دخول دارتانيان وبورتوس بطرف عينه بيد أنه تصنع عدم الاهتمام، برغم غلبة السرور عليه وقال:

— أهذا أنت يا حضرة الملازم ؟ لقد أسرعت بالعودة ، وخيراً صنعت ، فرحباً بك

— شكراً يا صاحب النيافة وها أنذا رهن اشارتك ، وكذلك السيد دى فالون، من أصدقائى القدماء ، وكان متنكراً فيما مضى تحت اسم بورتوس صيانة لاسم العائلة

— أراه فارساً رائعاً

— انه أحسن ضارب بالسيف فى المملكة يا صاحب النيافة

فراح بورتوس ينحنى للكردينال تارة ولدارتانيان تارة أخرى شكراً على هذا الثناء ، واستطرد ما زاران يقول :

— وأين صديقاك الآخران ؟

— لقد عوقهما عائق ، وسينضمان إلينا فيما بعد

— وهل سمحت ظروف السيد بقبول العمل معنا فوراً ؟

— أجل يا صاحب النيافة ، وتطوعاً منه بدون مقابل ، لأن السيد دى براسييه دى فالون دى بيرفون واسع الثراء

— أترى هو حقاً ؟

فقال بورتوس بصوته العميق العريض :

— خمسون ألف جنيه سنوياً !

فكانت هذه أول كلمة قالها فى المقابلة ، واستطرد ما زاران يقول :

— وانت يا سيد دارتانيان ، ألا تخدمنا تطوعاً أيضاً ؟

— انى رجل مخلص ، ولكنى أفضل أن تكون للاخلاص نتيجة ما

— وصاحبك ماذا يفضل أن تكون نتيجة اخلاصه ؟

— ان ضياعه الثلاث من أوسع ما يمكن ، وأى واحدة فيها جديرة بأن ترقى إلى رتبة البارونية

— أهذا كل ما هناك ؟ هذا أمر يسير . وأنت ماذا تريد ؟

— لقد مضت عشرون سنة منذ عينني الكردينال الراحل ملازماً .. !

— والكردينال الحالى سيرقيك يوزباشياً . هذا أيضاً ممكن . والآن أريد أن أكلمك فى سبب استدعائى اياك على عجل ، فاننى فى الواقع أحتاج إليك بسرعة فى أمر صار يقلقنى كثيراً ...

وسمعت فى هذه اللحظة ضجة عالية ، وفتح باب المكتب ودخل منه رجل مغطى بالتراب وهو يصيح :

— أين الكردينال ؟

— ماذا جرى يا سيدى حتى تدخل هنا كأنك فى السوق ؟

— رويدك يا صاحب النيافة .. أريد مخاطبتك فى خلوة ، فأنا ضابط الحرس فى ليمان فنسين

فتنحى بورتوس ودارتانيان ، وهمس الضابط لمازاران بالخبر :

— لقد هرب الدوق دى بوفور من قلعة فنسين !

فصرخ مازاران واصفر وجهه وتهاوى على المقعد متخاذلا ، وقال :

— وأين كان المحافظ ؟ وأين كان لاراميه ؟

— كان المحافظ مسافراً ، أما لاراميه فقد وجدناه فى غرفة الدوق مقيداً مكمم الفم ، والى جواره خنجر

— والشاب مساعد لاراميه ؟

— انه أس البلاء ، فقد كان من أعوان الدوق

وصرخ مازاران صرخة أخرى دخل على أثرها دارتانيان وبورتوس ، فلما عرفا المسألة قال للكردينال :

— أراك تضيع وقتاً ثميناً ، والأولى أن تأمر بمطاردة الهارب ، فأقرب خط حدود يبعد ستين فرسخاً ، واللحاق به ممكن

— ومن الذى يطارده ويلحق به ؟

— أنا طبعاً

— وتعتقد أنك تستطيع القبض عليه ؟

— ولم لا ؟

— إنه مسلح وحوله عصبة من أعوانه

— لو أمرتمونى نيافتكم بالقبض على الشيطان نفسه لقبضت عليه من قرنيه وجئتكم

وقال بورتوس بحماس :

— وأنا كذلك !

— هذا عظيم ، ولكن الدوق لن يستسلم إلا بعد معركة حامية

— وليس أحب إلينا من المعارك الحامية فقد اشتقنا إليها منذ زمان طويل !

— خذا إذن معكما من تشاءان من رجال الحرس وأسرعا فى أعقابه وفقكما الله

— أهذا أمر صريح يا صاحب النيافة ؟

— أجل . وهذا هو توقيعى

وتناول ورقة خط عليها سطراً ومهره بامضائه ، وأعطاه لدارتانيان ولم ينس أن يقول لبورتوس :

— تذكر يا سيد دى فالون أنك ستنال براءة البارونية بمجرد قبضك على الدوق دى بوفور

ونظر إلى دارتانيان وقال له :

— أما أنت فلا أحدد لك مكافأة معينة يا سيد دارتانيان ، ولكن إذا عدت بالدوق ان حياً أو ميتاً صار من حقك أن تطلب منى ما تشاء بغير تحديد

فجذب دارتانيان يد صاحبه بورتوس الذى كان مشغولا بالانحناء وقال له :

— إلى جوادك يا بورتوس !

وأسرعا يهبطان السلالم ، ومعهما كل من وجدوهما فى غرفة الانتظار من رجال حرس الفرسان ، والكل يصيحون :

— الى الجياد . السباق السباق ، اللحاق اللحاق !



ألهب الفرسان جيادهم مجتازين الغابة بعد السهل ، ودارتانيان وآتوس فى المقدمة ، لقوة جواديهما ، أما بقية فرسان الحرس فتبعوهم متناثرين على حسب قوة ركائبهم

ومن فوق ربوة فى الطريق أبصر دارتانيان جماعة من الأشخاص فى الجهة الأخرى من الخندق الذى يحيط بقلعة فنسين ، فأدرك أن السجين هرب من هذه الناحية ، وأنه لا بد واجد أخباراً تفيده هناك ، فأسرع مع بورتوس الى تلك البقعة ، فاذا الناس متجمعين حول الحبل المدلى من السور ، وسأل دارتانيان جاويشاً من جنود السجن عن الهاربين ، فعلم أنهم أربعة أصحاء معهم خامس مريض (جريمو) ، نفرح دارتانيان وبورتوس عندما علما قلة عددهم . وفرحا أيضاً حين علما أن الهاربين لم يسبقوهما إلا بساعتين وربع . ثم سأل الجاويش عن اتجاه الهاربين ، فاذا بهذا الغبي يزعمه سراً حربيا ولا يبوح به إلا بأمر من محافظ السجن المتغيب فى هذا الوقت بضيعته في الأقاليم !

وهنا لم يطق دارتانيان صبراً وهم أن يبطش بالجاويش ، لولا أن بورتوس كان أسرع منه اليه فلوى عنقه ، فى حين وضع دارتانيان الورقة التى كتبها مازاران أمام عينيه اللتين جحظتا من الرعب ، فدلها على الاتجاه الذى سلكه الهاربون ، فأسرعوا وراءهم ، بيد أن الجميع تخلفوا عن متابعة دارتانيان وبورتوس بنفس السرعة . ولكن هذين لم يتوقفا لانتظار الباقين اعتماداً على أن الهاربين أربعة فقط ، وهكذا قطع الفارسان اثنى عشر فرسخا فى ساعتين بغير توقف ، حتى بدأ الجوادان يرتعدان وينضحان عرقا وزبداً ، فاقترح بورتوس أن يتمهلا قليلا لاراحة الجوادين ، ولكن دارتانيان أبى ، فما هى إلا ساعة أخرى حتى سقط الجوادان إعياء . وتملكتهما الحيرة ، وإذا بهما يسمعان صهيل حصان يأتي من

أمامهما ، وأخذا يتسمعان ، وإذا بموسكيتن تابع بورتوس يقبل عليهما راجلا بعد أن نفق جواده ، وفي هذه اللحظة سمع الصهيل مرة أخرى . وقدر دارتانيان المسافة بخمسمائة خطوة لا أكثر ، فعلق موسكيتن على ذلك بقوله :

— تماما . فعلى هذه المسافة توجد محلة صيد

فصاح دارتانيان :

— احمل غدارتيك يا موسكيتن ، وأنت أيضا يا بورتوس ، وأنا أيضا ، ولنسرع حتى نصل الى محلة الصيد فنغتصب باسم الملك ثلاثة جياد

واتبعوا القول بالفعل . فوصلوا دون أن يسمع لهم صوت الى مكان يلوح منه الضـوء بين الأشجار العالية ، فرأوا سائسا ومعه أربعة جياد رائعة ، فاقترب منه دارتانيان بخفة بعد أن أشار الى صاحبيه أن ينتظراه ، وقال للسائس :

— سأشترى هذه الجياد !

فالتفت اليه السائس مستغربا ولم يجب ، فانتهره دارتانيان ، فقال السائس :

— إن هذه الجياد ليست للبيع

— سآخذها إذن بدون بيع !

ثم وضع يده على أقرب جواد اليه . وكأنما كانت هذه إشارة لرفيقيه فهجما واستوليا على جوادين آخرين ، والسائس يستعطف ثم اعترف أخيراً بقوله :

— الرحمة أيها السادة ، فقد قطعت هذه الجياد ستة فراسخ ولم تسترح إلا منذ نصف ساعة على الأكثر

— لا بأس . فنصف الساعة مدة كافية للراحة

فلم يجد السائس بداً من الاستغاثة ، فأسرع لنجدته ناظر الزراعة وأراد أن يرفع صوته بالاحتجاج والتهويل فقال دارتانيان :

— اسكت وإلا ألهبت رأسك بالرصاص

— ولكن هذه جياد الدوقة دي مونبازون

— عال ! فهذا ضمان لجودة الخيل . واعلم أنى من ضباط حرس الملك ، ولعلك تسمع الآن سنابك خيل رفقائى العشرة

ولم يكن هناك صوت ، ولكن الرعب صور للرجل المسكين أنه يسمع صوتا ، فأسلم أمره لله وسكت

وركض ثلاثتهم ساعة أخرى حتى كادت الجياد الجديدة تهلك ، وفي هذه اللحظة عثروا على جثة حصان في الطريق ، فعرفوا أن الهاربين يعانون نفس المأزق . ثم عثروا بجواد

آخر مسرج يعاني سكرات الموت ، فأدركوا أن الهاربين سمعوا وقع حوافر خيولهم فتركوا الخيل المجهدة وتفرقوا لائذين بالفرار ظنا منهم أنهم كثرة ، ففز ذلك أصحابنا الى الاسراع كي يلحقوا بهم بعد دقائق معدودة



استمرت المطاردة بعد ذلك عشر دقائق ، ارتسمت بعدها فى الأفق نقطتان سوداوان انفصلتا عن المجموع ، ثم تمثلتا فى صورة فارسين فقال دارتانيان :

— آه ! إنهم يقبلون نحونا

فأجابه بورتوس :

— سحقا لمن يأتى !

وصاح صوت أجش :

— من هناك ؟

فلم يجب الفرسان الثلاثة (دارتانيان وبورتوس وموسكيتن) واستمروا فى ركضهم صامتين ، اللهم إلا من صوت السيوف تسل من أغمادها ، وملء الغدارات بالبارود والرصاص . ثم صاح دارتانيان :

— اللجم بين الأسنان !

ففهم بورتوس ما يعنيه ، وأمسك بيسراه مسدسه ، كما أمسك سيفه بيمينه ، ثم ارتفع الصوت الأجش مرة ثانية :

— من هناك ؟ لا تتقدموا خطوة واحدة أو تموتوا !

ثم سد الفارسان المجهولان الطريق وظهرت فى أيديهم الغدارات ، فصاح دارتانيان فيهما :

— الى الوراء أو تموتوا !

فأطلقت رصاصتان جوابا على هذا التهديد ، ولكن سرعة الهجوم الخاطفة جعلت الهاجين تجاه أعدائهم نصا ، ثم أطلق دارتانيان غدارته عن كثب فسقط عدوه ، أما بورتوس فجرح خصمه جرحا شديداً بسيفه وألقاه عن جواده يتدحرج على بعد عشر خطوات ، فصاح بخادمه :

— أجهز عليه يا موسكيتن أجهز !

واستمر دارتانيان وبورتوس فى طريقهما بعد ذلك ، فطرق سمعهما طلق نارى من بندقية ، نفذ به موسكيتن أمر سيده . فلم يلبث أن تبدى لهما فارسان آخران ، فلم ينتظر دارتانيان كلامهما بل بدأ هو الكلام ، صائحا بصوته الهائل المزلزل :

— أفسحوا الطريق ! الطريق !

— ماذا تريد ؟

— الدوق !

فجاءهما الجواب في صورة قهقهة عالية انتهت بأنين مرتفع ، لأن دارتانيان اخترق جسد هذا الضاحك الباكي بسيفه ، وفي الوقت نفسه انطلقت رصاصتان في آن واحد،من بورتوس وخصمه فالتفت دارتانيان فوجد بورتوس لايزال قائما إلى جواره ، فصاح مبتهجاً :

— مرحى مرحى يابورتوس . أراك قتلته ؟

— بل أحسبني فقط جرحته ، ورباه ماذا دهى جوادي أنا ؟

— دهاه ياعزيزي انه يسقط اعياء

فقال موسكيتن :

— أيريد سيدى جواداً آخر ؟ هاهو

— يا للشيطان . كيف حصلت على هذين الجوادين؟

— انهما جوادا القتيلين اللذين تركناهما وراءنا ، أحضرتهما معى

وفي هذه اللحظة كان بورتوس قد أعاد حشو غدارته ، وصاح دارتانيان :

— انتباه ! هاهما اثنان آخران

— لن ننتهى إذن حتى الصباح من القتال

وفي هذه اللحظة نهض الشخص الجريح وأطلق رصاصة على موسكيتن فانقض عليه بورتوس كالأسد الغاضب وهشم جمجمته بمقبض سيفه،وحشا دارتانيان غدارته واستعد للقاء الخصمين الجديدين ثم أمر بالهجوم صائحاً في الأعداء وقد ألهب وصديقه جواديهما بالمهماز :

— باسم الملك أفسحوا الطريق !

فأجابهما صوت مهيب رنان :

— لاشأن للملك هنا

وانطلقت رصاصتان في آن واحد ، احداهما من دارتانيان والأخرى من خصم بورتوس فأطاحت رصاصة دارتانيان بقبعة خصمه ، أما رصاصة خصم بورتوس فأصابت عنق جواده فسقط على الأرض يئن . ورأى دارتانيان فوهة مسدس خصمه تتجه نحوه ، ومسدسه هو فارغاً فقنطر جواده ، أى جعله يشب على قائمتيه الخلفيتين فاستقرت الرصاصة في بطن الجواد وقفز دارتانيان من فوقه بخفة عظيمة ، وصاح الخصم :

— هذه مجزرة خيل وليست معركة رجال ! إلى سيفك ياسيدى !

ثم قفز إلى الأرض ليتساوى مع خصمه . وفي هـــذه اللحظة كان بورتوس قابعاً خلف

جوادهالمحتضر وفى كلتا يديه غدارة . واستمرالقتال بين دارتانيان وخصمه بغير نتيجة حتى تطاير الشرر من السيفين فالتجأ دارتانيان إلى ضربته المعهودة ، وأحكمها كل الاحكام كى يطيح سيف خصمه من يده ، بيد أن الضربة خابت على خلاف المعهود ، فاغتاظ وصاح بلهجته الغسقونية :

— يا للأبالسة !

فتراجع خصمه وراح يحاول رؤية وجهه فى الظلام . وفى هـذه اللحظة صاح بورتوس بالخصم الآخر :

— معى غدارتان فاحذر

— سبب كاف كى تطلق أنت أولا

وانطلقت رصاصة بورتوس الأولى ، فأنارت كالبرق الخاطف ، وإذا أربع صيحات تدوى فى سكون الليل :

— دارتانيان ! أراميس ! بورتوس ! آتوس !

وإذا سيوف ترد إلى اغمادها ، وغدارات توضع فى جيوبها ، وعناق وقبلات بين جثتى الجوادين ، ثم قال دارتانيان فى حسرة :

— أأنت الذى تحميه يا آتوس ؟ ويلى أنا التعس الذى أقسم أن يعود به حياً أو ميتاً !

— هاك صدرى أكشفه لك فاقتلنى يادارتانيان إذا كان هذا ينقذ شرفك أيها العزيز

— ليس فى الدنيا إلامخلوق واحد يستطيع الحيلولة بينى وبين ما اعتزمت ، وشاء القدر أن يضع هذا المخلوق فى طريق ! ماذا أقول للكردينال ياربى ؟

فأجابه من جوف الظلام صوت مهيب قوى :

— قل له ياسيدى إنه أرسل فى أثرى الرجلين الوحيـدين فى العالم اللذين يستطيعان جندلة أربعة فرسان شجعان ، ثم يلتحمان بعد ذلك التحام الند للند بغير تقصيرمع الكونت دى لافير (آتوس) والشيفالييه ديربلاى (أراميس) ولم يستسلما إلا أمام مقاومة خمسين رجلا مسلحاً

فصاح آتوس وأراميس فى صوت واحد :

— الأمير !

وتراجع دارتانيان وبورتوس خطوة أمام الدوق دى بوفور وصاحا :

— خمسين رجلا ؟ خمسين فارساً ؟

— انظرا حولكما إذا كنتما فى شك من قولى

فنظرا حولهما فاذا حصار من عدد كبير من الفرسان ، واستطرد الأمير باسماً :

— لقـد ظننت من ضجة معركتكم أنكما عشرون رجلا ، فانثنيت مع جميع من معى متبرما بالفرار المستمر ، ورغبة منى فى تحريك سيفى فوجدت للأسف أنى أمام رجلين اثنين ، ولكنهما يعدلان عشرين ، والآن سيفا كما أيها السيدين

— سيفانا ؟! مستحيل !

وتحرك بضعة رجال من جنود الأمير ، بيد أن آتوس أوقف الحركة باشـارة من يده وانتحى بالدوق جانباً وهمس فى أذنه بضع كلمات ، فلم يلبث الدوق أن قال :

— لك هذا يا كونت ، فلا أستطيع أن أرد لك أول طلب تطلبه منى وأنت ذو الفضل والمنة ، تقهقروا أيها السادة وافسحوا الطريق للسيدين دى فالون ودارتانيان ، فهما حران طليقان

وهكذا ترك الأصدقاء الأربعة وحدهم ، فراحوا يتأسفون على هذه الخصومة ، وراح كل من الفريقين يحاول كسب الآخر لصفه ، وأخيراً اتفقوا على موعد للقاء فى باريس فى مساء اليوم التالى ، فى الساعة العاشرة فى الميدان الملكى ، للتفاوض فى هـــذا الأمر ، ثم افترقوا ليذهب كل منهم فى طريقه ، على أن يذهب بورتوس ودارتانيان لابلاغ خيبتهما إلى مازاران، وإذا بدارتانيان وبورتوس وقد تركا وحيدين يريان رجلا يمسك فى يده عنانى جوادين ، خسباه موسكيتن ، فاقتربا منه ، وإذا بهما يتبينان أنه جريمو ، وأن الجوادين هدية من سيده آتوس ، ثم تركهما جريمو ولكن فى طريق آخر ، لـكى يلحق براؤول — كما قال لهما — المسافر إلى ميدان القتال . بيد أنه لم يلبث أن عدل عن ذلك الطريق كى يعنى أثناء السفر بجرح موسكيتن الذى أصيب به فى عجيزته الضخمة فأصبح لا يستطيع الركوب

فلما وصلوا إلى باريس بعد ثلاث ساعات ، كان قد سبقهم اليها ساعى بريد خاص يحمل رسالة من الدوق إلى مازاران يشهد فيها ببسالة بورتوس ودارتانيان ، ابراء لذمتيهما

وطبيعى أن الكردينال كان قد قضى ليلته ســاهراً قلقاً مهموماً ، ليتلق عنـد انبلاج الصبح رسالة من عدوه الدود يبلغه فيها بنفسه أنه حر طليق ، وأنه سيناصبه العـداء حتى الموت

يتأهبون للقاء

جلس بورتوس ودارتانيان فى فناء فندق العنزة الصغيرة ، وكان دارتانيان مقطب الوجه عبوساً وقد رجع لتوه من الباليه رويال فابتدره بورتوس :

— أراه قد أساء استقبالك يا صاحبي

— اى والله ! فانه ورنى لبهيم أعجم ، وقد رويت له ما حدث بالصدق فلما عرف أن ثلاثة من خيولك قتلت سألنى عن ثمنها ، فقلت ألف ريال ، فدفعها تحويلا على بنك ليون ، ولم يزد على ذلك درهماً واحــداً نظير ما تجشمناه من الأهوال . مع أننى أديت له خدمة كبرى ، ولو دون أن أدرى

— أى خدمة ؟

— ألا تذكر أننا حين خروجنا للمطاردة من باب سان جان ، دهمت بجوادى فى المغيرة القريبة من هناك رجلا ضئيلا ؟ هذا الرجل هو المستشار بروسل من أعضاء البرلمان وألد أعداء مازاران

وفى هــذه اللحظة دقت ساعة الــكنيسة القريبة التاسعة ، فانتفض دارتانيان . لأن موعدهما مع الصديقين الآخرين فى العاشرة ، وأبدى دارتانيان تخوفه من أن يكون هناك كمين منصوب وراء ذلك اللقاء . ولم يكن ذلك التخوف حقيقياً بل مجرد تعلل لعدم الذهاب ، بيد أن بورتوس الطيب القلب رأى فى ذلك التخوف دافعاً أشد على الذهاب . حتى لا يتهما بالجبن ، ورأى وجوب الاحتياط والتسلح ، وأن يصحبهما بلانشيه ببندقيته . ولــكن دارتانيان ذكره بأن بلانشيه من أنصار المعارضة ، فهو الذى أطلق سراح الــكونت دى روشفور . وانتهى بهما الأمر الى اقناع بلانشيه بأنه ذاهب معهما لحراستهما لا لخدمة مآرب مازاران

وفى هذا الوقت عينه كان آتوس وأراميس يدخلان باريس يتبعهما بازان . أما جريمو فنحن نعلم أنه بقى مع موسكيتن للعناية به على أن يتوجه مباشرة للحاق براؤول فى الميدان . وقال آتوس لصاحبه :

— يحسن أن ندخل خاناً لتبديل ثيابنا وكى نترك فيه سيوفنا وغداراتنا وبندقية خادمنا

قبل أن نذهب إلى الموعد

فقال الراهب أراميس :

— أرى بالعكس أنه يجب أن نذهب مسلحين ، فمن يدريك أن الكردينال لا ينتهز هذه الفرصة ويقبض علينا بكمين منصوب ؟

— ولكن كيف نذهب مسلحين وسيأتيان هما أعزلين ؟

— اطمئن يا صديق فأنا أضمن لك أنهما سيأتيان مسلحين ، ثم لدينا عذرنا فى أننا قادمون من سفر

فأقره آتوس على رأيه ، واستأنفا سيرهما ، إلى أن بلغا أسوار الميدان الخالى فلمحا عند أول شارع القديسة كاترين ثلاثة فرسان هم دارتانيان وبورتوس ملتفين فى معطفيهما ليخفيا السيوف ، ومن خلفهما بلانشيه وعلى كتفيه البندقية ، فترجل الفرسان الأربعة الأصدقاء وتبادلوا تحية ودية مهذبة ، ثم قال آتوس :

— أين تحبون أن نتحدث أيها السادة ؟

فاقترح أراميس أن يدخلوا الحديقة المحيطة بقصر روهان ويتحدثوا فى ظلال الأشجار بنجوة من الأسماع ، فوافق الجميع على هذا الرأي



دخل أربعتهم وكل من الفريقين يتوجس من الآخر ، فلما جلسوا على مقاعد الحديقة الخالية الساكنة المعتمة ، بدأ آتوس الحديث بكلمة مجاملة :

— أيها السادة ، إن هذا الاجتماع دليل جديد على قوة صداقتنا العريقة

فقاطعه دارتانيان قائلا :

— اسمع يا سيدى الكونت ! أفضل لو تركت جانباً هذه المجاملات التى قد لا نستحقها نحن ولا أنتم ! ونحسن صنعاً لو تكلمنا بدلا من ذلك كلاماً صريحاً تتكاشف به القلوب فى وضوح وإخلاص

— ليس أحب إلى من هذا ، فأنا رجل صريح أحب الصرحاء . فتكلم أنت وقل لنا هل لديك ما تأخذه على أو على الأب أراميس ؟

— أجل ، فقد كان لى شرف التحدث اليك فى قصر براجيلون . وقد حملت اليك عرضاً معيناً فهمته كل الفهم ، فبدلا من أن تجيبنى إجابة صريحة كما يجمل بالأصدقاء ، حاورتنى وداورتنى كأنى طفل . فاذا كانت صداقتنا قد تعرضت للقطيعة ، فما كان ذلك بالتقاء سيفينا ليلة أمس ، بل فى ضيافتك فى قصرك

فصاح آتوس فى عتاب رقيق :

— دارتانيان !

— لقد طلبت مني أن أكون صريحاً ، وهاك هو القول الصريح . لقد سألتني رأيي ، وهذا هو رأيي . وأما عن أخي أراميس ، أو سيادة الأب در يلاى ، فانه قد فعل معي مثلما فعلت ، فنافقني ولم يصدقني كما صدقته

فصاح أراميس فى وقار واستنكار :

— إن أمرك لغريب يا سيدى ! لقد أتيت حقا لزيارتى ولتعرض على عرضا معينا ، ولكن هل صارحتني بهذا العرض ؟ إنك لم تصارحني ، ومع هذا فقد تركتك تدرك بالتلميح أنني من أنصار المعارضة . ثم ماذا يغضبك — ولك رأيك ومعسكرك — أن يكون لنا رأينا ومعسكرنا أيضا ؟

— أنا لا ألومك يا سيدى ، ولكن كلام الكونت عن الصداقة هو الذى جرني الى فحص صلتي بك وسلوكك معى

— فماذا وجدت ؟

— وجدته سلوكا جديراً بتلميذ لليسوعيين !

ونهض دارتانيان ، فنهض بورتوس ، فنهض الآخران ، وبدا الموقف ينذر بالشر ، وتحركت يد أراميس نحو سيفه ، بيد أن آتوس استوقفه ثم بدأ يعالج الموقف بالالباقة مع الاباء ، إلى أن استطاع إقناع دارتانيان وأراميس أن يكسر كل منهما سيفه ، ثم رفع آتوس يده اليمنى الى السماء وقال :

— أقسم بالله العظيم الذى يرانا ويسمعنا فى هذه الليلة الحالكة الظلام ، أن سيفى لن يمس سيوفكم ، وأن عينى لن تفيض عنها نظرة غضب ، وأن قلبي لن يضمر الحقد عليكم ، فقد عشنا معا ، وأحببنا معا ، وحاربنا معا . فماذا يمكن أن يكون مازاران بالقياس الى ريشيليو الذى أرغمنا أنفه ؟ وماذا يستطيع لنا هذا الأمير أو ذاك ، ونحن الذين ثبتنا التاج على رأس ملكة ؟ اكرهونى إن استطعتم أما أنا فسأحبكم وأقدركم ما حييت

وساد الصمت بعد ذلك لحظة ، حتى قطعه أراميس قائلا :

— وأنا أقسم أنني لم أعد أضمر الكراهية لأحدكم ، وأعلن ندمي على اشتباكى فى معركة الأمس ، وأتعهد ألا أحاربكم أو أحارب أحداً منكم فى المستقبل . والآن هيا بنا يا آتوس نتصرف

فصاح دارتانيان :

— كلا كلا لا تذهبا ، فعندى أنا أيضا قسم أريد أن أؤديه . فأقسم أن أضحى الى آخر قطرة من دمى فى سبيل الاحتفاظ بتقديركما ومحبتكما

ثم ارتمى بين ذراعى آتوس الذى احتضنه وهو يقول :

— ولدى .. ولدى ..

أما بورتوس فلم يعطه الله نعمة البلاغة وإن أجزل له نعمة البدانة ، فاكتفى بأن يقول :

— أما أنا فإذا كتب على أن أحاربكما ، فأحسبنى سأترك سيفكما يخترق صدرى ويخرج من ظهرى بلامقاومة ، لأننى لم أحب فى الدنيا سواكما

وارتمى بورتوس الهائل وهو يبكى بدموع غزيرة بين ذراعى أراميس ، وهكذا افترق الأصدقاء الأربعة مختلفين فى الرأى واكن متفقين فى المحبة متعاهدين على عدم الاشتباك معا فى قتال من أجل السياسة



راؤول و « دى جيش »

تركنا راؤول وخادمه أوليفان فى طريقهما الى ميدان القتال فى الفلاندر ، وقد نزلا فى بعض الطريق بخان للراحة بقرية فريرى . وكلف راؤول خادمه أن يسأل عن الشاب الذى قال حارس بوابة سان دينيس فى باريس انه سبقه بساعات ليلتحق بالجيش ، فقد كان راؤول متعطشاً الى رفيق من سنه ، فعلم أنه لايزال يسبقه ، فأسرع فى السفر على أمل اللحاق به ، الى أن بلغ نهراً يعترض الطريق عن بعد ورأى على شاطئه مجموعة صغيرة تستعد لعبوره فى قارب معد لهذا الغرض .. وحاول راؤول إدراك هذه الجماعة ، لأنه توقع ان ضالته فيهم . ولكنهم كانوا أسبق منه الى ركوب القارب ، الذى أقلع بهم فعلا ... ثم حجبتهم عنه أثناء ركضه بجواده ربوة توسطت بين بعض الطريق وشاطىء النهر ، ولما تجاوزها رأى منظراً عجيباً : رأى القارب وقد انقلب وسقط من فيه فى النهر ، وأشرف واحد منهم على الغرق . فلكز راؤول جواده وأسرع الى النهر ، ثم قذف نفسه فيه بجواده ، حتى أدرك الغريق وأخرجه الى شاطىء النجاة .. وساعده على ذلك طبعاً انه تربى على شواطىء نهر اللوار العريض وكثيراً ما عبره سابحاً تارة ، وفوق جواده تارة أخرى ، فهو وجواده يحسنان السباحة والعبور من شاطىء الى شاطىء

ولم يكن إنقاذ الغريق من الأمور الهينة مع هذا كله ، لأن التيار كان شديداً والنهر كان فى موسم فيضانه ، فلم يستطع إخراج الشاب من الماء إلا بعد أن أغمى عليه لكثرة مابذل من المجهود . أما الآخرون فكانوا قد تعلقوا بقصبة القارب فوصلوا الى البر سالمين

وبعد عملية الافاقة فتح الشاب عينيه وأخذ يشكر راؤول على نجدته التى أنقذت عمره ، ثم قص عليه كيف انقطع حبل القارب الذى يربط بين الضفتين وكيف صاح بعض الركاب فزعا فجفل جواده وقفز به الى الماء وانقلب القارب

ثم تعارف الشابان ، فاتضح أن الشاب الذى كان مشرفا على الغرق لولا أن أنقذه راؤول هو الكونت دى جيش نجل المارشال دى جرامون . وهكذا ارتبط هذان الشابان برباط الوفاء ، كما ربطتهما غاية واحدة وهى الانضمام الى الجيش المحارب فى الجبهة تحت امرة الأمير كونديه

وأقام الشابان برهة وجيزة في قرية تونون ، استمتعا فيهــا بالطعام والنوم ، وقد أمل راؤول أن يصل في هذه الفترة جرعو ، بيد أن أمله خاب ، واضطر الى الرحيل مع الكونت دي جيش في الساعة السادسة صباحاً بعد افطار عاجل . واستمر السير الى الساعة الرابعة بعد الظهر حيث نزلت المجموعة مدينة أراس ، وهي أول عتبة من أعتاب ميدان القتال ، وقرر الشابان قضاء الليلة فيها ، لأن السير فيما وراءها غير مأمون العــاقبة ليلا ، لانتشار الــكتائب الاسبانية المعادية التي تقتنص المحاربين الفرنسيين

وسمعا في تلك الليلة أن معركة على وشك النشوب ، وانه من المنتظر أن تكون هذه المعركة حاسمة . فالأمير كونديه لم يماطل في الاشتباك اشتباكا حاسما مع العدو طول هذه المدة عن طريق المناورات ، إلا انتظاراً لوصول المدد . وقد وصل المدد أخيراً

وكان لهذا النبأ وقع سار جداً على الشابين ، لتشوقهما الى الاشتراك في أقرب وقت في موقعة حامية حقيقية . وتناولا عشاءهما معاً ثم ناما في الغرفة نفسها ، وقد خيل اليهما أنهما متعارفان منذ ولادتهما ولم يفترقا قط . أما السهرة فقد انقضت في الــكلام عن الحرب في حين كان الخدم ينظفون الأسلحة ويحشون البنادق والغدارات

وفي الصباح التالي استأنف الشابان سيرهما في الساعة السابعة بعد تناول طعام الافطار مباشرة . ووصل ركبهما الى ابلان بدون حادث ، وهناك علما أن الأمير كونديه قد غادر مركز قيادته في «بيثين» وانتقل الى موقع متوسط بين «كيران» و «فينتي» ، فقررا سلوك طريق فرعي مختصر يوصل الى هذا الموضع ، وسرعان مابدت أمام ناظريهما غابة كثيفة ، فلما صار الركب على بعد مائة خطوة من هذه الغابة قام مربي الــكونت الذي يصحبه في هذه الرحلة بارسال خادمين لاكتشاف الطريق ، وسرعان ما اختفى الخادمان بين الأشجــار الملتفة ، وأوغل وراءهما الشابان ، ومن ورائهما الخادم أوليفان على بعــد مائة خطوة للحراسة وحماية المؤخرة

وعلى حين فجأة سمع طلق ناري يتردد في أنحاء الغابة ، فصاح المربي :

— قف !

وصدع الشابان بالأمر فأوقفا جواديهما ، وفي هذه اللحظة أبصرا الخادمين راجعين نحوهما بأقصى سرعة ، فأسرع الشابان نحو الخادمين لسؤالهما عن حقيقة الأمر

— هل منعكما أحد من المرور ؟

— كلا ، بل الأرجح أنهم لم يرونا ، فقد أطلقت النيران على بعد مائة خطوة منا ، ومن أشد بقاع الغابة ازدحاما بالأشجار ، ولــكننا رأينا أن نعود لتلقي التعليمات . فماذا تأمرون ؟

فقال المرني في حزم :

— ان رأيي ، بل إرادتي وأمري ، أن نرجع ، فربما كانت هذه الغابة مكمنا للاعداء فلا يجب أن نقع فيه

فسأل الكونت خادميه :

— فأنتما إذن لم تريا شيئا ؟

— خيل الينا أننا رأينا فرسانا وعليهم أردية صفراء

وعندئذ صاح المرني متحمساً :

— ألم أقل لكم إنه كمين من الاسبانيين ؟ هيا نرجع

فتشاور الشابان بالنظرات ، وفي هذه اللحظة سمعت طلقة غدارة تلتها صرخات ثاقبة في طلب النجدة ، فتبادل الشابان نظرة صاح بعدها راؤول :

— إلى يا أوليفان . تعال ورائي

كما صاح الكونت دي جيش :

— الى يا أوربان !

وقبل أن يتبين المرني الحقيقة ، كان الأربعة قد اختفوا في بطن الغابة بأقصى سرعة تستطيعها جيادهم — وبعد خمس دقائق وصلوا إلى المكان الذي كان المفروض أن صوت اطلاق النار صدر منه وهناك راحوا يتقدمون ببطء ثم بدأ الهمس :

— صه . أرى فرسانا

— أجل . ثلاثة على الخيل وثلاثة راجلين

— ماذا يصنعون ؟ أتراهم ؟

— أجل . يبدو لي أنهم يفتشون رجلا جريحاً أو ميتاً

— هو اذن اغتيال دنيء

— فلنهجم !

— لنهجم

وأحس بهم الاسبان ، فأسرع الفرسان الثلاثة بجيادهم لملاقاة الشابين ، في حين انصرف الثلاثة الراجلون إلى سلب الرجلين اللذين صرعوهما . فلما صارت المسافة بين الفريقين عشر خطوات أطلق دي جيش النار فلم تصب خصمه ، وأطلق اسباني غدارته فأصابت ذراع راؤول الأيسر ، بيد أن راؤول احتفظ برباطة جأشه وأطلق النار على خصمه من مسافة أربع خطوات فأصابه في صدره فخر صريعاً على صهوة جواده فانطلق به الجواد لايلوى على شيء

وفى هذه اللحظة رأى راؤول من خلال الدخان فوهة غدارة تتجه اليه ، فقام بالحركة التى تعلمها من آتوس ، إذ شب بجواده على قائمتيه الخلفيتين فأصابت الرصاصة بطن الحصان وسقط على الأرض ، قبل أن تسنح الفرصة لراؤول بتخليص قدمه من الركاب فهجم خصمه عليه محاولا تحطيم جمجمته بقبض الغدارة ، وفى أسرع من لمح البصر كان دى جيش قد وضع غدارته على عنق الاسبانى ودعاه للتسليم ، فسقطت الغدارة من يد الاسبانى ورفع يديه إلى أعلى مستسلماً ، فقام أحد الخدم بحراسته والبندقية فى يده ،وهو على أتم استعداد لاطلاق النار على رأسه إذا حاول الهرب

وترجل دى جيش عن جواده واقترب من راؤول ليطمئن عليه ، فقال له راؤول مازحا :

— ما هذا ياسيدى ؟ هل أنت حريص على الوفاء بديونك بهذه السرعة ؟ لقد أنقذتنى كما أنقذتك ، ودقة بدقة

— الواقع أن خصمى ركن إلى الفرار فترك لى الفرصة كى أساعدك على خصميك ، والآن هيا بنا لنستأنف طريقنا

— أجل ، ولكن يجب أولا أن نفحص حالة المسكينين اللذين صرعهما هؤلاء الاسبان غيلة وغدراً . فربما كانا جريحين فقط فيتسنى لنا انقاذهما

— هذا هو الرأى الصواب ، فهيا بنا ننظر فى أمرهما



انحنى الشابان ودى جيش فوق الجريحين فاذا أحدهما ميئوس منه ، وهو قسيس قرية « بيتين » ، وكان مهاجراً منها بأدوات الهيكل عقب صدور أمر الأمير كوندبه بمغادرة القرية على حسب خطته الموضوعة ، أما الآخر فكان رجلا مدنياً اعترف لهما بأنه خبير بالجراحات ، وهو لهذا موقن من خطورة حالته ، ورجاهما أن ينقلاه إلى مكان أمين ثم يحضران له كاهناً ليتلق اعترافه ، فوعداه بذلك وعد الشرف ، ثم نقلاه إلى أقرب خان على بعد فرسخ ، وخرج الشابان يبحثان عن قسيس . فما أن سارا عشر دقائق حتى أبصرا راهباً شاباً عابس الوجه فحاولا الكلام معه ، ولكنه نفر منهما بخشونة ، فاضطر الكونت دى جيش أن يغلظ له ، حتى اضطره إلى التوجه معه إلى حيث يرقد الجريح المحتضر فى حجرة بالخان ، وهما يعجبان للشر والحقد المرتسمان على وجه هذا الراهب الذى لا يجاوز العشرين إلا بسنوات قلائل

واستأذنا من الجريح لعجلتهما وتركاه مع الراهب فى الخلوة ، وترك راؤول لصاحب الخان مبلغاً طيباً لتكاليف الجريح ، وكلفه حين حضور جريمو أن يدله على اتجاهه

ويحسن هنا أن نذكر أن زوجة صاحب الخان عندما وقع بصرها على الجريح ارتعدت فرائصها ، فلما سألها زوجها عن السبب قالت إن هـذا الرجل هو جلاد قرية « بيتين » السابق ، وسمع الراهب هذا الكلام ، فلمعت عيناه ، ودخل على هذه الحال لتلقي اعتراف المحتضر ، بينما وقف بالباب مربي الكونت دي جيش وخادمه وخادم راؤول أوليفان حتى أغلق الباب فركبا ولحقا بسيديهما ، وما هي إلا لحظة حتى وقف بباب الخان فارس مقطب الجبين نزر الكلام هو جريمو ، فنزل ليستريح ويأكل ويتسقط أخبار سيده . وما أن جلس إلى المائدة وهم أن يتناول كأسه الاول ، حتى خرجت من غرفة المحتضر صرخة ثاقبة ، فسأل جريمو رب الخان عن سببها فقال :

— هذا جلاد بيتين السابق جريحاً يدلي باعترافه الأخير لأحد الرهبان ، ويبدو أنه يتألم من جروحه

— أتقول جلاد بيتين السابق ؟ أهو رجل يتراوح عمره بين خمس وخمسين وستين سنة ، طويل القامة قوي البنية ذو لحية سوداء ؟

— هو كذلك ، ولكن لحيته وخطها الشيب ، فهل تعرفه ؟

— رأيته ذات مرة

وحينئذ انطلقت صرخة أشد كثيراً من الصرخة الأولى ، سرعان ما انتهت بأنين . فهجم جريمو على الباب وحاول فتحه بالقوة فوجده مغلقاً بالمزلاج من الداخل ، فجعل رب الخان يدق الباب بقبضته ويصيح :

— افتح يا سيدي الراهب . افتح في الحال

فلما لم يحظ بجواب تناول جريمو فأساً وحطم الباب ، فلم يجدا للراهب أثراً ، ووجدا الجريح غارقاً في بركة من الدماء ، فصاح جريمو في صاحب الخان :

— اذهب واستنجد كي يقبض الناس على الراهب الذي فر من النافذة ، فهذا خنجره مدفوناً إلى مقبضه في صدر الرجل



وهذا هو ما حدث في الغرفة :

بدأ الراهب بسؤال الجريح هل هو حقيقة جلاد بيتين السابق ، فأكد له الرجل أنه ترك المهنة منذ خمس عشرة سنة ، وأنه لم يقتل أحداً إلا بأمر الشرع والقانون . ثم شرد بصره قليلا كمن يتذكر شيئاً بعيد العهد ، وقال :

— ولا يثقل على ضميري إلا حادث واحد كانت ضحيته امرأة شابة ، ولا زلت حتى اليوم وقد انقضى على ذلك عشرون سنة ، أتمثل صورة هذه المرأة فانتفض ندماً

— اذكر قصتها بالتفصيل كى أستطيع منحك الغفران

— كان ذلك ذات مساء منذ عشرين سنة ، حين أتانى رجل وأطلعنى على أمر كتابى فتبعته ، حيث وجدت أربعة من الاشراف اقتادونى وعلى وجهى قناع كى لا أرى الطريق ، فسرنا نحو ست فراسخ صامتين ، ثم دلونى من خلال نافذة فى كوخ على امرأة شابة وقالوا لى : هذه فريستك

— وهل أطعت ؟

— لقد كانت هذه المرأة ياسيدى الأب وحشاً خرافياً ، فقد قتلت بالسم — كما قيل لى — زوجها الثانى ، ثم حاولت قتل شقيق زوجها الذى كان بين هؤلاء السادة ، ثم سممت أخيراً امرأة شابة كانت تنافسها فى الحب ، ثم تسببت بالتحريض فى اغتيال الدوق باكنجهام قبل مغادرتها انجلترا

— لقد كانت هذه السيدة انجليزية إذن ؟

— كلا يا أبى ، بل فرنسية تزوجت انجليزيا

فاكفهر وجه الراهب وأقفل الباب بالمزلاج ، ثم عاد اليه يسأله :

— ومن كان هؤلاء السادة ؟

— كان أحدهم انجليزيا ، والأربعة الآخرون من ضباط فرسان الحرس

— وما اسم هذه المرأة

— لا أدرى ، وان كنت أعلم أنها تزوجت مرتين ، المرة الأولى فى فرنسا ، والمرة الأخرى فى انجلترا ، وهى شابة فى الخامسة والعشرين شقراء بارعة الجمال ، فى عينيها بريق عجيب

— وكان صوتها ناعماً عذبا كأنغام الموسيقى !

— أجل يا أبى ، ولكن كيف عرفت ؟

فال الراهب الشاب فوق وجه المحتضر وحدق فيه تحديقا وحشيا وقال :

— وقد قتلتها أنت ؟ ولم ترحم شبابها وجمالها وضعفها ؟

— ولكنها يا أبى كانت تخفى تحت هذا الستار نفساً خبيثة . لقد كانت داعرة ، أغوت شقيق الراهب وهربت به من الدير حتى إذا شبعت من أحضانه بعد ليال لفظته لفظ النواة

— إذن أنت تعرف اسمها العذرى قبل أن تتزوج ؟ ماهو ؟

فراح المحتضر يتلوى فى أنفاسه الأخيرة ويصرخ طالباً كلمة الغفران

— اسمها أولا غفران

— آن دى بى !

فصرخ الراهب صرخة عجيبة ثم قال :

— أنا أمنحك الغفران ؟ وكيف أمنحك إياه وأنا لست كاهناً ؟

— ما أنت إذن ؟

— سأقول لك من أنا : انا جون فرانسيس دى ونتر !

— لا أعرفك

— تمهل تمهل ! فستعرفني جيداً . فهذه المرأة هي أمي

فأطلق الجلاد صرخته الأولى وجعل يصيح :

— اغفر لى ، اغفر لى ، ان لم يكن باسم الله ، فباسمك ، وان لم يكن غفران أب مقدس، فغفران ابن ناقم

فصاح الراهب المزيف :

— اغفر لك انت ؟ قد يغفر الله لك ، أما أنا فلا!

ثم أخرج من بين طيات ثوبه خنجراً مسنوناً ذا حدين فغرسه فى صدر الرجل المحتضر حتى غاص الى القبض وهو يقول :

— هذا هو غفرانى !

وعندئذ سمع من بالخارج الصرخة الثانية التى أعقبها الأنين ، وحاول الجلاد النهوض من فراشه فسقط على الأرض . أما الراهب المزيف فانه ترك الخنجر فى صدر ضحيته وأسرع الى النافذة فقفز منها ، واجتاز الحديقة الخلفية الى الاسطبل ، فركب بغلته وخرج من باب خلفى الى أقرب غابة ، وهناك خلع ثوب الرهبنة ، وأخرج من الخرج ثوبا مدنيا كاملا ، ثم مشى على قدميه الى أقرب محطة بريد فاشترى جواداً وامتطاه ، ثم أطلق له العنان فى طريق باريس



ظل جريمو الى جانب الجلاد ، وركعت زوجة صاحب الخان تصلى ، أما صاحب الخان فخرج يستغيث ، ثم فتح الجلاد عينيه ، فحدق فى جريمو ثم تذكره ، وعرف فيه أحد الخدام الأربعة الذين كانوا يرافقون الفرسان الأربعة وأخبره بحقيقة الراهب المزيف ، فسأله جريمو متلهفا :

— لقد اعترفت له إذن مخدوعا بزيه ؟ هو إذن يعرف الآن الأسماء ؟

— لم أبح بأى اسم ، ولكنه عرف أن عمه كان بين القضاة ، فأسرع على كل حال لتنذر سيدك كى يحتاط لنفسه

ثم لفظ الرجل نفسه الأخير ، فأسرع جريمو بامتطاء جواده وهو مقسم الفكر بين اللحاق براؤول فى جبهة القتال ، وبين الذهاب الى باريس ليخبر سيده ويحذره ، وأخيرا

استقر رأيه على التوجه أولا إلى راؤول لأنه لا يسبقه إلا بساعة زمن ، وسيكون في استطاعته أن يطمئنه ويطمئن عليه ثم يتجه إلى باريس فورا

وكان راؤول جالساً مع الكونت دى جيش ومربيه فى حانة القرية حين فتح الباب ودخل جريمو مكفهر الوجه مغطى بالتراب ملوثا بدم القتيل ، فنهض راؤول وأسرع نحوه منزعجاً وسأله :

— كيف تركت سيدى الكونت ؟ لماذا أنت شاحب الوجه ؟ ما هذا الدم ؟

— هذا دم الرجل المسكين الذى تركته فى خان القرية يدلى باعترافه الأخير للراهب . وقد مات المسكين بين ذراعى

— بين ذراعيك ؟ أنت تعرفه إذن ؟ من هو ؟

— انه جلاد بيتين السابق

— وهل كنت تعرفه ؟

— أجل

وبدا على وجه جريمو من الاضطراب ما أقلق راؤول والكونت دى جيش فعزما عليه أن يجلس ليستريح ويتناول شيئا ، وبعد ذلك يستأنف الحديث ولكن جريمو رفض الانتظار وأعلن عزمه على الركوب إلى باريس فى هذه اللحظة ، الأمر الذى عجب له الشابان كثيراً ، وسأله راؤول عن سر العجلة :

— لا أستطيع أن أقول لك هذا السر !

— ما هذا ؟ أتمزح يا جريمو ؟

— سيدى الفيكونت يعلم أننى لا أعرف المزاح مطلقا

— وأعرف أيضا أن سيدى الكونت قرر أن تلازمنى أنت وأن يعود أوليفان إلى باريس . وأنا مصر على تنفيذ تعليمات الكونت

— ليس فى هذا الظرف

ثم ركب جواده ولكزه فراح يسابق به الريح ، وترك راؤول واقفاً والشرر يتطاير من عينيه لشدة غضبه ، فأسرع راؤول يجرى وراءه ويناديه فأجابه :

— أتريد أن أبقى هنا ويقتل سيدى الكونت ؟

— ولكن قل لى بربك ما المسألة ، فان القلق يكاد يقتلنى

— لا أستطيع أن أبوح لك بالسر ، لأن هذا السر لايخصنى . هل لاحظت ملامح وجه الراهب ؟

— أجل أذكرها جيدا

— احرص إذن إذا التقيت به فى أى مكان على أن تقتله وتسحق رأسه بغير رحمة ، كأنه افعوان سام ، فحياة خمسة من خيار الرجال فى خطر محقق دائم مادام هذا الرجل على قيد الحياة

ولم يزد على ذلك حرفا ، بل انتهز فرصة دهشة راؤول وانطلق كالسهم ،حتى إذا وصل إلى أول محطة بريد باع الحصان وركب بثمنه عربة البريد إلى باريس



وقطعت على راؤول دهشته صيحات صاحب الخان :

— الاسبان الاسبان !

واتضح ان الاسبان يزحفون فعلا من جهتين الى القرية ، فقرر الجماعة الرحيل عنها ، وصحبوا معهم أسيرهم الاسبانى مقيداً فوق الحصان ، واتجهوا الى حيث كانوا يعلمون أن الأمير كونديه يقيم فى الوقت الحاضر مع الماريشال دى جرامون والد الكونت دى جيش

وكان القائدان جالسين الى المائدة يتداولان فى الخطط ، وفجأة دوى صوت مدفع وفتح الباب ليدخل منه راؤول ودى جيش نجل الماريشال ، وكان القائدان فى حيرة منذ يومين لا يعلمان مواقع الجيش الاسبانى بالضبط ، فحمل الشابان اليهما آخر الأنباء ، ثم قدما أسيرهما الاسبانى كى يتم استجوابه عن حركات الجيش وعدده وأهدافه

وكان سرور الماريشال عظيما جداً بطبيعة الحال ان يبدأ ابنه الحديث السن حياته العسكرية بأسر رجل من جيش العدو ، وقبل أن ينضم الى الجيش فعلا ، ونال راؤول مكانة ممتازة لا بسبب التوصيات التى يحملها من الدوقة دى انجفيل والأمير مارسياك فحسب ، بل بالأكثر للشهادة الرائعة التى شهدها له الكونت دى جيش ، وكيف أنقذه من الغرق وأسر معه ذلك الاسبانى بشجاعة نادرة

وقد عجب الشابان حين وجدا الأمير كونديه ، ابن الأمير هنرى بوربون ، شاباً فى السابعة والعشرين ، ملأ صيته الدنيا بانتصاراته الرائعة قبـل ذلك فى روكروى وفريبور ونوردلنجين فعظم أملهما فى بلوغ المجد سريعاً

واستجوب الأمير الأسير بواسطة مترجم يعرف الاسبانية والهولندية ولم يكن ذلك المترجم إلا الشاب راؤول . ولـكن الأسير لم يكن يعرف هاتين اللغتين . وأخيراً اتضح انه إيطالى، فتولى الأمير استجوابه بنفسه ، فإذا به لا يعرف الايطالية أيضاً . فأدرك الأمير انه يراوغ وأمر بإعدامه ، فذابت مقاومة الرجل وبدأ يتكلم الفرنسية بطلاقة ، وأفضى للامير بكل شىء وهكذا رتب الأمير الخطة ، وأمر بالهجوم على العدو فى الصباح الباكر هجوماً مفاجئاً،

ثم أثنى على راؤول وأبدى له العطف ، وأمر له بخير جواد فى المعسكر ، ونصحه بالراحة كى يبدو فى معركة الغد فى أوج قوته

وبعد أن استراح قليلا ندبه الأمير لصاحبته فى جولة استكشافية لمكان الموقعة التى ستدور غداً بين الجيش الفرنسى الصغير ، والجيش الاسبانى الذى يزيد عليه أضعافا ، فلما أبدى راؤول تلك الملاحظة ابتسم الأمير وقال له :

— اعلم ياعزيزى دى براجيلون ان الجيوش الصغيرة هى التى تكسب المعارك الكبيرة

وسمح له أن يقضى تلك الليلة مع صديقه دى جيش فى خيمة واحدة فقطعا معظم الليل فى السمر لأن الفرح كان يملؤهما لما أصاباه من توفيق ولأنهما فى الغد سيشتركان لأول مرة فى حرب حقيقية ، وهو حلم طالما داعب خيالهما الشاب



ع

عشاء على الذكرى

كان اللقاء الثانى بين الأصدقاء الأربعة خالياً من التوتر الذى ساد الاجتماع الأول ، وقد أحسن آتوس صنعاً حين جعل اللقاء حول مائدة حافلة بما لذ وطاب لأن الطعام والشراب داعيان للألفة وترك التنازع . وقد كان لقوارير الشمبانيا الأربع أثرها الحاسم فى رفع الكلفة والعودة بالفرسان الأربعة عشرين عاما إلى الوراء

وفيما هم فى معمعان السمر سمعت على السلم أصوات أقدام ، قطعت عليهم جو المرح الذى أشاعته دعابات بورتوس ، ثم سمعت طرقات خفيفة على الباب ، فقال آتوس :

— ادخل

فدخل صاحب المطعم الذى كان قد أفرد لهم هذه الحجرة العلوية ، وقال :

— هناك خادم تبدو عليه العجلة يريد محادثة الكونت دى لافير

فقال آتوس :

— هو أنا . وما اسم الخادم ؟

— جريمو . . .

— هل عاد هكذا سريعاً ؟ ماذا حدث ياترى لبراجيلون ؟ ليدخل

وفى هذه اللحظة اندفع جريمو داخلا وصرف صاحب الخان بإشارة من يده فخرج وأقفل الباب ، وساد الصمت جو القاعة ، ذلك ان اضطراب جريمو وصفرة وجهه والعرق الذى يتصبب من جبينه ، والتراب الذى يلطخ ملابسه ، كل هذا يدل على أن الرسول جاء يحمل من الأنباء ماهو بالغ الأهمية ، إذا لم يكن فاجعاً

وأخيراً تكلم جريمو فقال :

— سادتى ، كان لتلك المرأة ولد ، وقد أصبح الولد رجلا . وكان للنمرة شبل ، وقد غدا نمراً هائجاً ، وراح يثب عليكم ، فاحذروه !

فبهت السامعون ، ونهض دارتانيان واقفاً وقال :

— ماذا تريد أن تقول ياجريمو ؟

— ان ابن ميليدى قد غادر انجلترا إلى فرنسا وهو الساعة فى طريقه إلى باريس إذا لم يكن وصل اليها فعلا

— يا للشيطان ! هل أنت متأكد ؟

— كل التأكد

فساد الصمت لحظة ، وارتمى جريمو فوق مقعد ليستجمع أنفاسه اللاهثة ، وصب آتوس قدحا من الشمبانيا وناوله اياه . فلما هدأ روعه قليلا روى التفاصيل الهائلة التى شهدها بعينى رأسه ، فنهض دارتانيان وبورتوس وأراميس وأسرعوا بحركة تلقائية إلى سيوفهم أما آتوس فبقى فى مكانه هادئا ينظر نظرات حالمة ، ثم سأل جريمو :

— أتقول ياجريمو أنه يرتدى ملابس الرهبان ؟ فأى طراز من الرجال هو ؟

— فى مثل قامتى ، وهو كما وصفه صاحب الخان نحيل شاحب الوجه ، له عينان زرقاوان وشعر أشقر

— وهل رأى راؤول ؟

— وكيف لا ، والفيكونت هو الذى ساقه قسرا إلى فراش المحتضر ؟

وحينئذ نهض آتوس فتناول سيفه ، ثم غادر أربعتهم الخان



مازاران والملكة هنرييت

والآن ينبغي أن يعبر القارىء معنا ضفة السين ، إلى باب دير راهبات الكرمل في شارع القديس جاك . ففي ذلك الدير تنزل الملكة هنرييت ملكة انجلترا وكريمة هنرى الرابع ، ومعها ابنتها ، بينما ملك انجلترا شارل الأول يقاوم رعاياه الثائرين بزعامة كرومويل . والساعة الآن الحادية عشرة صباحا ، وقد طرق الباب رسول حاملا رسالة من شارل الأول ينذر فيها بقرب التجائه إلى فرنسا ، ويسأل إذا كان مازاران على استعداد لقبوله قبولا حسناً . ولما كانت الملكة هنرييت سيئة الظن لما رأته من جفاء البلاط الفرنسى فقد عزمت على التوجه إلى الباليه رويال

وفي اللحظة التي غادرت فيها هنرييت الدير إلى هناك ، كان هناك فارس يترجل عن جواده أمام باب الباليه رويال ويعلن للحراس أنه يحمل رسالة هامة شفوية وتحريرية إلى مازاران . وكان هذا الرجل رسولا من كرومويل ومندوبا مفوضاً فوق العادة ، فأدخلوه على مازاران الذى استقبله واقفاً ، فقدم اليه الرسول خطاب تعريف مختصر من القائد البريطانى ، ثم قدم اليه بعد ذلك رسالة كرومويل السرية ، التى يسأل فيها هل الوزير الفرنسى على استعداد لمساعدة الحركة الشعبية فى انجلترا ، ولو بالتزام الحياد ، عن طريق رفض استضافة الملك شارل الأول فى فرنسا ، وعدم معاونته ماديا أو أدبياً . وإذا لم يكن الأمر كذلك فان انجلترا ستضطر للتحالف مع إسبانيا بدلا من فرنسا ، والتنافس بين إسبانيا وفرنسا يومئذ على أشد مايكون

فلما أتم مازاران قراءة هذه الرسالة قال للرسول الشاب :

— ان ردى على هذا الخطاب سيكون من الموافقة بقدر جهل الناس بحقيقة ما اتفقنا عليه من خذلان الملك شارل الأول . فاذهب ياسيدى وانتظر ردى فى بولونى ، على شاطىء البحر ، وعدنى أن تكون غداً صباحا هناك

— أعدك ، ولكن كم يوماً سأبقى فى الانتظار ؟

— إذا لم يصلك الرد فى بحر عشرة أيام كان لك أن ترحل بدونه

وفى هذه اللحظة دخل حاجب مازاران وقال :

— ان الملكة آن تدخل القصر فى صحبة نبيل انجليزى

فالتفت مازاران إلى الرسول وقال :

— لعلك أدركت الآن سر تحديدى ميناء بولونى لاقامتك ، حتى تكون بعيداً عن العيون

ثم قاده إلى دهليز مهجور كى لا تراه الملكة خارجاً من مكتب الوزير . وانثنى مازاران بعد ذلك إلى الملكة فاستقبلها خارج حجرته ، ولما سألته عن نواياه تجاه زوجها إذا حاقت به الهزيمة واضطر إلى مغادرة بلاده ، راح يمثل كوميديا على الطريقة الايطالية ، متظاهراً بالولاء لها ولزوجها ، وأن المرجع فى هذه الأمور هو ملكة فرنسا ، وهكذا انصرفت ملكة انجلترا بدون طائل ، واستعد مازاران للذهاب إلى جناح الملكة لأنه علم أنها تلقت أنباء من جبهة القتال

أما الرسول الانجليزى فانه عند خروجه من الممر السرى أبصر خلال زجاج بعض الأبواب النبيل الانجليزى الذى كان مرافقاً للملكة هنرييت وقد وقف فى الخارج ينتظر انتهاء حديثها مع مازاران ، فعرف فيه اللورد دى ونتر صديق الملك ، وعمه هو . وكانت أولى خواطره أن يهجم عليه ويصفى حسابه معه ، ولكنه تذكر مهمته الرسمية فكظم غيظه وانصرف . ولم يكن هذا الرسول فى الواقع إلا صاحبنا الراهب المزيف . فلما خرج من القصر فوق صهوة جواده وقف عند أول منعطف فى انتظار خروج عربة ملكة انجلترا فلم تلبث أن خرجت العربة الكبيرة الفخمة ، ودى ونتر يسير حذاءها راكباً جواده ، فتبع الشاب العربة

وكانت الملكة تحدث اللورد دى ونتر بيأسها من وجود أصدقاء وقت المحنة ، فقال لها اللورد انه جاء إلى فرنسا فى الواقع ليبحث عن أنصار للملك فى فرنسا ، ولا سيما أربعة أصدقاء مخلصين كان يعرفهم فيما مضى ، يستطيعون باخلاصهم شيئاً كثيراً ، فسألته الملكة :

— وأين هؤلاء الأربعة ؟

— هذا ما أجهله فى الوقت الحاضر ، فلم أرهم منذ عشرين سنة

— اذكر لى أسماءهم فربما سمعت ببعضهم

— أولهم الشيفالييه دارتانيان

— إذا لم تخنى الذاكرة فهو ضابط فى حرس الفرسان ، وأحسبه من رجال مازاران قلباً وقالباً .

— والثانى الكونت دى لافير ، وأما الآخران فلا أعرفهما إلا بأسمائهما المستعارة

وكان هذا الحديث يدور فى بعض قاعات قصر اللوفر الذى توجهت اليه الملكة عند خروجها من الباليه رويال

وفى هذه اللحظة قيل لها ان رسولا خاصاً قد حضر من جبهة القتال موفداً من الماريشال دى جرامون ، فأدخلته كريمتها ، التى كانت تقوم بدور الحاجب لأن البلاط الفرنسى لم يرتب للأسرة المالكة الانجليزية حاشية لائقة ، وكان ذلك الرسول هو راؤول . فسلم راؤول الى الملكة خطابا من الماريشال يبشرها بالنصر فى موقعة لينز ، ويبين لها كيف زاد ذلك النصر من نفوذ مازاران . وأن هذه هى الفرصة المواتية لكسب مؤازرة فرنسا لزوجها . ثم أوصاها براؤول خيراً مؤكداً لها أنه جدير بالثقة

فلما قرأت الملكة الخطاب ، شكرت راؤول فى رقة فقال لها :

— أنت أول من يعرف نبأ النصر فى باريس ، فقد جئتك به مباشرة من دون أن أعرج على ولي وأقبله

— وهل وليك يدعى براجلون مثلك ؟

— كلا ، بل هو الكونت دى لافير

فصاحت الملكة والدوق دى ونتر فى صوت واحد :

— الكونت دى لافير . أحد الأربعة الذين نبحث عنهم !

وهكذا عرف دى ونتر من راؤول عنوان آتوس ، وعرف منه أنه على صلة بدارتانيان وبورتوس وأراميس ، فانطلق اللورد فى الحال ليقابل آتوس ويحاول كسب الفرسان الأربعة لنصرة ملكة النكود



خرج دى ونتر من لدن الملكة [illegible] نتريت فركب وركب وراءه تابعه متجهاً الى مقره ، فلاحظ فى بعض الطريق أن فارساً يتتبع خطواته ، وأنبأه تونى تابعه الخاص ان هذا الفارس كان يتبعهما من الباليه رويال ، الى اللوفر ، ثم هاهو يتبعهما من جديد . وصعد دى ونتر الى فندقه المطل على الميدان الملكي ، وبدأ يخلع فى حجرته قفازيه وقبعته وفى نيته أن يتسقط من النافذة حركات هذا الجاسوس ، ولكنه رأى فى المرآة الموضوعة أمامه فى الحجرة صورة شاب يقف فى الباب فالتفت ليرى الشاب رسول كرومويل ، والراهب المزيف الذى عرفناه فى الفصول السابقة . وعرف فيه دى ونتر ابن أخيه

— لاتحاول طردى ياسيدى اللورد هذه المرة أيضاً كما طردتنى حين مثلت بين يديك وأنا غلام صغير فى لندن . فقد ذهبت اليك فى تلك المرة أسألك عن سر مولدى وعدم الاعتراف بنسبي ، أما الآن فقد جئت أسألك ياعماه ماذا فعلت بأمى ؟

— اذهب أيها الشقى وسل عنها أبالسة الجحيم ، فربما كان لديهم الجواب !

فتقدم الشاب حتى وقف وجهاً لوجه أمام اللورد وعقد ذراعيه فوق صدره وحدق فى

عينيه ثم قال بصوت أجش يقطر ألماً وغضباً :
— لقد سألت عنها جلاد بيتين ، فأجابنى
وحينئذ تهاوى اللورد على مقعد كمن مسته صاعقة ثم قال :
— أتريد أن تعرف ذلك السر الرهيب ؟ ليكن لك ماتريد ! اعلم إذن أن هذه المرأة التى تطلب منى حسابا عنها قتلت أخى بالسم ، ثم حاولت قتلى أنا كى ترثنى . فماذا تقول ؟
— أقول انها كانت أمى . انه كانت لى أم فلم تعد لى أم !
— وقد حرضت على قتل الدوق باكنجهام طعنا بالخناجر . فما تقول ؟
— أقول انها أمى
— فلما جاءت الى فرنسا قتلت بالسم فى دير الراهبات ببيتين امرأة شابة ، وقد ثبتت عليها هذه الجريمة . فهى امرأة تجسم فيها الفساد وشهوة القتل والشر والفسق . فكم من رجل أفسدت دينه بين أحضانها غير مبالية بالأخلاق أو حسن السيرة والشرف
فانفجر الشاب باكيا وتصاعد الدم الى وجهه المكفهر وصرخ :
— صه ياسيدى ! أنا لا أعرف هذه الجرائم ولا أريد أن أعرفها فكل ما أعرفه انها كانت أمى !
ثم تقدم نحو اللورد فى هيئة تنذر بالشر وقد كثر الزبد فى شدقيه فوضع اللورد يده على مقبض سيفه وابتسم ابتسامة صفراء وقال :
— أتريد أن تقتلنى أيها الشاب ؟ أنت إذن ابنها حقا !
— كلا . لن أقتلك فى هذه اللحظة على الأقل . لأنه لن يتسنى لى بدونك أن أعرف بقية المجرمين . أما بعد أن أعرفهم فلك أن ترتعد وأن تخاف ، فقد قتلت جلاد بيتين المحتضر طعنا بخنجرى فى غير رحمة ولا شفقة ، وأنا أعلم ان هذا المسكين كان أقلكم جميعا جرما !
وانتفض الشاب ثم خرج من الغرفة وغادر الفندق ، وترك اللورد متداعيا فوق مقعده يحمد الله على أن ابن أخيه لايعرف بقية الشركاء



وبينما كان هذا المنظر يدور عنيفا فى حجرة اللورد دى ونتر ، كان آتوس جالسا بالقرب من نافذة حجرته وقد اعتمد برأسه على كفه مصغيا الى راؤول الذى كان يقص عليه ماجرى له فى رحلته من مغامرات وتفاصيل ، فكان فيما قال :
— وقد نسيت ياسيدى أن أذكر لك لشدة اهتمامى بمعارك الميدان شيئا مهما ، فانى حين مثلت بين يدى ملكة بريطانيا وجدت فى حضرتها أحد النبلاء ، فما أن ذكرت اسمك حتى صدرت عنه صرخة تنم عن الدهشة والسرور ، وذكر انه من أصدقائك ثم أعلن عن رغبته فى زيارتك وطلب منى عنوانك

— وما اسم هذا النبيل ؟

— انى لم أجرؤ ياسيدى على سؤاله عن اسمه ، ولكن لا شك عندى من لهجته فى الكلام من انه انجليزى

— آه

ثم رفع رأسه الى السقف وحلق فيه كمن يحاول أن يتذكر شيئا ، فلما خفض بصره رأى قبالته رجلا ماثلا فى عتبة الباب المفتوح يرمقه بنظرة تفيض رقة وعطفا ، فصاح الكونت بفرح عظيم :

— اللورد دى ونتر !

— آتوس صديقى

ثم وقف كل من الرجلين ينظر الى الآخر مبهوتا ثم تصافحا باليدين كليهما ، ولم يلبث آتوس ان قال لضيفه اللورد :

— مالى أراك مهموما ياسيدى اللورد ؟

فتلفت دى ونتر حوله كمن يبحث عن خلوة ، فأدرك راؤول أن الصديقين يريدان التحدث على انفراد ، فانسحب خارجا ، وقال اللورد :

— لنسرع بالحديث ونحن وحدنا . فهو هنا

— من ؟

— ابن « ميليدى »

فقال آتوس بعد لحظة تردد وقد عقد حاجبيه ، وبلهجة هادئة :

— أعرف ذلك

— أتعرفه ؟ وممن ؟

— لقد قابله جريمو قرب قرية بيتين ، فعاد مسرعاً ليخبرنى

— لقد كان عندى منذ برهة ، وكان بيننا موقف عسير . وانى لنادم الآن اننا لم نقتل الطفل قبل الأم .

— لم تخاف ؟ ألسنا هنا لندافع عنك ؟ ليس فى استطاعتنا إلا أن ننتظر الحوادث . فلننتظر . ولكن ماذا جاء بك الى باريس ؟

— بعض أعمال هامة ستعرفها فيما بعد . ولكن ما هذا الذى سمعته لدى الملكة هنريت من أن دارتانيان من أنصار مازاران ؟

— ان دارتانيان لا زال فى الخدمة العاملة بالجيش ، فهو والحالة هذه خاضع للاوامر بالضرورة ، والأوامر عنده هى أوامر السلطة القائمة . وليس دارتانيان غنياً ، فلا غنى له

عن مرتب وظيفته . أما أنا فلست من أنصار مازاران . كلا وألف كلا

فنهض اللورد وشد على يد آتوس ثم احتضنه وسأله :

— ألا يزال بورتوس وأراميس صديقين لك ؟

— وأضف اليهما أيضاً دارتانيان نفسه . فلا زلنا أصدقاء ، إلا حين تثور مسألة مازاران أو الأمراء المعارضين ، ففي هذه الحالة نكون اثنين فقط

— هل أراميس مع دارتانيان ؟

— كلا . فهو يشرفني بمشاركتي معتقداتي السياسية

— فهل لك ياصديقي آتوس أن تصلني بهذا الصديق الذكي اللبق ؟ وهل لك أن تتفضل باحضاره لمقابلتي في الساعة العاشرة غداً فوق قنطرة اللوفر ، إذا راق ذلك لديك ؟

— آه . آه . هل ستشترك في مبارزة ؟

— أجل يا كونت . في مبارزة حامية أرجو أن تشترك فيها أنت

— وأين سنذهب بعد الملتقى ؟

— لدى جلالة ملكة انجلترا التي كلفتني بتقديمكم اليها . أعني أربعتكم على فرض بقائكم جميعاً معسكراً واحداً ، أما بعد الانقسام فيكفيكما الكفاية

ونادى آتوس راؤول وكلفه بمرافقة اللورد وحراسته الى فندقه،فدهش اللورد والتفت الى آتوس مستنكراً :

— من تحسبني يا كونت ؟

— أحسبك أجنبياً لايعرف باريس وشوارعها،وسيتولى الفيكونت راؤول دي براجلون ارشادك الى الطريق !

فشد دي ونتر على يده ، والتفت آتوس الى جريمو فقال له :

— تقدم أنت الموكب ياجريمو وحذار من صاحبك الراهب



وفي الموعد المحدد أدخل اللورد دي ونتر صديقيه القديمين آتوس وأراميس على ملكة انجلترا . وقام الفارسان بتحيتها تحية ظاهرة المجاملة مما أثلج صدرها ، فقالت :

— ما دمتما ترغبان أيها السيدان في التفضل بمساعدة سيدة تخلى العالم بأسره عنها ، فهذا هو ما يمكنكما عمله في هذا السبيل . فزوجي الملك يقف وحيداً مع نفر قليل من النبلاء ، يخشى أن ينفضوا من حوله يوماً بعد يوم ، وهو بين اسكتلنديين لا يثق بهم ، وإن كان هو نفسه اسكتلندياً ، فمنذأن فارقه اللورد دي ونتر الى هنا والقلق مستول على . ولا تؤاخذني إذا أنا اشتطت عليكما في الطلب ، مع أنه لا سلطان لي عليكما ولا واجب

يربطكما بي . إن ما أريد منكما أن ترحلا الى انجلترا ، فتضمان للملك حراسته والسهر على حياته ، فتلزمان جانبه أثناء المعارك ، وفى داخل بيته ، فلا شك أن الفخاخ تنصب له فى كل مكان ، وتلك الفخاخ أخطر من جميع مخاطر الحرب ، وأعدكما فى نظير ذلك ، لا بمكافأتكما ، فان ذلك قد يؤذى شعوركما ، بل أن أحبكما حب أخت شقيقة وأن تكونا عندي أفضل من كل انسان ما خلا زوجى وأولادى . وأقسم على ذلك أمام الله ، والله على ما أقول شهيد

فسكت الاثنان لحظة ثم قال آتوس بهدوء تام :

— متى ينبغى أن نسافر يا سيدتى ؟

— لقد وافقتما إذن ؟ وافرحتاه

— أجل يا سيدتى ، وان كنا نرى أن جلالتك قد أسرفت فيما يبدو فى اغراقنا بهذه الصداقة القوية التى تربى على ما نستحق . فانما نشعر أننا انما نخدم الله يا سيدتى إذ نخدم رجلا فى شدة وضنك ، وسيدة هى مثل عال لفضيلة المرأة المؤمنة والزوجة والأم . سيدتى نحن لك قلباً وقالباً ، روحاً وجسداً

فدت الملكة إليهما يدها فقبلاها ، ثم همست للورد :

— إذا أعوزتك نقود ، فتذكر أنى أعطيتك جواهرى فاقتطع منها وبعها ، واحرص أن يعامل هذان السيدان فى المأوى والمأكل كما ينبغى لقدرها وهم ضيوفنا ، أى كما ينبغى للملكين

وفى خارج القصر ترك اللورد الفارسين إلى فندقه ، فلما خلا الجو لآتوس وأراميس ، هرش أراميس رأسه وقال :

— والآن ما رأيك يا صاحبي فى هذه المسألة ؟

— صفقة خاسرة . خاسرة جداً

— ولكنك تلقيتها بحرارة ، وأرى أننا سنقتل فى أرض غريبة

— وهل نسيت أننا معرضون هنا للتسكع بين زنزانات الباستيل وفانسين جزاء وفاقا لمساعدتنا للدوق دى بوفور على الفرار ، صدقنى يا عزيزى أراميس أن كلا الأمرين شر ، وبعض الشر أهون من بعض

— وكيف ترى الموت أهون من السجن ؟

— يا صاحبي نحن سنتحاشى السجن لنظفر بالبطولة أحياء أو أمواتاً . ويجب الآن أن نفترق ، أنا لأقوم ببعض زيارات ولأكتب خطاباً ، وأنت لتسوية أمورك ، ثم تمر بى فى الساعة الثامنة . أم تراك تفضل أن تحضر لتتعشى معى فى السابعة ؟

— موافق . ولدى أنا أيضاً مائة زيارة ومائة خطاب

استغرقت الرحلة إلى ميناء بولونى يومين وليلة ، فلما وصلوا قرب المساء فى اليوم التالى إلى ذلك الميناء قال اللورد للفارسين :

— هيا نفترق حتى لايثير اجتماعنا الشكوك . أما أنا فسأذهب إلى فندق متواضع صاحبه من أعوانى ، ولا بد لى من النزول فيه لأنه العنوان الذى تصلنى عليه الرسائل ، أما أنتما فاذهبا إلى أرقى فندق ، واسمه (سيف هنرى السكبير) . على أن نلتقى بعد ساعتين فى المرسى حيث تنتظرنا سفينتنا لتقلنا إلى حيث تعلمون

وفى الموعد المحدد ذهب الفارسان فأبصرا سفينة انجليزية الشكل ، فوقفا يتحدثان عن رحلتهما ، وأخيراً قال أراميس :

— أرجو ألا يدعنا اللورد ونحن ننتظره طويلا يا آتوس

— صه ، فهناك من يتسمع

وكان هناك بالفعل شخص يتسكع منذ مدة ويدور حولهما ، فلما سمع العبارة الأخيرة وقف وراءهما ، ثم تقدم وسألهما :

— أراكما من باريس ، فأرجو أن تخبرانى هل لايزال مازاران وزيراً ؟

— انه لايزال متمتعاً بثقة الملكة مكروها من الأمراء والأحرار

— هو إذن لم يهاجر ولم يدخل السجن ؟

— كلا . ليس حتى الآن على الأقل

فشكرهما الشاب الغريب وانصرف . وفى هذه اللحظة أقبل اللورد ، ولم يبق ناقصاً من الجماعة المسافرة إلا الخدم الذين حضروا بعد لحظات . وأسرع اللورد بالجماعة الى السفينة حتى إذا وصلوا الى السلم نزل الخدم أولا بالأسلحة والمتاع ، وتبعهم الباقون . وإذا بشاب يخوض الماء كأنه يريد اللحاق بالسفينة فوق صهوة جواد تعرف فيه آتوس الشاب الذى سألهما ، أما اللورد فما أبصره حتى أمر المجدفين بالابتعاد بالسفينة بسرعة . وصاح :

— انه هو ! ابن ميليدى . الراهب المزيف

ورأوا الشاب يلوح بقبضته متوعداً ثم يصيح :

— سوف أنتقم ! الى اللقاء فى انجلترا



وفى يوم الأحد التالى أقيمت فى كنيسة نوتردام صلاة شكر على النصر فى موقعة لينز . فاستيقظ الباريسيون فى ذلك اليوم منذ الصباح الباكر وقد أخذت المدينة زينتها التى تتخذها للاعياد . وفى الساعة الثامنة صباحاً اصطفت فرق حرس الملكة بموسيقاها من الباليه رويال الى الكنيسة . وفى الساعة العاشرة انطلقت المدافع من اللوفر معلنة خروج الملك ، فسرت

فى الجماهير الحاشدة همهمة من وراء الجنود المصطفة ، ثم ظهرت الملكة الى جوار الملك فى عربة مذهبة فتعالى الهتاف بحيـــاة الملك . وقرب نهاية القداس أمرت الملكة الى قائد حرسها بالنيابة :

— اذهب يا كومانج ، والله معك

فذهب الضابط فى عربة تحرسها كتيبة من الفرسان الى منزل فى شارع القديس كريستون حيث يسكن المستشار بروسل ، للقبض عليه بأمر الملك ، فاحتج المستشار بأنه معتل منذ دهمه جواد دارتانيان عفواً عند مقبرة سان دينيس ، بيد أن الضابط أصر على التنفيذ ، فصاح ابنه :

— هذا مستحيل ! وانه تعنت يخرجنا عن طورنا

وصاح صوت حاد من آخر الغرفة ، هو صوت الخادم نانيت العجوز وهى تهز المقشة فى يدها متوعدة :

— مستحيل . ولن أدعكم تأخذون سيدى ، محرر الشعب وأباه . اخرجوا

ثم فتحت النافذة على مصراعيها وأخذت تصرخ مستنجدة . فقال الضابط :

— هل تطيع الأمر أو تتمرد على الملك ياسيدى ؟

— أطيع ....

وحاول التخلص من عناق كريمتيه وتهدئة خاطر ابنه ، وفى هذا الوقت كان جمهور كبير قد تجمع أمام الباب على صراخ العجوز نانيت ، وبدأ الجمهور يسخط ويتحفز للهجوم ، ثم هجم فعلا على خيول العربة ، فحاول الفرسان الدفاع عنها ، واستعمل الحوذى سوطه لتفريق الجماهير ، فازدادت الثورة ، وجرف تيار الناس الجنود ، ولم يجد صياح الضابط الذى نزل ومعه بروسل :

— باسم الملك . افسحوا الطريق باسم الملك

لولا أن فارساً سمع هذه العبارة ، فهجم بسيفه على الجماهير وشد أزر الحراس . وكان هذا الفارس الشاب لايعدو السادسة عشرة ، وكان هو راؤول ، عائداً من بلوا حيث ذهب بأمر آتوس كى يشاهد حفلة صلاة الشكر ، فوصل متأخراً ورأى هذا الشغب فى طريقه وسمع اسم الملك فتحمس وتدخل

وهكذا استطاع الضابط أن يلقى ببروسل فى العربة ويمضى به ، وحاول ابن بروسل أن يقاوم ، فكاد راؤول أن يقتله بالرصاص . وفى هـــذه اللحظة كان دارتانيان قد حضر ليساعد كتيبة الحرس بعد أن وصل نبأ الهياج الى القصر ، فمنع راؤول من ذلك وأفهمه أن الشاب معذور لأنه يدافع عن أبيه ، أما الشاب لوفيار ابن بروسل فأسرع بالنجاة وهو لا يكاد يصدق بها

باريس تتمخض بالثورة

في هذه الأثناء كانت أخبار اضطهاد الزعماء تسري في الشعب الساخط سريان النار في الهشيم ، فسرعان ما اجتمع نائب المطران «جوندى» بكهنته ووجههم الى اثارة الناس باسم الكنيسة ، كي يقفوا ضد القصر في عدوانه على حقوق الشعب وتنكيله بمن يدافعون عن تلك الحقوق في إيمان وشجاعة ، فتعهد بعض هؤلاء الكهنة أن يأتوه برجال نافذين في قيادة حركة الثورة : فهذا أحدهم يسمى له بلانشيه ، ولكنه يذكر أن ذلك الشخص قد اختفى منذ مدة ، ويعد بالبحث عنه واحضاره الى نيافة نائب المطران . وهذا قسيس آخر يسمى لنائب المطران الكونت دى روشفور ، ويقول إنه في باريس منذ ثلاثة أيام، فتعجب نائب المطران جوندى لأن الكونت لم يفد للسلام عليه كعادته ، وطلب احضاره فوراً ليضع خطة الثورة ، وهذا قسيس ثالث يعد جوندى بأن يحضر له جندياً من نوع غريب، هو متسول يقف على باب كنيسة صغيرة ، وله على المتسولين وجيوش المتشردين سكان باريس المظلمة سلطان مطلق ، فاهتم جوندى كثيراً ، وتنكر في زى الفرسان وذهب ليختبر المتسول بنفسه

ووجده نائب المطران رجلا في السادسة والستين من عمره تقريباً ، قصيراً بديناً حاد النظرات ، وألقى إليه نائب المطران قطعة فضية ، ثم قال قسيس الكنيسة الذى كان يصحب المطران :

— ان هذا السيد يريد أن يتحدث إليك يا مايار . فهو يريد أن يعرف رأيك في الحوادث الجارية ، على ضوء ما تسمعه من رواد الكنيسة

فهز المتسول رأسه وقال :

— انها حوادث مؤلمة ، والناس جميعاً ساخطون

فقال نائب المطران :

— يبدو لى يا صديقي أنك رجل حاذق ، فهل لديك مانع في أن تشترك في حرب أهلية صغيرة إذا نشبت مثل هذه الحرب ، وأن تضع نفوذك على أبناء طبقتك تحت أمر الزعيم الذى تسند إليه قيادة هذه الحرب ؟

— طبعاً يا سيدى ، بشرط أن تكون هذه الحرب مؤيدة من جانب الكنيسة المقدسة،

وبذلك أصل إلى الغرض الذى أسعى إليه منذ زمن طويل ، وهو رضوان الكنيسة وغفرانها لذنوبى الثقيلة

— اطمئن يا مايار ، فان هذه الحرب سوف لا تسمح بها الكنيسة فحسب ، بل انها ستباركها وتأمر بها وتتزعمها وتوجهها . وأما عن غفران خطاياك فان من بين الموجهين لهذه الحرب كبير أساقفة باريس ، ونفوذه لدى العرش البابوى عظيم الأثر ، فى الوسع أن يستصدر لك غفراناً بابوياً كاملا . ولكن هل صحيح أن نفوذك على زملائك قوى ؟

— ان نفوذى على زملائى يا سيدى لا حد له ، ويتبعوننى بغير تردد

— هل تستطيع أن تمدنا بخمسين رجلا باسلين أقوياء يستطيعون أن يهزوا جدران الباليه رويال بصياحهم « ليسقط مازاران » كما أسقط أجدادهم من قبل أسوار أريحا ؟

— إننى أستطيع القيام بما هو أخطر من هذا

— أتستطيع مثلا أن تقيم فى ليلة معينة عشرة متاريس ؟

— بل خمسين ، وإذا طلع الصبح كنت كفيلا بالدفاع عنها جميعاً

— إذن خذ هذه الخمسين ريالا ، وتعال بالخمسين رجلا فى الساعة العاشرة مساء ، ومكان الاجتماع برج القديس جاك . وسيكون لدى كاهن البرج من التعليمات ما فيه الكفاية . فاذا وفيت بوعدك فلك مثل هذا المبلغ

— سيكون لك ما أردت ياسيدى



وقبيل الساعة السادسة مساء كان نائب المطران قد فرغ من جميع مهامه الخارجية ، وعاد إلى مقر المطرانية ، فدخل عليه الكاهن الذى وعده بأحضار بلانشيه ، ومعه بلانشيه نفسه الذى حيا بأدب عظيم ، فقال له نائب المطران :

— هل أنت مستعد لخدمة قضية الشعب ؟

— أعتقد ذلك . فانى من المعارضين قلباً وروحا ، حتى لقد حكم على بالاعدام لأنى استخلصت من بين أيدى الحراس زعيما كريما

— وهل تسميه ؟

— ان نيافتكم تعرفونه جيدا فهو الكونت دى روشفور . ولولا حماية سيدى القديم الملازم دارتانيان لشنقونى

— ولكن هذا الضابط من رجال مازاران

— هيه !

— ماذا تعنى ؟

— أعنى أنه رجل مازاران لأنه موظف ، لا لأن مازاران يعجبه
— يبدو أنك شاب ذكى . فهل يمكن الاعتماد عليك ؟
— أجل ، إذا كان المطلوب هو إشاعة الشغب والقلاقل فى المدينة
— الأمر كذلك فعلا . فكم رجلا تعتقد أنه يمكنك جمعهم أثناء الليل ؟
— خمسمائة حربة ومائتى بندقية
— وهل أنت مستعد لاطاعة أوامر الكونت دى روشفور ؟
— سأتبعه ولو إلى الجحيم . وليس فى هذا مبالغة ، لأنه كفء لاقتحام جهنم
— مرحى مرحى
— وما آيتنا التى نعرف بها الأصدقاء من الخصوم ؟
— سيضع انصارنا عقدة من القش فى قبعاتهم ، أأنت بحاجة إلى نقود ؟
— ان النقود صديق لايضر ، ولكنه ليس ضروريا
فأعطى جوندى نائب المطران خمسمائة ريال ووعده بمثلها بعد نجاح الحركة فانصرف بلانشيه ، وبعد عشر دقائق اقتحم الغرفة شيخ فى قوة الشبان هو الكونت دى روشفور ، فأبدى فرحه بما عقدت عليه النية ، وأعلن أن تحت إمرته خمسين جنديا، كما وعد بالكتابة إلى الدوق دى بوفور فى فاندوم حتى يكون على رأس الحركة

وقبيل الساعة العاشرة توجه جوندى إلى برج سان جاك ، فأدخله الكاهن إلى الحجرة التى بها المتسول مايار ، فسأله هل بر بوعده فأجابه :
— ليس تماما
— وكيف ذلك ؟
— ألم تطلب خمسمائة رجل ؟
— أجل . ثم ماذا ؟
— فأتيتك بألفين
— ألست مبالغا بعض الشىء ؟
— أتريد الدليل ؟
— أجل ...
فأشعل المتسول ثلاث شموع ، وضع كلا منها فى نافذة من نوافذ البرج من جهاته الثلاث ثم أطفأها ، فسأله نائب المطران عن مغزى ذلك :
— هذه علامة بداية العمليات . فعند خروجك من هنا حاذر أن تكسر ساقك فى المتاريس التى تنصب الآن فى شوارع باريس ، أو فى الحفر التى يحفرها رجالى لتكون فخاخا وخنادق

— مرحى مرحى . هذه بقية الأتعاب المتفق عليها . وبما أنك زعيم ، فلا يصح أن تذهب إلى الحانة وتشرب الخمر حتى تسكر

— ان لى عشرين سنة لم أذق فيها طعم الخمر

ثم ألقى بكيس النقود بعيداً ، فظنه نائب المطران شخصاً غريب الأطوار شبه مجنون ، وتأهب لمغادرة القاعة ، فاذا المتسول يحول بينه وبين ذلك ويسد عليه الطريق ، فتبادر إلى ذهنه أنه يريد به سوءا ، بيد أنه رآه يركع على ركبتيه ويضم راحتيه ويقول :

— بركتك ياصاحب النيافة

— صاحب النيافة ؟ أنت مخطيء . إنك تظنني شخصاً آخر

— كلا . ان زى الفرسان الذى ترتديه لايخدعنى . وقد عرفتك من أول نظرة ، ولكنى تجاهلت

— وهل تريد بركتى ؟

— أجل فانى بحاجة اليها

فباركه نائب المطران ، ثم أقامه من ركوعه وقال له :

— لقد باركتك فأصبحت مقدساً فى نظرى ، كما أنى مقدس فى نظرك ، والآن قل لى : أى جريمة اقترفت يتعقبك من أجلها القانون البشرى ؟

فهز المتسول رأسه وقال :

— ان الجريمة التى اقترفتهـا ياصاحب النيافة لاتدخل تحت طائلة القانون البشرى ، ولا يمكن لنيافتكم أن ترفعوها عنى بأن تباركونى مراراً وتكراراً كما فعلتم فى هذه اللحظة

— صارحنى : هل التسول مهنتك منذ نشأتك ؟

— كلا ياصاحب النيافة . فانى لم أحترفه إلا منذ ست سنوات

— وأين كنت قبل ذلك ؟

— فى الباستيل

— وأين كنت قبل الباستيل ؟

— سأقول لك ذلك ياصاحب النيافة فى اليوم الذى تتنـازل فيه بقبول الاصغاء إلى اعترافاتى

— هذا جميل . فتذكر من الآن أننى على استعداد لسماع اعترافك فى أى ساعة من ساعات النهار أو الليل

— شكراً لك ياصاحب النيافة . ولكنى لست مستعداً حتى الآن لتلك الخطوة الخطيرة

وتناول نائب المطران شمعته وانصرف

كانت الساعة تقارب الحادية عشرة ليلا حين خرج جوندى نائب مطران باريس من برج القديس جاك ، فما مشى مائة خطوة حتى لاحظ تغيراً كبيراً ، فالشوارع المظلمة مليئة بالأشباح تغدو وتروح في صمت ، بعضها يحفر أرض الشارع ، وبعضها يضع الأحجار والأشجار في منافذها . وجل هؤلاء الرجال من المتسولين وأصحاب العاهات

وكان ثمة رجل تثقل كاهله أحمال السيوف والبنادق وسائر أنواع الأسلحة . وهو يطوف بها من باب الى باب ، ليفرقها على الأهالي .. وقد استطاع نائب المطران أن يتبين في ضوء مصباحه وجه هذا الرجل ، فاذا به بلانشيه

وعند القنطرة الجديدة اعترض طريق نائب المطران حارس مسلح يقود شرذمة من الرجال المسلحين ، وسأله عن هويته . وكان هذا الحارس هو « لوفيير » نجل المستشار بروسل . فلما رفع نائب المطران قبعته العريضة عرفه في الحال وانحنى له

وهكذا وصل جوندى الى المطرانية مطمئناً الى ماسيحدث في الغـد . وقد استمرت الاستعدادات طول الليل ، فلمـا أصبح الصباح بدت باريس متحفزة للانقضاض على حكامها الطغاة .. وقد ازدحمت الشوارع بذوى القبعات التي تزينها عقدة من القش ، شعار ثورة الشعب . فكل صاحب قبعة مزينة بالريش كانت الجمـاهير تجرده من سيفه المذهب وتجبره على الهتاف :

— يعيش بروسل . يسقط مازاران

وقد أقيمت المتاريس في كل مكان ، حتى أمام الباليه رويال . وكان عدد رجال الثورة المسلحين يربي على عشرة آلاف ، يتحرشون بداوريات الحرس الملكي المصطفين حول القصر كأنهم تماثيل جامدة . والمظاهرات تطوف بالشوارع في جماعات قوامها مائتين أو نحو ذلك ، حاملة لافتات مكتوب عليها :

— انظروا الى شقاء الشعب !

وطبيعي أن دهشة الملكة آن النمسوية ووزيرها مازاران كانت كبيرة حين استيقظا من نوم العافية . أما مازاران فهز كتفيه واصفر وجهه وأسرع الى حجرة مكتبه كي يطمئن على إغلاق الخزائن على أمواله ومجوهراته . وأما الملكة فقـد استدعت الماريشال « ميريه » وأمرته بالقضاء على هذه المهزلة بأى ثمن

وأخذ الماريشال مائة جندى وحاول الخروج من طريق قنطرة اللوفر ، ولـكنه وجد دى روشفور أمامه على رأس ألف وخمسمائة رجل ! فاضطر الى التراجع ، فوجد على القنطرة الجديدة الشاب لوفيير ابن بروسل ، فتراجع الى السوق ، وهناك تصدى له بلانشيه ورجاله الأشداء فقتلوا أربعة جنود . وجرب المرور من شـارع القديس اونوريه ، فوجد هناك

المتسول مايار وزملاءه ! ولكنه استهان بهم وأمر رجاله بالهجوم ، فلم يشعروا إلا والعاصفة تأخذهم من كل جانب بالقذائف ، من فوق الأسطح ، ومن وراء المتاريس ، ومن يمين وعن يسار ، وإذا برجال لوفيير يأتون على صوت المعركة فيهاجمونه من الخلف ، حتى أصبحت قوة الماريشال بين نارين ، وراح رجاله يسقطون حوله صرعى ، وفجأة انفرجت الصفوف عن صياح وهتاف :

— يحيا نائب المطران

وتقدم جونديه فى طيلسانه الكهنوتى يسير الهوينا بين الرصاص المتناثر ، ويوزع البركات الرسولية عن يمين وعن يسار فى هدوء تام كأنه يتمشى فى صحن الكنيسة ، والناس يجثون أمامه عندما يمر بهم . وعرفه الماريشال فأسرع نحوه قائلا :

— أخرجنى من هنا بحق السماء والا هلكت ورجالى

فرفع جونديه يده طالبا الصمت من الجموع المائجة ، فساد السكون ، وقال :

— يا أولادى . هذا هو الماريشال ميريه الذى ظننتم به الظنون بالباطل ، يتعهد بأنه بمجرد عودته الى اللوفر سيطلب الى الملكة باسمكم اطلاق سراح بروسل . أليس كذلك ياماريشال ؟

— أتعهد بذلك . وهان ذلك ثمنا للخلاص

وراح فريق يهتف بحياة نائب المطران ، وفريق آخر يهتف بحياة الماريشال ، ثم اشترك الجميع فى الهتاف بسقوط مازاران !

وأفسحت الجماهير الطريق وأزالت جانبا من المتاريس حتى تسنى الماريشال أن يعود الى القصر الملكى مع البقية الباقية من جنوده وقد تمزقت ثيابهم وتلطخت بدمائهم



كانت الملكة واقفة مع وزيرها وكبار رجال الحاشية ، والأنباء تتوالى اليها عن استفحال الثورة واستعصاء أمرها . والهتافات والطلقات النارية تهتز لها جدران القصر . وتكلم أحد رجال الحاشية مقترحا على الملكة أن تحسم الأمر بالافراج عن بروسل ، فإذا بها وقد ورم أنفها ونظرت إليه شذراً ، ثم قالت :

— أطلق سراح بروسل ؟ مستحيل . هذا لن يكون

وفى هذه اللحظة سمعت فى الدهليز خطوات عسكرية ، ثم يدخل الماريشال دميريه دون استئذان ، فتهللت الملكة لرؤياه وهتفت به :

— أهذا أنت ياماريشال ؟ أرجو أن تكون قد رددت الى هؤلاء الرعاع عقولهم

— مولاتى ! لقد تركت لهم على أرض القنطرة الجديدة ثلاثة من رجالى وقد فارقتهم

الحياة ، أما فى السوق ففقدت أربعة ، وأما على ناصية شارع الشجرة اليابسة ففقدت ستة ، وعلى باب قصرك العامر فقدت اثنين . والمجموع خمسة عشر ، يضاف الى هذا ان أكثر من عشرة قد أصيبوا بجراح . وإذا كنت لاترين قبعتى على رأسى فلأن رصاصة قد طاحت بها ، ولولا نائب المطران لكنا قد هلكنا جميعا

— وما طلبات شعبي العزيز ؟

— أن تردى اليه بروسل

— هذا لن يكون

وهنا تنحنح مازاران وفرك يديه وقال :

— أستميح مولاتي أن أتقدم اليها برأى ...

— إذا كان هذا الرأى هو الافراج عن بروسل فاحتفظ به لنفسك

— ليس هذا ، بل أرى استدعاء نائب المطران لمفاوضته

— ولكن هذا اللئيم هو الذى حرك هذه الثورة

— وهذا سبب أقوى لاستدعائه ، فالذى حرك الثورة يستطيع تسكينها !

— هذا صحيح . اذهب ياسيدى الماريشال فادع نائب المطران لمقابلتى

وبعد دقائق دخل نائب المطران فى صحبة الماريشال ، فانحنى للملكة بأدب جم ، وسألته الملكة عن رأيه فى هذا الشغب ، فأجاب بهدوء :

— ان هذا لم يعد شغباً ، لأنه أضحى ثورة جامحة

— ان الثورة لاتوجد إلا فى عقول من يتوهمون أن شعبي يثور ! وسترى كيف تضع هيبة الملك كل شىء فى نصابه

— هل لمثل هذا الكلام دعوتنى ياسيدتى ؟

— كلا ، بل لأسألك رأيك فى المخرج من هذا المأزق

— لو أننى كنت فى مكان جلالتك ، لما ترددت فى إطلاق سراح بروسل

— وإذا لم أطلق سراحه فماذا تعتقد أن تكون النتيجة ؟

— أعتقد أن باريس لن يبق فيها حجر على حجر صباح غد

فصعد الدم الى وجه الملكة ، وكادت عيناها الزرقاوان الجميلتان أن تخرجا من محجريهما ، واستحال قرمز شفتيها الى زرقة ، وسخرت بالرجل ورأيه فأجابها :

— إذا لم يعجبك رأيى ياصاحبة الجلالة ، فذلك لأن عندك ماهو خير . لأن جلالتك أحكم من أن تتحدى وتواجه نتائج ثورة مسلحة

فأشارت الملكة بيدها فانصرف الجميع ماعدا مازاران ، وهم جونديه بالانصراف فاستبقته ،

واستعادته نصيحته ، فلما أعادها همت أن تضربه،فنبهها الى أن المساس بشخصه معناه ضياع عرشها فى ساعات معدودات وحرمانها وقطعها من كنيسة الرب المقدسة

وفى هذه اللحظة قام هياج شديد فى الميدان أمام القصر ، فابتسم جونديه وفر الدم من وجه مازاران ، ثم دخل قائد الحرس معلناً انالجماهير قد تغلبت على كردونات جنودالحرس حول الأسوار ، وأنهم الآن يقتحمون الأبواب

والحق أن هدير الأمواج وثوران البراكين وانقضاض الصواعق لم يكن شيئاً مذكوراً الى جانب تلك الصيحات الغاضبة التى انشقت عنها آلاف الصدور والحناجر

وفكرت الملكة لحظة ثم قالت لقائد الحرس :

— كم رجلا تحت إمرتك داخل القصر ؟

— ستمائة رجل

— ضع حول شخص الملك مائة منهم ، وخذ الباقين فاكنس بهم هؤلاء الهمل من حول القصر

فصاح مازاران :

— ماذا أنت فاعلة يامولاتى ؟

فصرخت الملكة فى وجه قائد الحرس :

— اذهب واصدع بما أمرت

فمضى الرجل الذى لايعرف إلا طاعة الجندى مهما كانت النتائج . وفى هذه اللحظةسمعت فرقعة عظيمة ناجمة عن كسر أحدالأبواب الكبيرة ، فصاح مازاران :

— انك ستضيعيننا جيماً ، الملك وأنت وأنا

وسمعت بعد ذلك صيحات الفرح من الجماهير . وكان دارتانيان واقفاً مع بورتوس فى مكانهما الجديد فى قاعة الانتظـــار فاستلا سيفيهما ، وهتف مازاران فى وجه جونديه نائب المطران :

— أنقذ الملكة !

فوثب جونديه الى النافذة ففتحها وعرف على رأس الأربعة آلاف رجل الذين اقتحموا فناء القصر لوفيير بن بروسل ، فصاح به بأعلى صوته :

— لاتتقدموا خطوة واحدة ! الملكة توقع القرار

فصاحت الملكة مستنكرة :

— ماذا تقول ؟

فقال مازاران وهو يناولها ورقة وقلماً :

— هى الحقيقة يامولاتى

فوقعت قرار الافراج عن بروسل ، وتناوله جونديه فلوح به من النافذة ، فهتف له الناس كما هتفوا بحياة بروسل ، فهتف هو بحياة الملكة ، فقالت له :

— لقد نلت مطلوبك ياصاحب النيافة فانصرف !

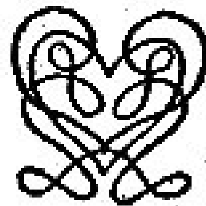
فانحنى أمامها نائب المطران وقال :

— انى دائماً رهن إشارة مولاتى !

ثم تراجع خارجاً وتركها وحيدة مع مازاران ، الذى اقترب منها محاولا التسرية عنها، فصرخت فيه مشيرة الى الباب :

— دعنى ، فانك لست رجلا

فتركها وانصرف



ملكة تكره الشعب

وفى الصباح التالى دخل بروسل باريس فى عربة كبيرة فخمة ، وإلى جواره ابنه لوفيير ، والشعب الذى لا يزال حاملا السلاح تضيق به الشوارع التى مر بها الموكب هاتفاً :

— يعيش بروسل . يعيش والد الشعب . الموت لمازاران

وكان جواسيس الملكة ومازاران يحملون اليهما هذه الأنباء المزعجة . أما الشعب فكان متهللا ولاسيما زعماؤه . اللهم إلا الكونت روشفور ، لأنه كان قد كتب الى الدوق بوفور ليعود الى باريس فيتولى الزعامة ، ولكن الثورة نجحت بسرعة خاطفة ، بحيث يعود الدوق ليجد باريس هادئة وادعة

وتوجه روشفور لمقابلة نائب المطران فأفضى اليه بنبأ خطير آخر . وهو أن الملكة قد كتبت إلى الأمير كونديه ليعود من الميدان على عجل . ثم شاع فى المساء نفسه أن الأمير كونديه وصل الى باريس فعلا . حتى إذا كان الصباح التالى بدت باريس مدججة بالسلاح ، والمظاهرات المسلحة لا تنقطع من التجار والمتسولين وجميع الطبقات المتوسطة والدنيا . وقد قضت الملكة الليل بطوله فى التشاور مع الأمير كونديه ، فلم يفارق الغرفة إلا فى الخامسة صباحاً ، وتوجهت الملكة بعد ذلك إلى مكتب الكردينال فوجدته لا يزال جالساً فيه ، مشغولا بإعداد الرد على كرومويل ، وقد مضت ستة أيام من الأيام العشرة التى حددها للرد . ورأى مازاران علائم الانشراح على وجهها فقال :

— أرى جلالتك مبتهجة

— لا عجب . فقد وجدت الوسيلة للقضاء على هذا الغول الذى يسمونه الشعب ، فهم يريدون أخذ الملك منى ، أى من تحت وصايتى ، لهذا قررت مفاجأتهم بالاختفاء أنا وابنى من باريس ، بحيث لا يعلم ذلك إلا أنا وأنت والأمير كونديه ، ثم بعد ذلك يحاصر الأمير باريس ويسلط عليها الجوع حتى تخضع مذعنة

— مشروع عظيم ، ولكنه محفوف بالاستحالة . فليس تحت يدنا إلا ستة آلاف جندى ، وهو عدد غير كاف

— وهل لدينا شىء من الشجاعة ؟

— لدينا منها الكثير

— إذن فالأمر سهل . ألا تستطيع أن تفهم أنني أكره باريس ؟ تصور أن باريس تستيقظ يوماً ذات صباح فتجد نفسها بغير ملكة ، وبغير ملك ، محاصرة ، جائعة ، ولا سند لها إلا برلمانها الأحمق ونائب مطرانها الهزيل ذو الساقين المعوجتين !

— كل هذا جميل . ولكن التنفيذ يا مولاتي التنفيذ

— أنا الكفيلة بهذا

— ولكن هل تقدرين يا مولاتي أنها الحرب الأهلية ، التي هي شر ما تمنى به مملكة فتتأصل الأحقاد ولا يندمل لها جرح ؟

— هي الحرب أجل ، ولكني أريد أن أذل كبرياء باريس المتغطرسة بأي ثمن ، وأن أحولها الى رماد ، وأطفىء شعلتها بطوفان من الدم ، وأن أجعلها أمثولة الدهر للجريمة والعقاب . ملعونة أنت يا باريس . تعال معي وانظر من النافذة ، ألا ترى هذه الجموع المسلحة ؟ هل غدوت أنا الملكة سجينة في قصري ؟

— هذا هو الواقع فكيف ستخرجين ؟

— أعرف كيف أخرج ، ففي باريس رجل واحد طال بي نسيانه ، وهو وحده قمين أن يخدم ملكته وينقذها . إنه دارتانيان

وأسرعت الى ورقة وقلم فخطت بضع كلمات في سرعة خاطفة



كان دارتانيان في ذلك الصباح راقداً في حجرة بورتوس المجاورة لحجرته في فندق المعزة الصغيرة ، وأمامهما سيفاهما وغدارتاهما ، على سبيل الاحتياط في أيام القلاقل هذه . وقد أيقظهما في الساعة السابعة حاجب حمل الى دارتانيان رسالة وهو يقول :

— من لدن صاحبة الجلالة

وقرأ دارتانيان الرسالة ، فوجد أنها دعوة للحضور مع الحاجب لمقابلة الملكة فوراً . وخطر لبورتوس أن في الأمر مكيدة وفخاً منصوباً ، ولكن دارتانيان لم يأبه وأمره أن يكون على استعداد لأي مفاجأة ، ثم ارتدى ثيابه بسرعة . وقبل أن يفرغ من ذلك قرع الباب من جديد ودخل حاجب آخر يحمل رسالة بالصيغة نفسها من مازاران ، فتحير بورتوس أيهما ينبغي على صاحبه أن يقابله أولا . ولكن دارتانيان قال له إن الكردينال حدد المقابلة موعداً بعد نصف ساعة ، ولهذا صرف حاجب الوزير وذهب مع حاجب الملكة

فلما دخل عليها — وكان دخوله الى القصر من باب خافٍ في سور الحديقة — وجدها في

المصلى الخاص بها ، فاستقبلته بنظرة ثابتة وقالت وهي تتفرس فيه :

— هذا هو أنت تماماً . لم تتغير . فتفرس في جيداً . ألا تعرفني ؟

— إنني دائما رهن إشارة جلالتك

— ألك أصدقاء ؟

— كان لي ثلاثة ، ترك اثنان منهم باريس لا أدري إلى أين . والصديق الباقي معي صديق قديم من الطراز الذي تشرفه مولاتي بتذكره

— لا بأس . فأنت وصديقك هذا تعدلان جيشا كاملا

— ماذا ينبغي أن نصنع يا مولاتي ؟

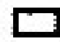
— تعال في الساعة الخامسة ، أقل لك ، ولكن لا تبح بسر هذه المقابلة لمخلوق

— لن أصرح به لمخلوق

— أقسم بالمسيح

— سيدتي ، لم أخل بوعدي في حياتي قط ، وحين أقول لا أفعل ، فهي لا أفعل ، فهل للملكة أوامر أخرى في الوقت الحاضر ؟

— كلا ، ورافقتك السلامة وإلى اللقاء في الموعد المعهود



اجتاز دارتانيان بعد ذلك دهليز القصر حتى وصل إلى مكتب مازاران ، فلما دخل ألقى نظرة سريعة على عادته ، فرأى على مائدة قريبة من مازاران خطابا مختوما ، ولكنه موضوع بحيث لا تظهر كتابة العنوان . وبادره مازاران بالسؤال التالي :

— هل أنت آت من لدي جلالة الملكة

— أنا يا سيدي ؟ من قال هذا الكلام ؟

— لا أحد ولكني أعلم

— يؤسفني أن أقول إن نيافتكم مخطىء في هذا الزعم

— ولكني كنت في الدهليز ورأيتك خارجا من عندها

— هناك ولا شك سوء تفاهم ناتج عن تشابه في الأشخاص

— دعنا من هذا ، هل تحب الأسفار ؟ أم أن شيئا يربطك بباريس ؟

— لا شيء يربطني بباريس إلا الأوامر

— هذا خطاب أريد منك أن توصله إلى صاحبه ، في العنوان المكتوب

— ولكني لا أرى عليه عنوانا

— هناك مظروف داخل المظروف مكتوب عليه العنوان ، ولا تمزق المظروف الخارجي

إلا حين تصل إلى مكان معين . فاذهب الآن وخذ معك صديقك دى فالون (بورتوس) .
أراك مترددا ..

— كلا . سأرحل فورا ، ولكن أرجو من نيافتكم التوجه الآن لمقابلة الملكة

— ولماذا ؟

— لتقول لها إنك أرسلتني إلى مكان كذا الآن

— لك هذا . سأذهب فانتظرني هنا

وحاول دارتانيان أن يستشف خلال الضوء العنوان المكتوب داخل المظروف الأول فلم يفلح وسرعان ما عاد مازاران وقد بدا على وجهه الاستياء فقال :

— أنت محق يا عزيزى دارتانيان فيجب ألا تذهب ، فأعطنى الرسالة . وسأحتاج اليك هذا المساء ، فتعال بعد ساعتين لمقابلتى

— لا أستطيع لأن لدى موعدا فى هذا الوقت لا أستطيع التخلف عنه

— لا تقلق . فالموعدان واحد ، فأحضر معك صديقك دى فالون ولكن اتركه فى غرفة الانتظار لأنى أريد أن أتحدث اليك على انفراد

وانحنى دارتانيان مسلما وانصرف



الفرار

أقيمت فى تلك الليلة حفلة ساهرة تكريماً للقائد المنتصر العائد من الميدان . وكان المفروض أن تتخذ هذه الحفلة ستاراً لتسلل الملكة ، ثم لتسلل الوزير الى خارج باريس ، فلما دخل دارتانيان على مازاران قال له :

— لقد قررت الملكة والملك مغادرة باريس الى سان جرمان ، وعليك أنت عبء توصيلهما سالمين الى هنـاك . فهل تتعهد بذلك ؟ وهل تقدر مدى المسئولية الملقاة على عاتقك ؟

— أقبلها وأقدرها

— يالك من شجاع ـ وأنا ؟

— أنت ماذا ؟

— إذا أردت أن أذهب أنا كذلك ؟

— هذا أصعب ، لأن الجمهور قد يتعرف عليك مهما كنت متنكراً ، وان كان التنكر أوفق . فهل سترحل نيافتكم مع الملكة ؟

— لامعها ولا بعدها . فسفرى معها قد يكون خطراً عليها ، وسفرها قبلى سيكون خطراً علىّ

— أنت تريد السفر قبل الملك والملكة ؟ هذا صعب جـدا . ولـكن فى أى ساعه تريد الرحيل ؟

— فى الساعة العـاشرة . ثم تعود لتأخذ الملكة والملك فى نصف الليل . ولـكن كيف أتنكر ؟

— اترك هذا لى وفوض لى أمرك ، وسأعمل جهدى وان كنت لا أضمن النتيجة وسأعود فى التاسعة والنصف لأجد نيافتكم مستعداً للرحيل . أما الآن فأرجو مقابلة الملكة

فأدخله مازاران على الملكة حيث سمع منها مصداق هذه الأوامر ، ثم انصرف وعاد فى التاسعة والنصف ليجد مازاران قد خلع ثوب الكردينال وتخفى فى ثوب فارس أنيق ، ولـكنه رعديد ينتفض خوفا وجزعا . فقال دارتانيان :

— هيا ، فصديق بورتوس ينتظر فى عربته التى سنسافر فيها أمام باب الحديقة

وأبدى مازاران أنه يستقل الاكتفاء بصحبتهما ، ولكنه استسلم وركب وأسرعت العربة فى طريقها ، ولكن داورية من الشعب أوقفتها على بعد مائة خطوة ، وصاح قائدها : « من هناك ؟ » فأجابه دارتانيان مقهقها :

— أنا مازاران

وراقت النكتة لشعب باريس الضاحك فتركوا العربة التى وجدوها بغير حراسة تمر ، لأنه لم يخطر ببالهم أن يركب مازاران عربة بدون حرس ، وبلع مازاران ريقه وهو لايكاد يصدق بالنجاة وغاص بين رفيقيه ، إلى أن أوقفت العربة داورية ثانية ، فاذا بها بقيادة بلانشيه ، فقال له دارتانيان :

— لقد ساءت حالنا بعد فراقك ياصاحبى ، فهـذا صديق بورتوس جرح فى مبارزة وأنا أوصله الآن إلى قصره فى الريف

وهكذا مرت العربة من الكردون الثانى ، ومشت بضع خطوات أخرى إلى أن أوقفتها داورية من المتسولين بقيادة مايار نفسه ، وأصر على التفتيش ولو كان من يركب العربة هو الأمير كونديه نفسه . وشرعت البنادق فى وجه الحوذى إذا تحرك ، ففتح دارتانيان العربة واستعد للدفاع ، فما أن رآه مايار حتى صاح وقد شحب وجهه :

— السيد دارتانيان . افسحوا الطريق !

فأسرع الحوذى بالمركبة يسابق الريح ، وخرجوا من باريس سالمين ، وهناك ترك دارتانيان العربة فى حراسة بورتوس ، وعاد إلى باريس ليخرج منها الملكة والملك



دخل دارتانيان باريس راجلا ، فلما كانت الجماهير تراه بزيه العسكرى الدال على أنه من حرس الملك ، كانوا يصيحون فى وجهـه هاتفين بسقوط مازاران ، فكان يشاركهم فى الهتاف بصوت أعلى من أصواتهم فينصرفون عنه ويصفقون له ، ولما صار فى شارع ريشيليو الهادىء مشى على مهل يفكر فى الطريقة التى يخرج بها الملكة والملك

وفيما هو كذلك وقع نظره على عربة فاخرة وقد نام سائقها فوقها ، فاقترب وتأمل الشعار المحفور عليها ، فعرف فيه شعار نائب المطران . فخطرت له فكرة نفذها بغير تردد ، إذ قفز إلى داخل العربة ، ثم جذب حبل الجرس لتنبيه السائق ثم صاح بصوت رفيع :

— إلى القصر الملكى : (الباليه رويال)

فأسرع السائق الذى استيقظ من غفوته مرتبكا بتنفيذ الأمر ، وهكذا دخل فناء القصر ونزل دارتانيان ، وحينئذ تنبه السائق إلى الحقيقة ، ولكن الوعيد والتهديد أجبره على

أن يلوذ بالصمت ، كما تولى حراسته جنديان مسلحان ، وسرعان ماخلعوا عنه ثيابه فلبسها دارتانيان ، ثم اقتادوا السائق إلى الحبس فى احدى غرف الثكنات . وتوجه دارتانيان إلى سكرتير مازاران فطمأنه على سيده ، ثم طلب منه أن يستأذن له على الملكة فى حجرتها الخاصة وكانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بخمس دقائق . فوجدها دارتانيان مستعدة ، وقد أيقظت الملك الصغير من نومه

وفى هذه اللحظة سمع من خارج القصر هياج الجماهير ، فترددت الملكة ، بيد أن دارتانيان طمأنها وأصر على المضى فى الخطة ، فأذعنت الملكة واثقة به ، بيد أن قائد الحرس دخل معلناً أن الجماهير قد سرى بينها أن الملكة والملك فرا من باريس ، فهم يصرون على رؤيتهما حالا وإلا حطموا كل شىء . فأشار دارتانيان أن ينسحب الحراس من الدهاليز ، وأن يبلغ قائد الحرس الجماهير أن الملك الطفل نائم ، وأن الملكة تسمح للشعب برؤيته فى فراشه بشرط ألا يحدثوا أى صوت يوقظه . ونصح الملكة أن ترتدى ثوبا من ثياب النوم وتقف فى طرف الحجرة ، أما هو فاختفى خلف ستار ويده على مقبض سيفه

وكان لهذه الكلمات فعل السحر فى الجماهير فهدأت ، ثم فتح الباب فدخلوا إلى أن بلغوا مخدع الملك ، فلما رأوا الملكة واقفة بملابس النوم جمدوا فى مكانهم ، فقالت :

— تفضلوا أيها السادة ، وليقترب منكم من يعرف الملك شخصياً ليتأكد أنه هو ، وأنه نائم ، وأننى أنا الملكة لايبدو على شكل من يستعدون للهرب

وتشجع الزعيم — وكان هو بلانشيه — فدخل ودخل معه شخص آخر ملتف بعباءة فضفاضة فحدقا فى وجه الملك ، وأعلنا أنه هو الملك فعلا ، وأنهما سيبلغان هذه الحقيقة للشعب

وقد أجاد الملك الطفل تمثيل النوم ، فلما خرجت الجماهير مسح دارتانيان العرق الذى تصبب من جبينه ، ثم عاد قائد الحرس ليخبر الملكة أن المندوبين أعلنا الحقيقة للشعب ، فانصرف الشعب هاتفاً للملك والملكة ، فأشار دارتانيان بأن الوقت مناسب للرحيل ، فتبعته الملكة والملك ، فجلس دارتانيان فى مكان الحوذى ، ثم أمر باطلاق سراح الحوذى الأصلى ، وأن يذهب أحد الجنود فيأخذ جواده وجواد بورتوس ويذهب بهما إلى مكان معين خارج باريس ، فى ضاحية سان جيرمان ، فى انتظار أوامر أخرى



وخرجت العربة يقودها الحوذى دارتانيان وقد أخفى بين ثيابه غدارتيه ، ووضع تحت قدميه بندقية محشوة ، كما وضع سيفه عاريا وراء ظهره . ولم تتكلم الملكة التى جلست بين طفليها (الملك وأخيه الأصغر الدوق انجو) استغرابها من وجود عربة نائب المطران بالذات

تحت يد دارتانيان ، وجلس قبالة الملكة خادمها الخاص «لابورت»

وكانت داوريات الشعب حين ترى العربة تعرفها بشعارها فتهتف لنائب المطران وتفسح الطريق ، إلى أن خرجوا سالمين من باب باريس ، وما هى إلا بضع دقائق أخرى من السير السريع حتى لحقوا بعربة الكردينال فى عربة الملكة فى المكان الذى كان يشغله الخادم

وبعد دقائق معدودات وصلت عربة الأمير كونديه ومعه زوجته ووالدته ، ثم عربة أخرى فيها عم الملك الدوق اورليان وزوجته وابنته ، ثم عربة ثالثة فيها الدوق لنجفيل زوج شقيقة الأمير كونديه والأمير كونتى . فقالت الملكة :

— وأين الدوقة لنجفيل ؟

— ان زوجتى مريضة وتعتذر اليك يامولاتى

ثم توالت بعد ذلك العربات ، وتوجه الركب بكامل هيئته إلى قصر سان جيرمان ، وهناك امتطى دارتانيان وبورتوس جواديهما ، وهما بالانصراف ، لولا أن الكاردينال استدعى دارتانيان وقال له :

— انك بطل يساوى أكثر من وزنه ذهباً ، وانى أقدرك تمام التقدير ، مارأيك فى أن تغدو يوزباشياً ؟ وأن يغدو صديقك بارونا ؟ إذا كنتما تريدان ذلك فهاهو الخطاب الذى يجب أن تسلماه إلى العنوان المكتوب بداخله فوق مظروف آخر . ولكن لاتفتحا المظروف الأول إلى حين تصلان إلى لندن . ويجب أن يكون الرحيل من ميناء بولونى ، حيث ستجدان شابا انجليزيا متنكراً تحت اسم موردانت ، وعليكما أن تتبعا هذا الشاب حيثما ذهب بكما ، وأن تطيعاه طاعة عمياء . وهذا كل شىء

— لا أظن ياصاحب النيافة أن هذا كل شىء . فالسفر فيا يلوح يحتاج إلى مصاريف . والمعيشة فى انجلترا مرتفعة التكاليف ، ولا سيما حين يكون المرء مندوبا فوق العادة

— ها كما إذن الف ريال . فما قولك يادارتانيان ؟

— قولى ان هذا قليل،وخصوصاً أننا اثنان

— نجعلها إذن ألفاً ومائتين . ولكما عند العودة ماوعدتكما من ترقيتك ومن الانعام عليه برتبة البارونية

— وهل أفهم أنه يدخل فى مهمتى أن أقاتل إذا احتاج الأمر إلى قتال ؟

— أطع كل مايقوله لك من أرسلت اليه هذا الخطاب

— لى طلب أخير . ألا أستطيع توديع جلالة الملكة ؟

— جلالتها نائمة بعد مجهود السفر الشاق ، ويجب أن ترحلا إلى بولونى فوراً

فلم يسع دارتانيان سوى الانصراف مع صاحبه بورتوس الذى كان متعباً جداً من السفر والسهر ، وأن يسرجا جوادين من أقوى جياد القصر وركبا إلى غايتهما المجهولة

أخبار من أراميس

اتجه الفارسان أولا الى باريس كى يسوى دارتانيان بعض شئونه الخاصة قبل رحلة مجهولة العواقب . فلما وصـلا الى العاصمة وجداها تغلى ، حتى إذا وصلا إلى ميدان القصر الملكى أبصر دارتانيان تابعه القديم بلانشيه يقود تدريبات عسكرية من الأهالى يبلغ عددهم نحو خمسمائة ، مستعيناً بمعلوماته القديمة حين كان (مراسلة) لدارتانيان فى الحروب منذ عشرين سنة . فلما رأى دارتانيان ألقى عليه تحية الصباح فى أنفة ، فرد عليه دارتانيان التحية ساخراً واستأنف سيره مع بورتوس الى فندق المعزة الصغيرة . واستقبلته صاحبة الخان بخطاب وصل لتوه بعنوانه ، فعرف فيه خط آتوس ، ففضه وقرأه بسرعة ، وإذا به هذه الكلمات :

— تحيتى وتحيات أراميس إليك وإلى بورتوس . ربما كانت هذه آخر رسائلنا . نحن فى ظروف حرجة ، ولكن الله معنا . أوصيك براؤول . وإذا لم تصلك خطابات منى بعد شهرين ونصف فأرجوك أن تفتح خزانة أوراقى فى بلوا وتطلع على ما فيها . وأن تشمل الفيكونت بما كنت تخصنى به من المحبة . وإذا صادفك فى طريقك شخص اسمه موردانت فاحذر منه . ولا أستطيع أن أقول لك أكثر من ذلك فى خطاب

« آتوس »

وتذكر دارتانيان هذا الاسم الذى قال له مازاران أن الانجليزى الذى سيقابله فى بولونى متنكر تحته ، ورأى فى آخر الخطاب بضعة سطور بإمضاء آراميس :

— إن مكان إقامتنا لانستطيع التصريح به ، خوفاً من حضوركما لتشاركانا خطر الموت فيه . وإذا كان آتوس يوصيك براؤول ، فأنا أوصـيك بالانتقام . فاذا وقع فى يدك يوماً ما شخص اسمه موردانت فاطلب من بورتوس أن يلوى عنقه بيديه الفولاذيتين حتى حتى يقطعه كعنق الدجاجة . ولا أستطيع أن أزيد « آراميس »

ففتل بورتوس شاربه وقال :

— هذه مسألة سهلة

فابتسم دارتانيان ابتسامة كالحة وقال :
— إنها بالعكس صعبة جداً ، بل مستحيلة
— هيه ؟ لماذا ؟
— لأنك ياعزيزى موفد إلى هذا السيد موردانت بالذات فى بولونى وسترحل فى صحبته عبر البحر إلى انجلترا
— إذن لا نذهب اليه ، بل ننضم إلى صديقينا فنناصرهما
— لقد فكرت فى هذا فعلا ياصديق الذكى ، ولكنهما أخفيا عنا عنوانهما
— رباه . هذا صحيح . كيف نسيته ؟ ولكن هيا بنا نقابل راؤول ، فقد تكون لديه أنباء عن آتوس
— رأى حسن ، فهيا بنا
وركبا جواديهما ، فوجدا فى الشوارع قرب سان دينيس مظاهرة كبيرة ، لأن الدوق دى بوفور حضر لتوه ، ونيافة نائب المطران يقدمه للجماهير . فأسرعا فى طريقهما إلى أن اعترضتهما مظاهرة ، فصاح دارتانيان :
— نحن مندوبان من الدوق دى بوفور برسالة الى والده الدوق فاندوم
وهكذا زالت من أمامهما جميع العقبات ، ولكنهما لم يجدا عند راؤول أى نبأ عن آتوس ، ووجداه فى غاية القلق لعدم وصول خطابات ، فطمأنه دارتانيان وقال له إنه تلقى خطاباً يبعث على الارتياح . فلما طلب اليه الفتى إطلاعه على الخطاب تصنع أنه فقد منه
وبعد ذلك ركب الصديقان إلى بولونى ، فوصلاها عند حلول المساء ، وقد تصببا عرقاً ، وانهكت قوى جواديهما ، وعلاهما الزبد . فأبصرا عند مدخل المدينة شاباً متشحاً بالسواد يبدو كأنه ينتظر وصول أحد ما ، فراح يحدق فيهما ، فاقترب منه دارتانيان قائلا :
— اسمع ياأخانا ! أنا لا أحب أن يحدق فى أحد
فأجاب الشاب دون أن يعلق على هذه الملاحظة :
— هل أنتما قادمان من باريس ؟
— أجل
— ألستما مكلفين بمهمة من لدن نيافة الكردينال مازاران ؟
— بلى يا سيدى
— إذن فأنا ضالتكما ، فاسمى موردانت
فرك بورتوس أصابعه وقد تذكر وصية أراميس ، وتبادل الفارسان النظر ، ثم تفرسا فيه جيداً ، فلم يفهم مغزى هذه النظرات وقال :

— أتشكان فى حقيقة شخصى ؟ فى استطاعتى أن أقدم لكما الدليل المقنع

فقال دارتانيان :

— لا ضرورة لذلك يا سيدى ، نحن نضع أنفسنا تحت تصرفك

— إذن نبحر الآن ، فالسفينة مستعدة ، وهـذا آخر يوم فى مهلتى ، والجنرال كرومويل ينتظر أوبتى بفارغ الصبر

— إذن نحن مبعوثان الى الجنرال كرومويل ؟

— أليس معكما خطاب موجه إليه ؟

— معى فعلا خطاب لا ينبغى أن أنزع غلافه الخارجى الأبيض لأرى العنوان على الغلاف الداخلى، إلا حين أصل الى لندن ، ولـكن ما دمت قد صرحت لى ، فاني أفض الخطاب هنا

وفض دارتانيان الخطاب ، فوجد العنوان على المظروف الداخلى :

— إلى السيد أوليفر كرومويل ، قائد عام قوات الأمة الانجليزية

فعجب دارتانيان ولـكنه كتم دهشته ، وقال موردانت :

— هيا أيها السيدان ، فقد تأخرنا

فقال بورتوس :

— ألا يستطيع السيد كرومويل أن ينتظر قليلا حتى نتعشى ؟

— كما تريدان : لـكن بسرعة

فقال دارتانيان :

— اسبقنا الى السفينة ريثما نتعشى ونلحق بك بعد نصف ساعة . ما اسم السفينة ؟

— استاندرد (الراية)

وافترقوا . ثم أسرع دارتانيان وبورتوس الى خان لتناول الطعام ، وسأل دارتانيان صاحبه عن رأيه فى موردانت وهما يسرعان السير ، فقال :

— إنه لا يعجبنى على الاطلاق ، وأشتهى أن أنفذ وصية أراميس

— إياك أن تفعل ، فهو رسول الجنرال كرومويل ، ولا أحسبه يحسن استقبالنا اذا قلنا له إننا خنقنا رسوله الخاص

وتناولا عشاء دسماً ، ثم توجها الى المرفأ فركبا السفينة ، ووجدا الملاحين على استعداد للاقلاع فوراً ، فانهمكوا بمجرد ركوبهما فى الابحار ، بينما كان الشاب موردانت يتمشى على ظهر السفينة مطرقاً ، فجعل دارتانيان يتفحصه بنظره ثم قال لصاحبه :

— من الغريب أن سحنة هـذا الشاب تذكرنى وجهاً عرفته فيما مضى ، ولـكنى لا أستطيع تحديد وجه من هو

وفى هذه اللحظة أعلن ربان السفينة أنها لا يمكن أن تبحر إلا فى الثامنة مساء لأسباب فنية

هزيمة الملك شارل

أقلعت السفينة في موعدها المرسوم مقلة دارتانيان وبورتوس ، لا إلى لندن كما تبادر إلى ذهنيهما ، بل إلى ديرهم ، فلندعها في سبحها وسراها ، ولنتوجه للقاء أراميس وآتوس في معسكر الملك شارل قرب نيوكاسل ، على شاطىء نهر التاين الذى تقع على شاطئه الآخر جبال إسكتلندا

وما هي الساعة تدق معلنة الأولى صباحا ، وهاهما الصاحبان يلتقيان في جانب مقفر من ذلك المعسكر ، فيسمع في تلك الأرض الانجليزية الصميمة أصفى حوار باللغة الفرنسية النقية من كل عجمة ، فاذا بآتوس يبادر أراميس بقوله :

— هيا بنا نقابل الملك فورا

— ماذا جرى ؟

— هذا شىء يطول شرحه ، ولـكنك ستسمع خبره بعد حين ، فهيا إلى اللورد ونتر وحثا الخطى إلى الطرف الآخر من المعسكر ، فدخلا في هذه الساعة على اللورد وأيقظاه ثم قال آتوس :

— أريد مخاطبة الملك ، كى أكشف له عن أمور خطيرة

— ألا يمكن ارجاء هذه الأمور إلى الغد ؟

— بل يجب أن يعرفها فورا ، وربما كان الوقت قد فات لتلافيها الآن

— هيا بنا ياسيدى العزيزين

وكانت خيمة ونتر إلى جوار الخيمة الملـكية ، وتصل بينهما خيمة على هيئة دهليز يقف للحراسة فيه خادم الملك الخاص ، ولـكنه كان يعرف ونتر فانحنى وتركه يمر مع صاحبيه . وكان الملك راقداً على سرير عسكرى ، وعليه حلته السوداء ، وفي قدميه حذاء الركوب الطويل وقد فك حزامه ، ووضع قبعته إلى جواره ، واستسلم للنعاس تحت ضغط الارهاق

فلما رآه آتوس على هذه الصورة ، صمد زفرة كانت كافية لانقاذ الملك لأنه كان ينام نوما خفيفاً جداً . فلما رأى آتوس قال :

— أهذا أنت يا كونت دى لافير ؟ انك تسهر وأنا نائم ، وأحسبك جئتنى بنبأ

— وا أسفاه يامولاى ، لقد أصبتم الظن

فابتسم الملك ابتسامة حزينة وقال : هو إذن نبأ سيء ؟

— أجل يامولاى . ان السيد كرومويل قد وصل هذه الليلة الى نيوكاسل

— آه ، هل جاء ليناجزنى ؟

— كلا يامولاى ، بل ليشتريك ، فأنت تعلم يامولاى أن رواتب الجيش الاسكتلندى متأخرة منذ سنة بما قيمته أربعمائة ألف جنيه استرليني

— صحيح . منذ عام تقريباً والاسكتلنديون الأمناء يحاربون للشرف وحده . .

فابتسم آتوس وقال :

— ومع أن الشرف شيء جميل يا مولاى ، فقد سئموا القتال من أجله فباعوك الى كرومويل بنصف رواتبهم المتأخرة لديك ، أى مائتى ألف جنيه . ولكن لايزال فى مقدورك أن تعبر نهر التاين لتلوذ بجبال اسكتلندا حيث اللورد مونتروز الذى لن يبيعك

— ما العمل إذن ؟ وكيف نعبر النهر ؟

— أمامك يامولاى ثلاثة رجال مخلصين ، فلتركب جلالتك جوادك فنحف بك ونعبر النهر

— وهل هذا رأيك أيضاً يادى ونتر ؟

— نعم يامولاى

— ورأيك أنت أيضاً يادربلاى ؟

— نعم يامولاى

— إذن اجر اللازم ياونتر

فخرج ونتر ثم عاد بعد لحظة وقال ان كل شيء قد صار على مايرام ، فخرج الملك ووجد جواده مستعداً أمام الخيمة . ولكن آتوس أشار بيده إلى خط أسود على الأفق مواز للنهر ، وقال :

— ما هذا ؟ لم يكن لهذا الخط وجود بالأمس يامولاى

— هذه ولا شك سحب الضباب الصاعدة من النهر

— بل هذا يامولاى شيء أشد جسامة من الضباب . انه العدو خارجا من نيوكاسل كى يحيط بنا ، لقد فات الوقت يامولاى ، فها هو فريق آخر قادم من هناك

— سنرى الآن إذا كان الاسكتلنديون قد باعونى حقا

— ماذا ستصنع جلالتكم ؟

— سآمرهم بمهاجمة العدو واختراق صفوفه

ثم امتطى الملك جواده واندفع إلى خيمة الكونت لوين . فتبعه الفرسان الثلاثة وكان القائد واقفاً بين أركان حربه ، فبهتوا عندما رأوا الملك أمامهم ، فقال الملك :

— لقد حضر كرومويل هذه الليلة إلى نيوكاسل ، وقد عرفتم ذلك ولم تخبرونى به وقد خرج العدو من المدينة وفصل بيننا وبين النهر ، ولابد أن حراسكم قد أبصروه ، ولكنهم لم يبلغونى ولم يطلقوا صيحات الحذر ، وانكم أخيراً قد بعتمونى للبرلمان نظير مائتى ألف جنيه استرلينى . وهـذا وحده هو الذى عرفته فى الوقت المناسب ، فما قولكم أيها السادة ؟

فحاول الكونت لوين أن ينفى هذه التهم ، وطلب الملك منهم البرهان على كذبها بمهاجمة العدو المتقدم ، فتنصلوا من ذلك بأن الهـدنة المعقودة بين الطرفين لاتسمح به ، فصاح الملك محنقا :

— ولكن الانجليز العصاة قد خرقوا نصوص الهدنة بخروجهم من المدينة على تعبئة للقتال . فيجب أن تخترقوا ممى جيش العدو لنتوغل فى اسكتلندا . أما وأنتم ترفضون ذلك فعليكم أن تختاروا بين أحد اسمين كل منهما آية على البغض والاحتقار ، فأنتم إما جبناء ، وإما خونة

فقدحت عيون الاسكتلنديين بالشرر ، وانقلبوا من الخجل إلى الوقاحة والتبجح ، فتقدم منه رئيسان من رؤساء العشائر من الجانبين وقالا :

— لقد وعدنا بأن نخلص اسكتلندا وانجلترا من ذلك الذى يمتص ذهبهما ودمهما منذ خمس وعشرين سنة . فاعلم أيها الملك شارل ستيوارت أنك أسير بين أيدينا

ثم مدا يديهما فى وقت واحد ليقبضا عليه ، ولكن قبل أن تمسه أطراف أناملهما كانا قد سقطا صريعين . فقد صعق آتوس أحدهما بقبضة مسدسه ، أما الآخـر فقد اخترق أراميس جسده بسن سيفه ، فتراجع الكونت لوين وسائر القواد أمام هذه المعونة المفاجئة وانسحب أراميس وآتوس بالملك إلى خارج الخيمة ، حيث قفزوا إلى صهوات الجياد التى كانت فى يد الخـدم وأسرعوا إلى الخيمة الملكية ، ورأوا فى طريقهم اليها الورد ونتر واقفاً على رأس فرقته ، فأشار اليه الملك أن يوافيه



دخل الأربعة خيمة الملك ، فتهاوى الملك فوق مقعد وقال : « لقد ضاع كل شىء .. » فقال آتوس :

— كلا . وإنما هى خيانة ، فانهض يا مولاى ، فتحت أمرك على الأقل ثلاثة رجال لن يخونوك مهما كانت الأحوال ، وإنى أقترح أن يتقدم اللورد دى ونتر على رأس فرقته

التى يثق فى ولائها ، ونحيط نحن الاثنان بجلالتك ، ثم نحاول فتح ثغرة فى جيش كرومويل ننفذ منها إلى اسكتلندا

فقال أراميس :

— هناك وسيلة أخرى ، وهى أن يلبس أحدنا ثوب الملك ويركب حصانه ، حتى يتجمع حوله انتباه العدو ، فيستطيع الاثنان الباقيان المرور بجلالتك من خط القتال

فقال الملك :

— ما رأيك فى هذا يا دى ونتر ؟

— رأيى يا مولاى أن خير طريقة لانقاذ جلالتك هى ما قاله السيد دربلاى ، وألتمس من جلالتكم أن تختاروا بديلكم فوراً من بين ثلاثتنا لضيق الوقت

فرمق الملك صديقه القديم بنظرة يكاد يطفر منها الدمع ، ثم نزع الوشاح الأكبر من نيشان الروح القدس الذى يحلى به صدره فوضعه حول عنق دى ونتر الذى تلقى ذلك الشرف — شرف خطر الموت فى سبيل نجاة الملك بأن يحل محله — راكعاً على ركبتيه . ثم التفت جلالة الملك ففتح صيواناً أخرج منه وشاحين من أوسمة ربطة الساق ، وهى أرفع الأوسمة الانجليزية إطلاقاً ، فأنعم بهما على آتوس وأراميس وقبلهما ، ثم تبادل مع دى ونتر القبعة والجواد ، وركب أربعتهم . واقترح آتوس أن تقسم فرقة دى ونتر الى قسمين : أحدهما يقوده دى ونتر ، والآخر يقوده الملك ، فوافق الملك ، وتولى دى ونتر التقسيم ، ثم صاح بفريقه :

— إلى الأمام . امتشقوا السيوف !

فصدع رجاله بالأمر ، وانشرح صدر الملك فصاح برجاله : « امتشقوا السيوف ! »

ولكن آتوس وأراميس هما اللذان أطاعا وحدهما ذلك الأمر ، ثم بدأ الرجال يتفرقون منفضين إلى جيش العدو ، كما انفض رجال دى ونتر من حوله ، اللهم إلا حفنة لا تصل إلى العشرين رجلا ، بيد أن دى ونتر لم يتراجع بل صاح : « إلىّ يا جميع المخلصين »

فأسرع أراميس وآتوس والملك اليه ليتلقوا مع تلك الفئة القليلة هجوم الطليعة من رجال كرومويل الذى شوهد على ربوة يدير المعركة

وأقبلت طلائع العدو ، وصاح قائدهم بالفرنسية : « لا مرور »

فما ان سمع دى ونتر ذلك الصوت حتى ارتعدت فرائصه ، فقد كان ذلك الصوت لفارس فوق جواد أسود رائع ، يتقدم جنوده فى حمية . وصاح جنوده حين رأوا دى ونتر فى ثياب الملك : ها هو الملك . اقبضوا عليه حياً

فصاح ذلك القائد : « ليس هذا هو الملك . أليس كذلك يا لورد ونتر ؟ أنت لست الملك أليس كذلك يا عماه » ؟

وبحركة سريعة صوب فوهة مسدسه اليه ، ثم أطلقه فأصاب صـــدر اللورد الشيخ وأرداه صريعاً ، وكانت آخر كلماته :

— المنتقم . . !

وفى هذه اللحظة أطبقت الفرقة كلها على هذه الفئة الصغيرة ، ووجد آتوس وأراميس نفسيهما محصورين ، فجرد آتوس سيفه وصاح بزميله :

— هيا يا أراميس نكافح عن شرف فرنسا

وسقط أقرب انجليزيين اليهما ، وإذا بالصفوف الانجليزية تنشق عن عملاق ينقض على آتوس فينتزع السيف من يده وهو يهمس فى أذنه :

— استسلم فى سكون ، فاستسلامك لى لا يعيبك

— دار . . .

فكتم دارتانيان فم آتوس حتى لا ينطق باسمه . وفى الوقت نفسه كان عملاق آخر اسمه بورتوس ينقض على أراميس ويأخذ منه سيفه . وهكذا انتهت الموقعة . وطلب موردانت على الأثر إلى أراميس وبورتوس أن يذهبا معه لمقابلة كرومويل ، ولـكنهما أصرا على إيداع أسيريهما الفرنسيين اللذين تجاهلا أنهما يعرفانهما ، فى مسكنهما بالمدينة قبل ذلك ، ورفضا تسليمهما لموردانت الذى تعهد بحراستهما . فأشار موردانت إلى جاويش أن يتبعهم ليخبره بمكانهم . ورأى دارتانيان هذه الاشارة وفطن الى مغزاها

وفى هذه الأثناء كان الملك قد رأى نفسه وحيداً فترجل عن جواده ومشى ببطء الى أن رأى جثة ونتر ، فانحنى وقبله ، ثم استرد نيشان الروح القدس وقبعته المزخرفة ، وخاطب كولونيل الفرقة قائلا :

— هيا أيها السادة إلى حيث تريدون

— سيفك

فجرد الملك سيفه وكسره على ركبته

وأسرع موردانت بعد ذلك إلى الربوة التى وقف فوقها كرومويل فأبلغه تطورات المعركة ، بما فيها مصرع عمه بيده ، ثم أسر الملك . فأبدى كرومويل سروره من شجاعته ، وإن عجب فى نفسه لعدم تأثره بقتل عمه بيده ، فقال موردانت :

— لقد حان الوقت ياســيدى لـكى تكافئنى على كل ما أديت من خدمات هنا وفى فرنسا . فهل تجيبنى إلى طلبى ياسيدى ؟

— ما هو الطلب أولا ؟

— هناك أسيران أريد أن تهبنى إياهما .

— هما لك . ولست أريد معرفة اسميهما ، فتصرف فى أمرهما بما تراه

— شكراً لك يا سيدى ، وسأظل نظير ذلك الجميل مدينا لك مدى الحياة ، وحتى لو بذلت حياتى فى خدمتك لما عظم ذلك جزاء على هذه المنة العظمى



وفى هذه الأثناء كان دارتانيان وبورتوس قد وصلا بأسيريهما إلى مقرهما الخاص فى مدينة نيوكاسل . وهو منزل مزودة نوافذه الأرضية بقضبان كقضبان السجون ، على ناصية شارع ، وبه حديقة واسطبل . فلما دخل الأربعة البيت ، استقر الجاويش الذى أرسله موردانت وراءهم فى الحديقة الصغيرة مع أتباعه ، قائلا لآتوس :

— لقد تلقينا أمراً بمساعدتكما فى حراسة السجينين

فلما أغلق الباب على الأصدقاء الأربعة راحوا يتبادلون العناق والقبلات ، وكل فريق من الفريقين يعجب لتلك الصدفة الغريبة ، ويستغرب وجود الفريق الآخر فى انجلترا ، ثم تبادلوا أسرار الحوادث التى دفعت بكل فريق من الفريقين فى ذلك الاتجاه . وراح آتوس وأراميس يعتبان على دارتانيان وبورتوس أنهما رضيا أن يحاربا قضية الملك وهما النبيلان الشريفان ، وهو رأس الأشراف

ثم انقلب الحديث بعد ذلك إلى المستقبل ، وإلى وجود موردانت بن ميليدى عدوهم اللدود معهم فى مدينة واحدة ، وما فى ذلك من خطر لو عرف حقيقة شخصيتهم

وفى هذه اللحظة صاح آتوس :

— ها هو موردانت مقبلا يعدو نحونا

فخرج دارتانيان من البيت لمقابلته ، بعد أن حذر آتوس وأراميس من إظهار أى شىء ينم على أشخاصهم أو سبق تعارفهم ، وطلب اليهم ألا يخرجوا من الغرفة إلا إذا سمعوه ينقر بأصابعه على الباب نقراً موسيقياً متفقاً عليه



وجد موردانت دارتانيان واقفاً أمام البيت ، والجنود منبطحين على الأرض ، فأمر أربعة منهم بالتأهب للسير بالأسيرين ، فتصدى له دارتانيان متعجباً من ذلك التصرف مع أن الأسيرين أسيراه هو وصاحبه بورتوس ، فقال له موردانت إن الجنرال كرومويل قد أنعم عليه بهما ، فلم يستطع دارتانيان أن يتحدى إرادة القائد العام ، وآثر استعمال الحيلة ، فطالب موردانت بإبراز أمر كتابى بتوقيع كرومويل ، ولمح له إلى أن الأسيرين من أغنى أبناء البيوتات فى فرنسا وفديتهما ضخمة ، قد تكفى لاثراء رجل فقير مثله ، ذلك أن زميله دى فالون ثرى وقد تنازل له عن نصيبه من الفدية . فلم يمانع موردانت فى العودة لاحضار أمر كتابى من

كرومويل ، وإحضار ألفى ريال تعويضاً عن فدية الأسيرين

وانصرف موردانت على أن يعود بعد نصف ساعة بعد أن شدد الأوامر على الحراس، فأسرع دارتانيان بتكليف بورتوس بالتوجه إلى الاسطبل حيث يجد موسكيتن فيسرجان خمسة خيول ، ويضعان عليها الذخيرة والسلاح ، ويقفان بها فى الشارع الجانبى فى انتظار تمام العملية . ثم دخل دارتانيان إلى الحجرة التى فيها آتوس وأراميس ، فأخبرهما انه قد اعتزم الفرار معهما والعودة إلى فرنسا للانضمام إلى الأمراء ضد مازاران . فأخذ كل منهما سيفه، ثم طلب اليهما أن يكونا على تمام الأهبة ، للخروج والقفز فوق ظهور الخيل حين يطلق الاشارة المتفق عليها « بحق السماء »

وأسرع دارتانيان بالخروج وهو يصفر بفمه ، ثم قال للجاويش قائد الحراس أنه ذاهب لمقابلة الجنرال كرومويل ، وأوصاه بالانتباه للاسيرين . ثم خرج إلى الشارع فوجد بورتوس واقفاً مع موسكيتن والخيول الخمسة على أتم استعداد ، فركب جواده ثم وقف به أمام باب البيت ، وأخرج قداحته فأشعل بها قطعة من الصوفان كبيرة ، ثم تحرى أن يقف بجواده فى وسط الجنود ، وحينئذ وضع الصوفان المشتعل فى أذن الجواد ، وثبت نفسه جيداً فوق السرج ، فاذا بالحصان يشب على قائمتيه الخلفيتين وهو فى درجة من الهيـاج كبيرة ، وراح يصهل ويرفس كالمجنون ، فأسرع العساكر بالابتعاد خائفين ، وراح دارتانيان يصيح :

— أدركونى ، أغيثونى ، لقد جن الحصان ، سيقتلنى الملعون ، أدركونى،بحق السماء!

وما نطق الـكلمة الأخيرة حتى انطلق الفارسان أراميس وآتوس من الباب كالقنبلة وفى يديهما السيوف مشرعة ، ورآهما الجـاويش فجعل يصيح ، فأسرع الجنود إلى أسلحتهم ، ولـكن بعد فوات الأوان لأن الأسيرين كانا قد انطلقا مع صاحبيهما يسابقون الريح حتى خرج الجميع سالمين من باب المدينة ، ومعهم جريمو الذى لقيهم فى الطريق وكان ذاهباً إلى البيت فأسرع وراءهم



توقف الفرسان الأربعة حين استشعروا الأمن ليتشاوروا فى خطتهم ، فاقترح دارتانيان أن يتجهوا إلى أقرب مرفأ كى يبحروا إلى فرنسا ، ووافقه بورتوس على ذلك، بيد أن آتوس وأراميس رفضا العودة إلى الوطن وقررا البقاء فى انجلترا لمحاولة إنقاذ الملك ، وعبثاً عالج دارتانيان وبورتوس هذا الرأى ، فان تصميم صاحبيهما على إرضاء ضميرهما والوفاء بوعدهما للملـكة هنرييت كان راسخاً كالجبال ، فلم يسع دارتانيان وبورتوس إلا أن يقررا المـكوث معهما فإما انتصروا معاً أو هلـكوا معاً ، وقد تأثر الصديقان لذلك الوفاء الجميل ، وعانق آتوس دارتانيان شاكراً ، أما بورتوس فانه جعل يفرك يديه ثم قال :

— لقد اتفقنا على خطة المستقبل . ولكن أليس الأهم أن نبحث عن شيء نقتات به ؟

ثم اتجه العملاق إلى خادمه السمين موسكيتن الذى كان أشد الجميع عذابا بخلاء معدته ، فأفتى بأنه لاتوجد مطاعم قريبة ، ولكنه لمح على طرف الغابة منزلا صغيراً

ووجدوا حينما اقتربوا من البيت آثار جياد كثيرة ، مما دلهم على أن الفرقة التى تحرس الملك الأسير فى طريقه إلى لندن قد مرت بالبيت ونزلت به ، فتشاءموا لأنهم قدروا أن الجنود قد أتوا على كل مايصلح للاكل . بيد أن دارتانيان قرر الدخول ، وفعلا دخل وحده ليكتشف ، وكان الباب مفتوحا ولم يجب نداءه المتكرر أحد ، فراعه حين وصل إلى غرفة داخلية ، أن يرى شخصاً غارقاً فى بركة من الدماء . فصرخ دارتانيان دهشة ، وأسرع اليه زملاؤه وارتاعوا كما ارتاع ، ولكنهم لم يلبثوا ان اطمأنوا حين فتح الجريح عينيه وحدق فيهم فزعاً ، ثم هدأ واطمأن حين علم أنهم من أنصار الملك ، وصرح لهم بأنه شقيق «بارى» وصيف الملك الخاص ، وأن الملك الأسير قد نزل بالبيت للغداء بإشارة من بارى ، فوضعوه فى هذه الغرفة الداخلية مع وصيفه ووقفوا لحراسته فى الدهليز ، كى تكون له الحرية الكاملة أثناء الطعام

— وكان بارى يعلم أن فى هذه الغرفة سرداباً سرياً يصلها بالكهف فى أسفل المنزل ، فأشار إلىّ فذهبت إلى الكهف ودخلت السرداب السرى ، حتى رفعت جزءاً من بلاط الحجرة برأسى وأشرت إلى الملك ، بينما عمد أخى إلى الباب فأقفله بالمزلاج ، فجاء الملك ومشيت أمامه لأدله على الطريق ، وإذا بى افاجأ بشخص يعترضنى ويضربنى على أم رأسى هذه الضربة فأغمى على ، ولما أفقت كان الجميع قد رحلوا ، ولعلهم ظنوا أنى مت ، فزحفت حتى وصلت إلى هنا فغشى على ثانية ، إلى أن حضرتم

وأسرع جريمو فضمد جرح هذا المسكين الذى نجم عن ضربة بقبضة غدارة فى مؤخرة الجمجمة ، ثم انصرفوا بعد ذلك دون أن يصيبوا من الطعام شيئاً ، وتشاوروا مرة أخرى فاتفق رأيهم على الذهاب إلى لندن حيث يبدلون ثيابهم فتضيع معالمهم فى المدينة الكبيرة ، واتفقوا على أن يجتهدوا فى اللحاق بالسرية التى تحرس الملك ، حتى يكون السير مأموناً ، والطعام مضموناً ، وعلى أن يتظاهر آتوس وأراميس بأنهما أسيران فى يد دارتانيان وبورتوس ، لأن الأخيرين معروفان لدى ضباط كرومويل أنهما مندوبان فوق العادة لوزير فرنسا مازاران ، فهما لهذا السبب محل رعاية واحترام

وأسرعوا فى السير حتى أدركوا ضالتهم ، فرحب بهم الكولونيل هاريسون قائد الكتيبة المكلفة بحراسة الملك ، أما الملك نفسه فلما رأى آتوس وأراميس توردت وجنتاه أنساً بهما وهو فى هذا الموقف الضنك . أما دارتانيان فإنه أسرع إلى جوار الكولونيل هاريسون

الذي رحب به كل الترحيب ، ثم لم يلبث الركب أن توقف عن المسير كي يتناول الملك عشاءه .
ولكن الاحتياطات في هذه المرة كانت مشددة ، فوضعت في قاعة الطعام الكبيرة بالخان الذي نزلوا فيه مائدة صغيرة يتناول عليها الملك طعامه ، كما وضعت أمامه مائدة كبيرة للضباط، ودعا الكولونيل هاريسون دارتانيان وبورتوس وأسيريهما – الذين دعاهما لشرف محتدهما – ليتناولوا الطعام معه ، بيد أن دارتانيان اعتذر بضيق المكان ، وطلب أن تمد لهم مائدة ثالثة صغيرة في نفس الحجرة ، فأجيب إلى طلبه في الحال . وراح دارتانيان أثناء الطعام يصف كيف نزلوا بالبيت الذي حدثت فيه محاولة الهرب ، ثم أطرى الضربة الماهرة التي وجد أثرها في جمجمة صاحب البيت فكان ذلك فاتحة للتعرف بالكابتن جروسلو الذي ظن نفسه قد قتل الرجل ، فحرص دارتانيان على أن يقول ان الرجل لم يمت وإن كان قد نجا من الموت بأعجوبة. فكانت هذه بشرى لباري وصيف الملك بأن أخاه بخير
وختم دارتانيان المأدبة بأن رفع كأسه وشرب نخب رئيس الحفلة معلناً انه وإخوانه يعتبرون أنفسهم في خدمته هنا وفي لندن وإلى الأبد . وظن الكولونيل ان هذه التحية موجهة له لكن الملك أدرك انه المقصود بها ، وان الفرسان الأربعة قد قرروا محاولة إنقاذه
فلما استأنفوا المسير ، راح دارتانيان يكدح ذهنه للوصول إلى وسيلة بارعة كفيلة بإنقاذ الملك الأسير من بين أيدي حراسه الكثيرين
وكانت وجهة الركب بلدة تريسك ، حيث يقضون الليلة ، فكانت هذه الليلة أقل الليالي حظا من النعاس بالنسبة لدارتانيان ، لانشغاله بإيجاد هذه الوسيلة التي عقد زملاؤه آمالهم عليها ، ولكن أنوار الفجر حملت إليه الالهام
لم يعرف دارتانيان طعم النوم ولكن ما كادت تبدو أول تباشير النهار حتى أسرع إلى زيارة الجياد في الاسطبل واعطاء الأوامر للخدم لذلك اليوم ، حتى إذا كانت الساعة الثامنة بدأ المسير ، على نفس نظام اليوم السابق ، بيد أن دارتانيان ترك زملاءه ومضى إلى الكابتن جروسلو ليعقد معه أواصر الصداقة التي بدأت بالأمس وقد وجد أن خير طريقة لكسب مودته أن يكيل له المديح على قوته وشجاعته ، ومعرفته للغة الفرنسية على وجه الخصوص . فاطمأن الرجل اليه وراح يحكي له كيف عاش ست سنوات في باريس عند وكيل والده التجاري في العاصمة الفرنسية ، ثم تطرق الكلام إلى الملك وكيف سيحاكم في لندن ثم يعدم. فقال دارتانيان :
— ياله من صيد سمين ، لا أحسبك تغفل عنه ليلا أو نهاراً . وان كنت أحسب أن الحراسة بالليل أشق ، وفرص الافلات منها أكثر
— كلا ، فالاحتياطات في الليل مضاعفة : إذ يلازم ستة رجال حجرة الملك باستمرار

— هذا عظيم . ولا شك أيضاً أن فى خارج الحجرة حرساً آخر كبير العدد

— وماذا يستطيع رجلان أعزلان لثمانية رجال مسلحين ؟

— رجلان ؟

— نعم ، الملك ووصيفه هارى الذى يصر الملك على ملازمته له ، إذ يبدو أن الملوك قد فقدوا بالعادة الدراية باللبس والخلع بغير مساعدة كالأطفال

— ياله من عمل شاق لك . لقد كنت أنا فى فرنسا قبل حضورى مباشرة إلى انجلترا مكلفاً بحراسة ملكنا الصغير فى بعض الرحلات لمدة ثلاثة أيام . ولكنها كانت أياما لذيذة للغاية لم أشعر فيها بأى تعب ، ولا سيما فى الليل

— لابد إذن أن الملك كان مسامراً ظريفاً

— الملك ؟ لقد كان طفلا ينام نوما عميقاً من أول الليل إلى آخره . فكنت أنا وزملائى الضباط الذين ليست عليهم النوبة نتسامر ، فيأتون إلى حجرة الحرس المفضية إلى حجرة الملك ، ويسهرون معى فنشرب ونلعب القمار ونحن فى غاية الطرب حتى الصباح ، فهل تريد ليالى مفرحة بهيجة أكثر من هذه؟ أما أنت ياصاحبي فا أظنك الا تنفق ليالى الحراسة فى التبرم والسأم

— لك حق . وإني فى الواقع أنظر بعين القلق إلى اقتراب دورى فى الحراسة الليلية بغرفة الملك . فا رأيك أن تأتى لتسهر معى فى نوبة حراستى ليلة غد ؟

— فى حراسة الملك ؟ هذا مستحيل . ثم انى مرتبط بتسلية زميلى دى فالون بمشاركته اللعب ، فاننا نلعب أحيانا حتى الصباح

— هات صديقك معك

— وأسيرانا ؟

— اتركهما لحراسة الخدم

— كى يهربا ؟ كلا ياسيدى

— هما اذن من ذوى الحيثية حتى انك حريص على عدم هربهما ؟

— انهما ينتسبان إلى أغنى وأعرق الأسر فى فرنسا

— اذن هاتهما معك أيضاً ، فنلعب خمستنا معاً ويكون السرور أتم . ونخصص من الحراس الثمانية أربعة لحراسة أسيريك ، ويكفى لحراسة الملك الأربعة الآخرون

ولم يبادر دارتانيان بالقبول متظاهراً بأنه لايريد احراج صديقه جروسلو ، ولم يقبل الدعوة إلا بعد الحاح من الضابط الانجليزى ، وبعد أن اشترط عليه أن يأتى هو للسهر معه ومع زملائه الثلاثة هـذه الليلة نفسها ، لتزداد الألفة ويكون موضع ثقة جروسلو التامة حين يذهب مع زملائه للعب معه فى حجرة الملك

وكانت حفاوة دارتانيان بجروسلو فى تلك الليلة عظيمة بحيث شعر بأنس بين الكاس واللعب والنكات لم يشعر بمثله منذ غادر باريس . وقد تعمد دارتانيان أن يتأخر فى الليلة التالية عمداً عن تلبية الدعوة للسهر مع جروسلو فى حجرة الملك حتى بعث اليه خادمه يستعجله ، لكى ينفى من ذهنه جميع شوائب الشك



واستقروا للعب فى الحجرة المفضية إلى حجرة الملك ، وجلس جروسلو فى مواجهة الباب ، بحيث تقع عينه على الملك من خلال فتحته . ثم استثار دارتانيان حماسته بأن أخرج كومة من الذهب فى قبضة يده ، فقسم جروسلو الحرس بأن جعل أربعة من الثمانية داخل حجرة الملك واثنين على الباب المتوسط بين الحجرتين والاثنين الباقيين على باب الحجرة الأولى التى جلسوا فيها للمقامرة

وأثلج صدورهم أن يروا الملك نائماً بملابسه كاملة وحذائه الطويل ، ولمحوا علائم الابتهاج الخفيف تبدو على محياه النبيل حين رآهم

وبعد أن بدأ اللعب بقليل ، وقد تحروا أن يكسب جروسلو معظم الأدوار ، سمع فى الخارج مع دقات الساعة العاشرة صوت نوبة الطواف لتبديل الحرس والتمام ، فسأل دارتانيان بلهجة من يسأل سؤالا عارضاً : « كم من الوقت يمضى بين النوبة والنوبة ؟ »

— ساعتان فقط

فتبادل دارتانيان الاشارة بركبته مع بورتوس وأراميس اللذين كانا إلى جانبيه ، أما آتوس فغمز له باحدى عينيه ، وكانت العلامة المتفق عليها أن يصيح دارتانيان بكلمة (أخيراً)

وكانت حماسة اللعب قد لفتت أنظار الحراس فخرجوا من حجرة الملك وتركوا مواضعهم ووقفوا حول المائدة يتفرجون باهتمام . فأظهر دارتانيان بعض التذمر من محالفة الحظ للضابط الانجليزى ، وقال وهو يخرج من جيبه عشرين ريالا :

— لنلعب دوراً أخيراً ، بهذه العشرين ريالا

فقبل جروسلو ، ودارت الأوراق فاذا دارتانيان يربح فى هذه المرة ، فصاح : « أخيرا ! »

فنهض آتوس وأراميس وتراجع بورتوس إلى الوراء خطوة وأوشكت السيوف والخناجر أن تخرج من أغمادها لتتم المذبحة ويفلتوا بالملك من الأسر ، وفى هذه اللحظة بالضبط فتح الباب الخارجى فجأة وبدا على عتبته الكولونيل هاريسون بنفسه وإلى جواره رجل ملتف بعباءة فضفاضة ومن خلفه ستة جنود مسلحين بالبنادق . فنهض جروسلو مرتبكا من منظر زجاجات الخمر والورق وما فى ذلك من اهمال فى أداء الواجب . بيد أن هاريسون لم يلتفت الى شىء من ذلك بل اتجه تواً مع مرافقه إلى حجرة الملك ، مخاطبه قائلا :

— شارل ستيوارت . لقد وصل الآن الأمر من لندن أن تحمل إلى هناك بغير توقف ليلا أو نهاراً ، فاستعد للسفر في هذه اللحظة . وهـذا هو السيد موردانت يحمل بنفسه رسالة الجنرال كرومويل التي عهد اليه بتنفيذها بنفسه

فتناقل الفرسان الأربعة النظرات ، ثم انتهز دارتانيان فرصـة الارتباك وجمع في جيبه الواسع كل ما كان على المائدة من النقود التي كان قد خسرها هو وبورتوس ، وهم الأربعة بمغادرة البيت ، لولا أن موردانت التفت ورآهم فصاح :

— يا كولونيل هاريسون ، مر بمحاصرة هؤلاء الفرنسيين الأربعة ، فقـد هربوا من نيوكاسل ولا شك أن نيتهم متجهة لتخليص الملك

فامتشق دارتانيان حسامه وزعق فيه زعقة عظيمة قائلا :

— أيها الشاب : هذه أوامر اصدارها أسهل كثيراً من تنفيذها . أيها الرفاق . انسحاب !

ثم دار بسيفه فرسم به نصف دائرة بحيث تراجع جميع العساكر مبهوتين بعيداً عن متناول هـذا السيف ، وكان الباب خلفهم فتسللوا منه وقفزوا إلى ظهور الجياد ، وتبعتهم بضع طلقات نارية خائبة ، ولـكنهم كانوا يسابقون الريح إلى خارج منطقة الخطر ، ثم اختفوا تحت قنطرة ريثما مر المطاردون ، فخرجوا وسلكوا طريقا مضاداً



اعدام الملك شارل

وفى الطريق إلى لندن زاد تصميم الفرسان الأربعة على تكرار المحاولة لانقاذ الملك البائس من مصيره المشئوم ، وأن يبذلوا الجهد كذلك لتصفية الحساب مع موردانت . فلما دخلوا المدينة الكبيرة اتجهوا إلى الفندق الذى كان دارتانيان وبورتوس قد نزلا به عند حضورهما من فرنسا مع موردانت، وهناك بدلوا ملابسهم وارتدوا ثياب التجار الانجليز ، ثم قصوا شعورهم الطويلة ليبدوا فى صورة المتطهرين الانجليز (البيوريتان) ، ثم أسرعوا ليشاهدوا موكب دخول الملك إلى العاصمة . فوجدوا أنه قد سبقهم الى دخولها بساعات

ثم طاف المنادون فى اليوم التالى يعلنون على الملأ أن البرلمان قد حاكم شارل ستيوارت بتهمة سوء استغلال النفوذ والعبث بالسلطة ، وحكم عليه بالاعدام

وكان الملك محبوساً فى الهوايت هول ، معتمداً برأسه على ذراعه ، يتفرس فى صورتين لامرأته وابنته ، فى انتظار وصول الأسقف جاكسون . وقد وقف بالقرب من الملك وصيفه الخاص بارى الذى لم يكف من البكاء منذ صدور ذلك الحكم الجائر . وكان الليل قد خيم ولا يبدد ظلام الحجرة إلا شمعتين . ثم سمعت فى الدهليز الخارجى خطوات ، وفتح الباب على ضوء مشاعل يتصاعد منها الدخان ليدخل كاهن مهيب عليه شارات الأسقفية ، يتبعه حارسان ، فأشار شارل بيده إلى الحارسين فتركا الحجرة بمشعليهما فعادت إلى عتمتها الأولى ثم صاح الملك : « جاكسون ! شكراً لك يا صديق الأخير ، فقد وصلت فى الوقت المناسب »

فألقى الكاهن نظرة ارتياب على ذلك الرجل الذى وقف يبكى فى الركن ، فقال الملك :

— لا تبك يابارى ، فقد جاءتنا نعمة الرب وتعزية السماء

فقال الأسقف :

— إذا كان هذا هو بارى ، فلا خوف من جهته ويحق لى الآن أن أصرح لجلالتكم بحقيقة شخصى والغرض من حضورى

فتنبه الملك ، وأوشك أن يصيح من فرط الدهشة ، لولا أن وضع أراميس سبابته على شفتيه وانحنى طويلا لتحية الملك الذى قال :

— أهذا أنت يا شيفالييه دربلاى ؟

— أجل يا مولاى أنا هو الأسقف جاكسون فارس الكنيسة المخلص وقد حضرت لخدمة جلالتكم روحياً

— ولكن هل تعلم يا صديق أنه ليس أمامكم دقيقة واحدة تضيعونها إذا كنتم مصممين على النجاح ، فوعد التنفيذ هو الساعة العاشرة من صباح الغد ؟

— اعلم هذا يا مولاي ، ولكن سيحدث فى هذه الأثناء ما يجعل التنفيذ مستحيلا

وفى هذه اللحظة حدثت ضجة شديدة تحت نافذة الملك ، فقال : « أتسمع ؟ »

— مولاى ، فى وسعهم أن يشيدوا منصة الاعدام ، ولكنهم لن يستطيعوا تنفيذه . ففى هذه الساعة يا مولاى قد تم اختطاف جلاد لندن بالاتفاق معه نظير رشوة كبيرة ، ولن يجدوا له أثراً هو أو مساعده ساعة التنفيذ ، فيضطروا الى التأجيل إلى بعد غد ، وغداً مساء سنقوم باختطاف جلالتكم

— مرحى ! ولكن خبرنى كيف سيكون ذلك حتى أساعدكم بقدر طاقتى ؟

— لا علم لى بالتفاصيل يا مولاى ، ولكن كل ما أعلمه أن أذكانا فؤاداً وأثبتنا جناناً وأشجعنا روحاً قال لى : « أبلغ جلالة الملك يا شيفاليه أننا سنختطف جلالته غداً فى الساعة السادسة » ، وإذا قال دارتانيان فعل



وأسرع أراميس فى عربة الأسقفية الى دار الأسقف جاكسون فطمأنه بنجاح الحيلة ، ثم اتفق معه على أن يرتدى ثياب الكاهن المساعد عندما يزور الأسقف الحقيق الملك لتلق اعترافه الأخير غداً صباحاً

وكان آتوس من جهته قد اتفق مع ربان سفينة شراعية صغيرة يسيرها أربعة بحارة على أن تظل يومين وليلتين فى انتظارهم عند جرينتش للابحار بهم وبالملك إلى فرنسا خلسة . واسم هذه السفينة « البرق » ، والعلامة المتفق عليها منديل معقود من أطرافه الأربعة

أما دارتانيان فتمكن من اغواء الجلاد ومساعده ، وحبسهما تحت كهف المنزل تحت حراسة موسكيتن المسلحة . واستخرج منه ورقة بتوكيل حاملها بدل مساعد الجلاد فى تنسيق منصة الاعدام ، لأن المساعد الأصلى أصيب بشرخ فى عظمة الساق

وعلى هذا صحت النية على أن يقوم آتوس بدور مساعد الجلاد ، وأن يقوم الزملاء الثلاثة بدور العمال ، وبذلك يتسنى لهم اعداد الخطة اللازمة لتهريب الملك وتنفيذها



وقرب منتصف الليل سمع شارل ضجة عظيمة تحت نافذته ودقات متوالية بالمطارق وأصوات مناشير ، الأمر الذى أزعجه كثيراً ، فأرسل وصيفه الخاص بارى إلى الديدبان

كى يتوجه بالرجاء إلى العمال أن يقللوا من ضجتهم أثناء العمل رأفة بالرجل الذى كان ملكهم ربع قرن ويقضى الآن تحت رحمتهم ليلته الأخيرة

ولم يقبل الديدبان أن يغادر مكان حراسته ، بيد أنه سمح لبارى بالمرور للتفاهم مع العمال من الغرفة ذات القضبان الحديدية . فقال لهم :

— أيها الرفاق ، هل لكم فى التزام بعض الهدوء أثناء العمل ؟ فإن الملك فى حاجة إلى نصيب من النعاس فى هذه الليلة الأخيرة

فرفع رئيس العمال ، معاون الجلاد المزعوم آتوس رأسه وقال :

— قل للملك إنه إذا لم يستطع النوم هذه الليلة ، فسينام نوماً عميقاً فى الليلة الآتية !

فضج جميع العمال بالضحك لهذا التهكم ، أما بارى فانسحب وهو يحسب نفسه فى حلم ، لأنه عرف فى العمال الأربعة الفرسان الأربعة . وكان فرح الملك عظيما بهذا النبأ ، ولاسيما بعد أن أنبأه بارى بأنه لاحظ أن آتوس يثقب الجدار من أسفل الحجرة ، بعد أن أقام المنصة من طابقين ، وقد غطيت واجهتها بستارة كبيرة تخفى ما يحدث فى الطابق الأوسط من المنصة ، حيث يعمل آتوس وزملاؤه بمهارة عظيمة ونشاط

وكان الثقب فى الواقع يوصل إلى طابق مسحور غير مستعمل تحت الغرفة ، وكان على بورتوس العملاق أن يجتهد فى رفع جزء من أرض الغرفة ، لكى يتمكن الملك من المرور منه ، حيث يلبسونه بدلة أحد العمال ، ثم ينزل كأنه واحد منهم من الطابق الأوسط لمنصة الاعدام دون أن تلتفت إليه الأنظار ، ومن هناك يسرعون إلى السفينة التى تنتظرهم فى جرينتش

وعند انبثاق أولى أشعة الصباح كان الثقب قد تم العمل فيه ، فدخل من خلاله آتوس ومعه ملابس الملك التنكرية ، ثم قام بورتوس بتغطية الثقب بستارة تخفيه عن الأنظار . وبقى أمام آتوس ساعتان من العمل المتواصل لرفع جزء من أرضية غرفة الملك الخشبية . وكان مطمئناً لاتساع الوقت اعتماداً على أن التنفيذ سيؤجل يوماً لاختطاف الجلاد

أما أراميس فتوجه منذ الصباح إلى دار الأسقف جاكسون واستعد للذهاب معه بصفته مساعداً كهنوتيا لتلقى اعتراف الملك الأخير فى هوايت هول

ووجدا الملك عند وصولهما فى حالة معنوية عالية ، وتعمد الأسقف الحقيقى جاكسون أن يتكلم بصوت مرتفع عن مقابلته للملك بالأمس ، نفيا للشبهة عن أراميس ، وراح الملك يجيب بأن حديث سيادة الأسقف فى اليوم السابق ملأ روحه اطمئنانا وبدد أحزانه . ثم طلب من الحراس الانصراف لأنه يريد الادلاء باعترافه ، فلما خرجوا وأقفل الباب شرح أراميس للملك بسرعة الخطة المرسومة . وكيف أنه لا يوجد جلاد فى أقرب مدينة من لندن إلا فى بريستول ، وأن إحضاره من هناك يستغرق يوما كاملا على الأقل ، ثم طلب

إلى الملك أن ينقر أرض الغرفة بحديدة المدفأة ثلاث مرات ، ففعل الملك ، وإذا به يتلقى رد آتوس من أسفل . ثم ناول أراميس الملك خنجراً ، فأعطاه لبارى كى يساعد آتوس عند اللزوم فى رفع جزء من أرض الغرفة بإزاحة الأتربة المتراكمة بين الألواح الخشبية

وفيما هم آخذون فى ذلك الحديث مطمئنين ، سمعت أصوات أقدام ثقيلة منتظمة تصعد السلم وتقترب من باب الغرفة فتطرقه بشدة . وفتح الباب فظهر صفان من الجنود فى الدهليز ثم دخل مندوب البرلمان فبسط أمامه ورقة وتلا على الملك حكم الاعدام ، كما هو متبع فى ساعة التنفيذ . وتبادل الأسقف وأراميس نظرات الاستغراب ، وقال الملك فى دهشة :

— اليوم إذن هو الموعد ؟

— ألم تكن تعلم ذلك يامولاى ؟

— وهل ينفذ الحكم فى كما ينفذ فى المجرمين العاديين ، بيد جلاد لندن ؟

— لقد اختفى جلاد لندن يامولاى ولم نعثر له على أثر ، ولكن تقدم ليقوم مقامه رجل خبير بالموضوع ، وعلى هذا لن يتأخر التنفيذ إلا ريثما تتمون واجباتكم الدينية ، وتنالون آخر طلباتكم الدنيوية

وكانت بضع قطرات من العرق على جبين الملك هى كل ماظهر عليه من علامات التأثر أما أراميس فاكفهر وجهه وكاد يكف قلبه عن الخفقان . ولاحظ الملك اضطرابه فجعل يسرى عنه ، ثم التفت إلى مندوب البرلمان وقال :

— انى على أتم استعداد ، ولا أطلب إلا شيئين لايستغرقان كثيراً من الوقت فيما أعتقد : أولا أن أعترف وأتناول الأسرار المقدسة ، وثانياً أن أقبل ابنى وابنتى وأودعهما الوداع الأخير

— حباً وكرامة يامولاى

وكان منظر الوداع أليما ، حتى لقد اضطر الأسقف جاكسون إلى انتزاع الطفلين من أحضان والدهما انتزاعا فأسلمهما إلى القائمين على شئونهما ، ثم فتح الباب على مصراعيه ليدخله جمع كبير من الحراس

وتذكر الملك أن الكونت دى لافير (آتوس) يربض تحت قدميه فى انتظار الاشارة وخشى أن تحدث من الكونت أى حركة تدل على وجوده هناك ، لهذا سكن سكونا تاما

والواقع أن آتوس كان يرصد الحركات ، فلما سمع فوق رأسه صوت كل هذه الأقدام . انتفض رعباً ، وأطل من ستارة المنصة فرأى الميدان مزدحماً بجنود وفرسان من ورائهم جمع غفير من الشعب ، ولمح دارتانيان فى الصفوف الأولى ، وقد تعلقت جميع الانظار بالمنصة ، فخطر بباله أن الجلاد أفلت من حراسة دارتانيان ، وتأكد لديه هذا الخاطر حين سمع دقات

الطبول فى الميدان تعزف عزفا جنائزيا ، ثم سمع فوق رأسه ، فى الطابق العلوى من المنصة وقع أقدام كثيرة جداً تسير ببطء حتى لقد تقعرت الألواح الخشبية تحت هذا الثقل الهائل

وساد الصمت فى الميدان ، وتعلقت جميع الأنظار بنافذة البنـاء ، ثم سمع صوتا يعرفه جيداً ، هو صوت الملك يخاطب قائد الحراس :

— أريد أيها الكولونيل أن أتحدث إلى الشعب !

فنضح العرق على جبين آتوس ، ثم رأى رجلا ربعة القوام على وجهه قناع أسود تبدو منه شعرات لحية مدببة وخطها الشيب يتقدم فى صمت وفى يده بلطة الاعدام ، حتى إذا بلغ النطع المنصوب فوق المنصة ألقى بالبلطة إلى جواره . ثم تقدم نحو النطع ذلك الملك المنكود يسير بين رجلين من رجال الدين ومن خلفهم الضباط المكلفون بالاشراف على التنفيذ

وسرت بين الناس همهمة عالية عندما رأوا ذلك الرجل المقنع ، فقد اشتاق كل منهم أن يعرف من هو ذلك الشخص الغريب الذى تقدم فجأة ليقوم بدور الجلاد . ولـكن الانتباه لم يلبث أن تحول من الرجل المقنع إلى الملك نفسه ، لما تميز به من هدوء فى مواجهة الموت ، وقد أتاح ذلك الصمت والانتباه أن يسمع الجميع فى الميدان صـوته الثابت النبرات وهو يطلب أن يتحدث إلى الشعب الذى ظل ملـكا عليه ربع قرن من الزمان

وأجاب الكولونيل رغبة الملك بإيماءة من رأسه ، فراح الملك يتحدث الى الشعب فى هدوء مفسراً له مسلكه ، ومبيناً له مصالح بريطانيا العليا مطالباً الشعب بالحرص على تلك المصالح مهما كانت الأحوال . ثم سمعت حركة خفيفة تصدر عن احتكاك البلطة بالنطع ، وقد راح الجلاد يديرها بين أصابعه ، فقطع الملك خطبته الهادئة ونظر إلى الرجل المقنع وقال : « دع البلطة ولا تلمسها بيدك »

ثم استأنف الحديث من حيث قطعه بكل هدوء كأن شيئاً لم يحدث ، حتى أتمه ، وعندئذ أجال فى الجمهور المحتشد نظرة ثابتة وادعة ، ثم نزع الوشاح الذى كان يزين به صدره فأعطاه إلى مساعد الأسقف (أراميس) ، ثم أخرج من صدره صليباً من الماس كان هدية من زوجته شأنه شأن الوشاح المرصع ثم قال لذلك الكاهن أيضاً :

— سأبقى هذا الصليب فى يدى حتى اللحظة الأخيرة ، وعليك أن تأخذه منها بعد أن أموت

وبعد ذلك نزع قبعته فألقاها جانباً ، ثم راح بأصابع ثابتة يفك أزرار صداره واحداً واحداً ، ثم خلعه وألقاه إلى جانب القبعة وبقى بالقميص وحده . ولما كان الجو بارداً ، وهو لا يريد أن يرتعد فى لحظاته الأخيرة رعدة قد تؤول على أنها رعدة الخوف ، فقد طلب رداء الحجرة (الروب دى شامبر) فارتداه فوق القميص . ثم جمع شعره بين يديه ورفعه إلى أعلى وقال للجلاد :

— أتعتقد أن في وسعك أن تفصل رأسي بضربة واحدة ؟

— أرجو هذا

— هذا حسن . والآن اسمع أيها الجلاد !

فتقدم الجلاد منه خطوة واعتمد على بلطته ، واستطرد الملك :

— لا أريد أن تفاجئني ، فإني سأركع وأصلي . فلا تضرب وأنا أصلي

— ومتى أضرب إذن ؟

— عندما أضع عنقي فوق النطع وأمد ذراعي قائلا : « تذكر » ، حينئذ اضرب بعزم وقوة

فأومأ الرجل المقنع برأسه موافقاً ، ونظر الملك إلى أراميس نظرة خاصة ، ثم قال :

— والآن ابتعدوا جميعاً ودعوني أتلو صلاتي . وابتعد أنت أيضاً أيها الجلاد ، فلن أستمهلك إلا لحظة قصيرة ، فإني أعلم أنني لك ، ولكن إياك أن تضرب إلا عندما أقول: « تذكر »

وركع الملك شارل فرسم علامة الصليب وقرب فمه من فرجة بين ألواح أرض المنصة وقد وضع إحدى راحتيه على الأرض والأخرى فوق النطع وقال :

— كونت دي لافير . هل أنت هناك ؟ هل أستطيع أن أتكلم ؟

— أجل يا صاحب الجلالة

— أيها الصديق المخلص الكريم . لقد أراد الله ألا أنجو . وقد أضعت عرش آبائي وميراث أولادي في الدفاع عن قضية آمنت بقدسيتها . وهناك مليون من الجنيهات الذهبية مدفون في كهوف قلعة نيوكاسل ، ولا يعرف موضعه أحد غيرك ، فأقم نفسك على التصرف في هـذا المال في الوقت الذي تراه مناسباً لمصلحة ابني الأكبر . والآن وداعا يا كونت دي لافير

— وداعا أيها الملك القديس الشهيد

وساد الصمت لحظة ، خيل لآتوس فيها أن الملك غير وضعه ، ثم سمع بعد ذلك صوتا رنانا واضحا طرق جميع الأسماع في الميدان ، صوت الملك يصيح :

— تذكر . . !

وهكذا ظل شارل ملكا حتى النهاية ، وكان هو الذي ألقى أمر إعدامه



الرجل المقنع

اجتمع الرفاق الأربعة بعيد ذلك المنظر المشهود ، وأخرج أراميس من جيبه الوشاح المرصع والصليب الماسي الذى أوصى الملك أن يوصلهما إلى زوجته الملكة فى فرنسا ، وأخرج آتوس حينئذ منديلا كان قد مسح به دم الملك الذى تساقط فوق جبينه وهو كامن أسفل مكان التنفيذ وقال :

— وهاك منديلا تضعهما فيه . وانى لأتساءل ماذا سيصنعون بجثته

فقال له أراميس :

— لقد أمر كرومويل أن يؤدى لجثمان الملك كل أنواع التكريم الواجبة فى مراسم دفن الملوك . ومالى أراك ساكتا يادارتانيان ؟ لقد حم القضاء ونفذ السهم ، ولكن كيف بالله استطاع هذا الجلاد أن يفلت من بين يديك ؟

— انه لم يفلت

وقام فصاح بموسكيتن فى كهف المنزل وهو يلق اليه بالمفتاح :

— أطلق سراح السجين . فقد فات الوقت . لم يكن ذلك الجلاد جلاد السجين

فضحك أراميس وقال :

— أعرف هذا ، وانما أردت دفعك إلى الكلام فهذا الجلاد ياصديق آتوس ليس جلاد لندن ، بل رجل تطوع للقيام بمهمة الجلاد . رجل مقنع لا نعرف من هو

فصاح دارتانيان :

— واجبنا إذن مادمنا فى انجلترا هو البحث عن ذلك الرجل المقنع والاقتصاص منه

— لقد كان ربعة القوام ذا لحية وخطها الشيب

— ان من يتنكر فى زى جلاد يستطيع أن يتخذ لحية مستعارة

— كم أنا نادم لأنى لم أتعقب خطواته

فقال دارتانيان :

— أما أنا فقد تنبهت لذلك وأنا فى الميدان ، وكلفت جريمو بتعقب خطواته معى ، فلما وصل الرجل المقنع إلى بيت منعزل ، أقمت جريمو عند الباب ليراقبه ، وعثرنا ونحن نتعقب

الرجل المقنع بالأسكتلندى الجريح شقيق بارى وصيف الملك فتركته للمراقبة أيضا ، وجعلت موقعه عند باب الدار الخلفى

وعندئذ قام الجميع فعانقوا دارتانيان ، لأنهم أدركوا ان عدم مهاجمته الرجل المقنع كان لأنه لم يرد أن يستأثر بذلك الشرف وحده ، ثم صاح أراميس :

— سيوفكم أيها الاخوان . سيوفكم ! ولا نضيعن دقيقة واحدة

ولما وصلوا إلى البيت المعهود سألوا جريمو فقال :

— لم يخرج من البيت أحد ، وإن كان قد دخله منذ قليل رجل متوسط القامة ممتلىء الجسم

فقال أراميس :

— ربما كان فى المنزل رجال آخرون من قبل

فما كان من جريمو إلا أن تسلق الجدار ونظر من خلال مصراع النافذة الخشبى ، ثم نزل وقال :

— رأيت رجلين ، أحدهما هو الجنرال كرومويل ، أما الآخر فكان شاباً حليقاً ، هو الجلاد ولا شك ، الذى كان مقنعاً ساعة التنفيذ ، وهو الشخص نفسه الذى تعقبناه بملابسه نفسها ، ولكنه الآن بغير لحية . وقد عرفناه من قبل باسم السيد موردانت



وليس من شأننا ماجرى بين الرجلين من حديث ، ولكن من شأننا أن نعرف أنهما حين انتهى الحديث قرر كرومويل أن يخرج من سرداب خفى يمر تحت الشارع الى بيته ، ولذلك السرداب باب فى الحائط مسحور لاينفتح إلا بضغط خاص . وترك موردانت كى يخرج من الباب العمومى ، كى يتوجه فى مهمة كلفه بها كرومويل سيتضح لنا خبرها بعد حين

وفى هذه الأثناء كان الفرسان الأربعة قد قرروا مهاجمة الرجلين ، وكلفوا جريمو بالتسلق مرة أخرى ليرى وضعهما الحقيق ، فإذا به لايرى إلا موردانت وحده ، ورآه يرتدى معطفه وقفازيه استعداداً للخروج

فلما انبأ سادته بهذا قرر دارتانيان أن يقف آتوس وأراميس على جانبي الباب ، حتى إذا فتح الباب صفقا فيهجم الجميع عليه ويقبضون عليه حياً لتصفية الحساب . وبعد قليل سمعوه يهبط السلم ، ثم يفتح الباب بالمفتاح ، ثم يمر فى الدهليز دون أن يرى شيئاً ، وإذا به يجد نفسه وجهاً لوجه أمام دارتانيان ، بينما صفق بورتوس بيديه فخرج آتوس وأراميس من مكمنهما

وكانت المفاجأة تامة لموردانت ، فلم يصرخ ، وخضع للاوامر فصعد السلم بقاهره ومن ورائه الفرسان الأربعة . ولم يفكر فى إطلاق الرصاص ، لأن قتل أحدهم لن ينجيه من القتل بيد الثلاثة الآخرين . فلما دخلوا قاعة الجلوس أمروه أن يجلس وسطهم ، لأن الحساب بينهم وبينه سيستغرق بعض الوقت

وافتتح دارتانيان الحديث بسخريته قائلا :

— أراك أيها السيد تبدل الثياب والمظاهر كما يبدلها الممثلون في المهارج الايطالية ، فمنذ قليل شهدناك في ثياب القاتل ، وها نحن نراك الآن ..

— في زي الرجل الذي يوشك أن ينفذ فيه القتل . أليس ذلك ما تريد أن تقوله ؟

— على رسلك ياسيدي . كيف طاوعك قلبك أن تخطر لك مثل هذه الخواطر وأنت في صحبة مختارة من أهل الشرف ، وفي جانبك سيف مثل سيوف الرجال ؟

— وهل هناك سيف يا سيدي كفء لأربعة سيوف وأربعة خناجر ؟

— لا تحسبنا ياسيدي قتلة ، وإذا كنت تشير إلى حادثة قديمة ، فاعلم أنه لم يكن في وسعنا أن نعطي السيدة الوالدة سيفاً وندعوها للمبارزة فرداً فرداً . أما أنت يا سيدي فالحال معك مختلف كل الاختلاف ، وقد شهدناك تدير السيف والخنجر والمسدس في يدك بمهارة نحسد عليها ، ثم رأيناك صدر هذا النهار تجيد أيضاً استعمال بلطة الاعدام ، فكل منا لا يستنكف عن ملاقاتك ملاقاة ند لند . فماذا تقول ؟

— هي المبارزة إذن ما تريدون ؟

ثم نهض وقد لمعت عيناه كمن يريد أن يجيب التحدي فوراً ، فنهض بورتوس أيضـاً وعندئذ تقدم منه دارتانيان لينازع بورتوس شرف المبارزة ، واستل سيفه بعد أن هدأ ثائرة بورتوس وقال لموردانت وهو ينحني أمامه حسب الأصول : « إني في انتظارك ياسيدي »

— وأنا أعجب لكم أيها السادة . فإني أراكم تتنافسون في أيكم يبارزني أولا ، ولا تفكرون في أخذ رأيي شخصيا في ذلك . وإني أطالب بأن يكون لي حق اختيار من ينازلني ابتداء . فإذا أبيتم على ذلك الحق فاقتلوني لأني لن أبارز

فوافق بورتوس وأراميس بقوة ، على رجاء أن يقع الاختيار على أحدهما ، أما آتوس ودارتانيان فلم ينطقا ، وإن كان صمتهما يحمل معنى الاذعان ، فوقف موردانت في وسطهم وقال إنه يختار لمبارزته الكونت دي لافير . فقفز آتوس من مكانه كالملدوغ ثم جمد في وقفته لحظة وهز رأسه قائلا :

— إن أي مبارزة فيما بيننا مستحيلة ، فأنا أترك لسواي هذا الشرف

— هذا أول واحد قعد به الخوف

فهاج دارتانيان لهذه الكلمة وهم أن يبطش بالشاب غضباً لكرامة آتوس ، لولا أن آتوس نفسه هدأ ثائرته في ازدراء هادئ لكل ما يقوله موردانت . فقال دارتانيان :

— إن الكونت دي لافير لا يريد أن يضفي عليك شرف مبارزتك . فتخير من بيننا من يحل محله

— يستوى عندى من يبارزنى منكم ما دام ليس هو ، فاقترعوا

واقترعوا فخرجت القرعة تحمل اسم دارتانيان

ونشبت المبارزة ودارتانيان يحسب أنه سيقتل الفتى فى جولة أو جولتين ، ولكن المبارزة طالت ، وكلما استعمل دارتانيان فناً من الفنون التى يحسبها خافية على ذلك الشاب ، وجده يعرفه ويحتاط له . ونمت صلابته على قوة وجلد رغم نحافته ، فاتجهت اليه أنظار الفرسان الثلاثة بالاهتمام والاعجاب . وبعد عدة جولات وجد الشاب نفسه وقد صار ظهره إلى الحائط ، فاعتمد على الحائط بيده اليسرى وراح يدافع عن نفسه بيده اليمنى ، فتعلقت الأنفاس لأنهم توقعوا أن تكون تلك بداية الهزيمة لصعوبة التراجع والتخلص من المأزق إلا بهجوم مضاد يكاد يكون مستحيلا أمام دارتانيان

ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان ، فقد انشق الحائط عند الموضع الذى وضع عليه الشاب يده فاختفى الشاب بداخل الحائط ثم عاد الحائط سيرته الأولى ، وقد انكسر سن سيف دارتانيان فى داخله . فصاح أراميس كالمذهول : « لقد هرب منا الملعون ! »

أما آتوس فهز رأسه ولم يتكلم ولكن بدت عليه علائم الارتياح . وتنبه بورتوس إلى جانب الخطورة فى الموضوع ، لأن الشاب ولا شك سيسرع بالاستنجاد بفرقة كاملة من جيش كرومويل لمحاصرة البيت ، وهكذا أسرعوا جميعاً بالخروج من البيت وركبوا جيادهم وأطلقوا لها الأعنة طالبين النجاة



السفينة « البرق »

لقد أصابو حين اعتقدوا أن موردانت لن يضيع وقته في الاحاطة بهم والقبض عليهم . ولكنهم لم يصيبوا حين ظنوه سيعود اليهم في البيت بخيله ورجله . كلا . بل هو قد ذهب إلى أقرب ثكنة فامتطى أقوى جواد وأسرع ينهب الأرض فبلغ جرينتش فيما لا يزيد على ربع الساعة . ثم راح يحدق في عتمة المساء باحثاً بين أسماء السفن الراسية عن كلة (البرق) . وكان هناك رجل بين حراس الميناء يجثم منتبهاً لكل حركة ، فلما رأى صاحبنا يبحث بين السفن وقف ، ولكنه لم يتحرك من مكانه ، فاتجه نحوه موردانت وأخرج له من جيبه منديلا معقوداً من أطرافه الأربعة . وهي كما يذكر القارىء العلامة المتفق عليها بين آتوس وربان السفينة البرق ليهرب فيها الفرسان إلى فرنسا ويهربوا معهم الملك اذا قدرت له النجاة

وأخرج البحار من جيبه منديلا معقوداً على نفس الطريقة وقدمه إلى موردانت ، وبهذا تم التعارف ، فنزل موردانت عن حصانه وأمر بارساله إلى أقرب خان . ثم قال للبحار :

— والآن اذهب إلى السفينة

فضحك البحار ورفع طاقيته عن رأسه وقال لموردانت :

— ألم تعرفني يا كابتن موردانت ؟

— الكابتن جروسلو !

— بلحمه ودمه ، فقد تذكر الجنرال كرومويل انني كنت في أول حياتي ضابطا في البحرية فكلفني بهذه المهمة السرية ، لأن ربان الباخرة الأصلي الذي اتفق معه الخونة اتصل بالقائد العام ، وهكذا تم الاتفاق على أن أحل محله ويحل أربعة من الجنود محل البحارة ، ونشحن المركب ببراميل من البارود بدلا من براميل نبيذ البرتغال

— ولكن ألا تخشى أن يتعرفوا عليك وهم من خلطائك القدماء ؟

— لاخطر من ذلك في هذا الليل البهيم ، وأنا في هذا الزى . بدليل انك أنت لم تعرفني لأول وهلة ، ولولا أن كشفت لك عن حقيقتي لما عرفتني

— وهل أوسقتم حمولة المركب ؟

— أجل . خمسة براميل ملآنة بالبضاعة ، وخمسون فارغا ، ووجهة الشحنة آنفرس
— هذا جميل ، والآن هيا بنا لتضعني في مخبئي بالسفينة ، ثم تعود ثانية لتستقبلهم
وفي السفينة اختبأ موردانت تحت سرير الربان في غرفته الخاصة بعيداً عن غرفة الركاب .
وأوصى جروسلو أن يربط في مؤخرة السفينة قاربا للنجاة يصله بها حبل طويل . وأن يضع في هذا القارب مقداراً كافياً من الروم والبسكويت

وما أن رجع جروسلو إلى البر حتى سمع وقع حوافر الجياد ، ثم تم التعارف عن طريق المنديل المعقود الأطراف ، ولكن آتوس اكتشف أن هذا الشخص ليس هو الربان الذي اتفق معه ، فقال له :

— انه ابن عمي ، وقد سقط هذا الصباح من أعلى صاري الشراع الكبير فكسرت ساقه ، وقد روى لي المسألة كلها وكلفني أن أقوم بدلا عنه بالمطلوب

وتشاور الفرسان الأربعة في هذا الكلام ، وقر قرارهم على تصديقه ، ولا سيما أنه إذا اتضح كذبه أو خيانته ففي الوسع قتله بسهولة ، وفي هذه اللحظة يتولى آتوس قيادة السفينة لأنه قضى صدر خدمته في البحرية

وأقلعت السفينة ، وجلسوا جميعاً يحتسون النبيذ ويتناولون العشاء ، ثم استسلموا للنعاس ، وتركوا الخدم في الدهليز الخارجي اللاصق للمخزن الذي فيه البراميل ، كي يتناولوا عشاءهم وينظفوا الأحذية ، ويلمعوا السيوف ، ثم يناموا بعد ذلك



استغرق السادة في النوم ، أما الخدم فلم يستطيعوا أن يناموا ، لأنهم لم يصيبوا شيئا من النبيذ ، ولا سيما السيد موسكيتن الذي تعود الترف في خدمة مولاه الثرى بورتوس .
وكان جريمو قد طاف مع دارتانيان بأجزاء السفينة وأخبره أنها محملة بالنبيذ البرتغالي الفاخر .
وكانت مع جريمو دائما أدوات لا غنى عنها ، من بينها المنشار والكماشة والمفك ، وهي الأدوات التي استعملها الفرسان حين تنكروا في ثياب العمال لاقامة منصة إعدام الملك شارل .
وراح جريمو ينزع المسامير في هدوء ، ثم تسلل في الظلام إلى القبو ، وغاب بضع دقائق لم يلبث أن عاد بعدها ، وقد اكفهر وجهه ، وفي يده الاناء مملوءاً بشيء لا يمت إلى النبيذ بصلة ، سواء أكان هذا النبيذ برتغاليا أو غير برتغالي . لقد كان الابريق مملوءاً بالبارود ، الأمر الذي ذعر له بقية الخدم ، ورأوا جريمو يثب وثبا إلى باب حجرة السادة فيطرقه طرقاً خفيفا أيقظ دارتانيان ، ثم مال فوق أذنه وهمس اليه بما حدث بغاية السرعة
وما هذا الذي حدث !

لقد تسلل جريمو إلى داخل القبو الذي به البراميل وظل يبحث حتى وجد برميلا ملآنا ، وله صنبور ، فحمد الله واثنى عليه لوجود ذلك الصنبور إذ وفر عليه فتح البرميل من أعلى

أو تقبه بسرعة . وبعد أن ملأ الابريق من الصنبور أقفله بإحكام ، وهم أن يرفع الاناء إلى شفتيه ليتذوقه ، حين سمع وقع أقدام تقترب ، فاختفى وراء إحدى الدعامات ، ورأى الباب يفتح ويدخل منه رجلان يحمل أحدهما فانوسا محكما من فوانيس الأمان ، وهذا الرجل هو جروسلو أما الآخر فكان يحمل كرة من الفتيل وقد أخفى وجهه بقبعة . وقد سأل هذا الرجل الربان كم من الوقت يستغرق هذا الفتيل حتى يصل إلى البراميل ، فأجابه الربان انه يستغرق خمس دقائق . وقد خفق قلب جريمو عند سماع صوت الرجل الغريب ، لأنه عرف فيه صوت موردانت . ثم استأنف موردانت كلامه فقال :

— نبه على رجالك أن يكونوا على استعداد دون أن تذكر لهم الغرض من ذلك الاستعداد. وحين تعلن الساعة بدقاتها الثانية عشرة والربع بعد منتصف الليل عليك أن تجمع رجالك وتنزل معهم فى قارب النجاة

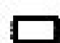
— بعد أن أشعل النار فى الفتيل ؟

— اترك هذه المهمة لى أنا ، فانى أريد أن أستيقن من انتقـامى . هل المجاذيف فى القارب أيضا ؟

— أجل

فركم موردانت وركب طرف حبل الفتيل داخل الصنبور الذى أخذ منه جريمو ماظنه نبيذاً برتغالياً ، بحيث لا يكون أمامه فى الموعد المحدد إلا أن يشعل الطرف الآخر للفتيل وينزل إلى قارب النجاة . فلما أتم تركيب الفتيل أخرج ساعته وقال :

— فى الثانية عشرة والربع تماماً ، أى بعد عشرين دقيقة بالضبط ، وحاذروا من إحداث أى صوت قد يوقظ الركاب ، عشرون دقيقة فقط



أصغى دارتانيان لهذه التفاصيل باهتمام زائد ، ولم يترك لجريمو فرصة إتمام بقية الحديث ، فأسرع يوقظ أصدقاءه ويحذرهم من إحداث أى صوت ، ثم أخبرهم بسرعة ان ربان السفينة الجديد ليس إلا الـكابتن جروسلو ، وأن مساعده هو موردانت ، فقرروا جميعاً أن يستولوا على قارب النجاة ما دامت السفينة ملغمة . وبالفعل قفزوا واحداً واحداً إلى البحر . فكلهم يحسنون السباحة ماعدا موسكيتن السمين ، فأجبره سيده بورتوس العملاق على النزول إلى البحر ، ثم عام وهو يجذبه معه حتى وصلوا جميعاً إلى قارب النجاة سالمين ، ولـكنهم للأسف وجدوا أنهم قد أفسدوا بارود مسدساتهم ، بيد أنهم لم يعفلوا بهذا ، وتولى آتوس قطع الحبل الذى يربطهم بالسفينة « البرق » بخنجره ذى المقبض الذهبى . ثم راحوا يجذفون بهمة ونشاط مبتعدين عن السفينة الملغومة

وفى هذه اللحظة شق صمت الليل فوق السفينة «البرق» صفير رفيع ، ثم تجمع البحارة على ظهرها ، وجذب جروسلو الحبل الذى يربط قارب النجاة فوجده سهلا لينا ، يجذبه فاذا به فارغ ، واستولى الذعر عليه فصرخ صرخة عظيمة ، وإذا بموردانت يقفز فى هذه اللحظة إلى سطح السفينة وفى يده شعلة ، يريد أن يلحق بقارب النجاة مع الباقين قبل فوات الوقت لانه كان قد أشعل الفتيل ، فصاح به جروسلو :

— لقد هرب أصحابنا فى قارب النجاة وقطعوا الحبل

فقفز موردانت إلى القمرة وفتح بابها بركلة من قدمه فألفاها فارغة ، فلم يعد إلى ظهر السفينة ، بل اختصر الطريق وقفز إلى اليم ، وفى هذه اللحظة حدث الانفجار فتلاشى كل من كان على السفينة من البحارة بقيادة جروسلو

ورأى الأصدقاء الأربعة من قاربهم هـذا المنظر ، ولكنهم حسبوا أن موردانت كان بين الهالكين ، فتنفسوا الصعداء لأنهم تخلصوا منه فى النهاية خلاصاً أبديا

ولم تلبث أن شقت الصمت حولهم نبرات صوت منتحب يقطع نياط القلوب :

— أدركونى . أغيثونى . الرحمة أيها السادة

وارتجف آتوس لرقة قلبه ، أما الآخرون فوجمـوا لأنهم عرفوا أن الصوت صوت موردانت ، وبعد لحظات رأوه يقترب منهم وهو يقـاوم الموج مستيئساً ، فمد آتوس يده مشيراً إليه ، بيد أن رفاقه لم يتحركوا ، فقال : « يا للمسكين »

فصاح به دارتانيان :

— أظنك تشفق عليه بعد الذي فعل معنا ؟ جدف يابورتوس لنبتعد عنه

فصرخ بورتوس مخاطباً موردانت وهو يجدف بكل قوة :

— أحسبك الآن قد وقعت ياصديق ولا منجاة لك . وليس أمامك باب قريب للخروج من هذا المأزق إلا أبواب الجحيم

فصاح آتوس مؤنباً : « بورتوس ! »

— دعنى يا آتوس ! فانك والله لتبدو سخيفاً خرعا بهـذا الكرم المضحك ! وانى أنذرك أنه إذا اقترب منا إلى أقل من عشرة أقدام ، لأفتحن رأسه بالمجداف !

— الرحمة ، لاتتركونى . ارحمونى . لقد تبت على يديكم . ارحموا شبابي فانا لم أتجاوز الثالثة والعشرين . اعذرونى فالأم غالية والانتقام لها شعور طبيعى

وفى هذه اللحظة غطت رأسه موجة كبيرة ، وانطلق صوته وهو يصرخ متحشرجاً

فصاح آتوس : « والله ان قلبي ليتمزق ! »

وصاح دارتانيان :

— ياقاتل عمه . ياجلاد الملك شارل . ياناسف السفن ، خير لك أن تغرق ويبتلعك اليم والا فانك اذا اقتربت حطمت رأسك بمجدافي

وفي هذه اللحظة بذل موردانت محاولة يائسة حتى اقترب من القارب ، فرفع دارتانيان مجدافه بين يديه ، وهم أن يهوى به فوق رأسه ، لولا أن نهض آتوس وصرخ وهو يمنعه بيديه :

— دارتانيان ياولدى العزيز . أرجوك ، فهذا المسكين سيموت لو تركناه ، ومن المخجل أن ندع انسانا يموت وفي وسعنا أن نمد له أيدينا

فاستل أراميس سيفه وقال : «اذا وضع هذا النجس يده على القارب قطعتها بلا رحمة»

أما بورتوس العملاق فنهض قائماً وقال : « انتظروا »

— ماذا ستفعل ؟

— سألقى بنفسى فى اليم فأخنقه ثم أعود

فقال آتوس والدمع يكاد يطفر من عينيه :

— انظروا ياإخوانى كيف يرتسم الموت على وجهه. ان قواه بدأت تخونه، ولو تركناه دقيقة أخرى لهلك . فلا تنزلوا شيبتى إلى القبر بهذه الحسرة الباقية إلى آخر أيام العمر ، فانه والله لندم الحياة وخزى الأبد ، فامنحونى حياة هذا المسكين أكن مدينا لكم مدى العمر

وفي هذه اللحظة صاح الغريق بصوت متحشرج :

— سيدى الكونت دى لافير .. انى أخاطب ضميرك أن ترحمنى . أين أنت ياسيدى الكونت دى لافير .. انى لا أراك ، الموت يغشى بصري

— هنا أنا ياسيدى . خذ هذه يدى تعلق بها

فأشاح دارتانيان بوجهه وهو يقول : « ان هذا الضعف يقززنى ولا أحب أن أراه »

وبذل موردانت مجهوداً جباراً كى يرفع نفسه ويتعلق بتلك اليد ويتشبث بها تشبثه بالأمل الأخير ، وقال له آتوس وهو يمنحه كتفه كى يتعلق به بيده الأخرى ، بحيث كادت رأسه تمس رأس موردانت : « ضع يدك هنا واصعد على جانب القارب »

فمد موردانت يده وتعلق بأصابعه بعنق آتوس ، ثم صاح والشرر يتطاير من عينيه فى لهجة تنم عن حقد لايوصف :

— أماه ! لا أستطيع أن أقدم لك إلا ضحية واحدة . ولكنها على الأقل هى تلك الضحية التى كنت تفضلينها لو كان لك الخيار !

وبينما وقف دارتانيان يصرخ ورفع بورتوس المجداف، وبحث أراميس عن موضع يضرب فيه اهتز القارب هزة عنيفة وسقط آتوس فى اليم ، وأطلق موردانت صيحة فرح وتحدى ،

وهو يشدد الضغط على قبضة فريسته كى يشل حركات يديه ورجليه وكل جسمه

وساد الصمت لحظة من جهـة آتوس ، فلم يصرخ ولم يستنجد ، بل حاول أن يحتفظ بتوازنه فوق سطح المـاء ، بيد أنه غاص بعد لحظة فلم يظهر له أثر إلا شعره الطويل ، الذى لم يلبث أن اختفى أيضا ، وحلت محله على وجه الماء دوامة كبيرة

وألجم الرعب الفرسان الثلاثة فظلوا فاغرى الفم مفتوحى الذراعين محدقين فى البحر ، وكان بورتوس أول من ثاب منهم إلى رشده فراح يشد شعر رأسه كالمجنون وهو يصرخ بصوت تخنقه العبرات ، وهو المملاق الذى لاتهزه النوازل :

— آتوس . آتوس . ليتنا متنا قبل أن نتركك تموت يا أنبل الرجال

وفى هذه اللحظة ظهرت على بعد خمسة أذرع دوامة أخرى كبيرة وقد طفا فى وسطها شعر ثم وجه شاحب مفتوح العينين ، ثم جسم رخو وقد غرس فى صدره إلى المقبض الذهبى اللامع خنجر ، فصاح الثلاثة : « موردانت .. موردانت »

فصاح دارتانيان : « وآتوس ! »

وفى هذه اللحظة مال القارب من الناحية الأخرى تحت ثقل جديد غير منتظر ، وأطلق جريمو صرخة فرح ، فالتفتوا كلهم ورأوا آتوس مرتعد الأوصال يريح رأسه على جانب القارب وقد علا وجهه شحوب ، فأسرعت ثمانية أذرع مضطربة فرفعته من اليم إلى القارب حيث عادت اليه حرارة الدفء بقبلات أصدقائه الذين أسكرهم السرور العظيم بنجاته بعد أن يئسوا منه

وصاح دارتانيان : « هل جرحت ؟ »

— كلا . لـكن هو ؟

— أما هذه المرة فانه قد انتهى ولله الحمد

وأرغمه دارتانيان على النظر إلى حيث أشار له إلى الجثة الطافية ، والأمواج تتنقل بها ، فكأن هذا الشيطان لايزال مصراً على تعقبهم حتى بعد موته

وبعد لحظة أخرى غاصت الجثة وابتلعها اليم ، فتمتم آتوس قائلا :

— لست أنا الذى قتلته ، وإنما هو حـكم القدر . فانى كنت راغباً كل الرغبة عن تلويث يدى بدمه . ولـكنه حكم القدر



العودة

مرت بهم فى عرض البحر ليلة هائلة ، بيد أن أنوار الفجر طلعت عليهم بالأمن والطمأنينة فقد تراءت لهم على الأفق سفينة كبيرة لوحوا لها فأنقذتهم ، وكانت سفينة فرنسية متجهة من دنكرك الى بولونى . وهكذا قدر للأربعة أن ينجوا من الهلاك ويصلوا إلى أرض الوطن سالمين . وعلى أرض الوطن وقفوا يتدبرون أمر المستقبل ، فرأوا أن اجتماعهم معاً سيعرضهم لغضب الكردينال مازاران لأنه بعث اثنين منهم ليحاربا الملك فانتصرا له وحاولا انقاذه أما الاثنان الآخران فقد كانا حربا عليه مع عدوه منذ البداية . فمن الخير أن يتجه إلى الكردينال صاحباه الأصليان ليحاولا التملص مما ينسب اليهما متظاهرين بالبراءة ، محتالين عليها بالسذاجة حيناً وبالتلفيق والاختلاق حيناً آخر

وهكذا اتجه بورتوس ودارتانيان الى باريس ، بعد أن تعهدا بالبحث عن راؤول ، واتجه آتوس وأراميس الى نورماندیا معقل الأمراء المعارضين لمازاران . وتعهد دارتانيان بأن يكتب على حائط كل فندق يمر به مايدل على ذلك المرور وتاريخه حتى إذا خطر للصاحبين الآخرين أن يفتشا عنهما إذا كانا قد فرا من باريس بعد يأس من عفو الكردينال ، فسيجدان الطريق للعثور عليهما ممهداً

وكانت قد مرت بفرنسا فى هذه الأسابيع الستة أحداث على جانب كبير من الخطورة . فقد انسحب البلاط الى سان جيرمان واستعد لمهاجمة باريس المتمردة ، وكان على رأس جيش الثوار فى باريس الأمير كونتى والدوق دى بوفور . أما جيش الملكة فكان بقيادة الأمير كونديه . وبدأت المناوشات بين الجيشين . وهكذا كانت الحال حين وصل الفرسان الأربعة الى فرنسا ، وعلم أراميس وآتوس بالأمر وهما فى طريقهما الى نورماندیا ، فذهبا الى باريس للانضمام لجيش الأمراء الثوار

وعند ضواحى باريس وجد آتوس وأراميس صعوبة فى الدخول ، فان الحراس كانوا يتشددون خوفاً من الخيانة . فقادهما الديدبان الى مركز الطليعة ، وهناك أبصرا ثلاثة أشخاص يطلبون المرور لمقابلة ملكة انجلترا التى كانت منضمة بطبيعة الحال للأمراء الثوار . واستطاع أراميس أن يلمح وجه أحد هؤلاء الثلاثة مع أنه كان يخفيه بقبعته العريضة . فقد كان هذا

الشخص هو الكردينال مازاران متنكراً . أما الضابط المكلف بفحص جوازات المرور فى ذلك المركز فقد اتضح أنه بلانشيه . ودخل الفارسان بفضل معرفة الملازم بلانشيه لهما ، فقد حصل بلانشيه فى جيش الثورة على رتبة الملازم فأضحى مثل سيده القديم دارتانيان ، بل انه وعد بترقية قريبة الى رتبة اليوزباشى

وظل أراميس يلح على آتوس فى تعقب السادة الثلاثة ، لاعتقاده أن مازاران بينهم ، بيد أن آتوس ثناه عن ذلك لوجوب الإهتمام أولا بمقابلة الملكة هنريت وتقديم التقرير المحزن اليها عن مهمتهما وعن ساعات زوجها الأخيرة

ووجدا عندها رسولين من قبل ملكة فرنسا هما الدوق شاتيون والدوق دى فلامارنس ومن عجب أنهما كانا يبلغانها أن الشعب الانجليزى غضب واستطاع فى اللحظة الأخيرة أن ينقذ الملك من فوق منصة الاعدام

وقد دهش الفارسان بطبيعة الحال لهذه الأنباء المكذوبة ، ولاحظت الملكة ذلك فسألتهما عما وراءهما من أنباء رأياها رأى العيان ، فقال آتوس :

— لا أريد أن أقول ماعندى قبل أن يعترف السيدان بأنهما أخطآ

فصرخت الملكة مذعورة . وقال دوق فلامارنس :

— إذا كان هناك خطأ ، فهو من جانب جلالة ملكة فرنسا ، ولا أعتقد أنك تجسر على تكذيب جلالتها

ولما كان هذا السيدان هما اللذان كان ثالثهما مازاران ، فقد قال آتوس :

— هل مصدر هذا الخطأ الملكة حقاً أم الشخص الذى كان معكما منذ قليل حين دخلتما باريس ؟ لقد رأيتكم أنا والشيفاليه دربلاى هذا الذى بجانبى تدخلون مركز الطليعة الأمامى ثلاثة لا اثنين

فانتفض السيدان ، وصاحت ملكة انجلترا وقد استبد بها الذعر :

— وضح ياسيدى . أبن . إنى أقرأ على وجهك أخباراً توقع فى اليأس حتى ان لسانك يتردد فى الانطلاق بها ، قل لى بالله ماذا حدث ؟

وصاح الدوق دى شاتيون :

— إذا كنت تحمل ياسيدى إلى الملكة نبأ فاجعاً ، فما أقساك إذ تبلغه لها

فنهض أراميس من مكانه واتجه حتى كاد يلامس الدوق دى شاتيون وقال :

— سيدى ، لا أظنك تتجاسر على إلقاء درس فى الرحمة أو البر على الكونت دى لافير أو على ، فنحن أدرى بما ينبغى أن يقال

وفى هذه الأثناء تقدم آتوس من الملكة ويده على صدره ، غضيض الطرف ، خفيض الصوت ، وقال :

— سيدتى . ان الله الذى رفع الأمراء فوق السوقة جعل لهم قلوبا تحتمل من المصائب مالا يتحملون . وقد رفعك الله ياسيدتى فوقنا ، فادخر لك عبئا أثقل مما نستطيع احتماله لقد ادخر لك الله ياسيدتى المملكة ما ادخره للصفوة المختارة من رجاله فى هذه الأرض ، ألا وهى الشهادة ، وتلك ياسيدتى هى خلاصة البعثة التى شرفتنا بتوجيهنا اليها

ثم ركع آتوس أمام الملكة التى جمدت جمود تمثال من الثلج ، وأخرج من فوق قلبه الوشاح المرصع وخاتم الزواج والصليب الماسى وقدمها إلى الملكة . فتناولت الملكة هذه الأشياء واحداً واحداً ، أما خاتم الزواج فرفعته إلى شفتيها وقبلته ، وهنا لم تستطع كتمان زفرة حرى ، أعقبتها انتفاضة انتظمت كيانها كله من قمة الرأس الى أخمص القدم، ثم تهالكت بين ذراعى وصيفاتها وابنتها ، فانحنى آتوس وقبل هدب ثوبها ثم انتصب واقفاً فى مهابة ووقار وقال :

— أشهد أنا الكونت دى لافير ، الرجل الشريف الحر ، الذى لم يكذب فى حياته قط ، وأقسم أمام الله أولا ، ثم أمام هذه الملكة المسكينة ثانياً ، اننا فعلنا كل ما كان فى الوسع عمله لانقاذ الملك فوق أرض بريطانيا . والآن يا شيفالييه دربلاى قد انتهت مهمتنا ، فهيا بنا نمضى فى سلام

— بل بقى شىء يا كونت . فانى أرجو أن يتفضل هذان السيدان بالخروج معنا لحظة واحدة ، كى أسمعهما تلك الكلمة التى لايليق أن أقولها أمام الملكة

فانحنى شاتيون دون أن يجيب اشارة بالموافقة ، وهكذا خرج الأربعة حتى إذا ابتعدوا فى الدهليز وقفوا بجوار نافذة كبيرة ، وهناك قال لها أراميس أنهما قد أقدما على نقل رواية من ملكة الى ملكة ومصدرها رجل كذاب . وهكذا انطلق التحدى الذى انتهى بدعوة أراميس لشاتيون الى المبارزة ، فتدخل دى فلامارنس واعتذر بضيق الوقت على وعد بتلبية الدعوة للمبارزة فى فرصة أخرى ، لأن أمامهما مهمة تتعلق بمصالح الدولة العليا يجب أداؤها غداً صباحاً . وقال شاتيون :

— ان هذه المهمة تقع على أبواب مدينة شارنيتون ، حيث يمكن أن تدور رحى الحرب بين الجيشين . فاذا جئت إلى هناك فسيكون لى مزيد الشرف بلقائك غداً

واتجه الفارسان بعد ذلك إلى الفندق للبحث عن راؤول ، فوجدا أنه قد ذهب ومعه خادمه أوليفان لمقابلة الأمير كونديه بدعوة منه على وجه الاستعجال فى مقر قيادته بسان كاو وأمضيا الليلة فى باريس على عزم التوجه منذ الصباح إلى أبواب شارنيتون لمبارزة دى شاتيون وفلا مارنس ، وأيضاً على أمل مقابلة راؤول فى حاشية الأمير كونديه ، والعثور على دارتانيان وبورتوس فى الفريق الذى يحارب مع الملكة والكردينال مازاران

وفى الصباح أعلن أن المفاوضة قد فشلت ، فبدأ الاشتباك بين الفريقين ، واشترك أراميس وآتوس مع الثوار فى الهجوم . وتصدى لهما من المعسكر المقابل فارسان عليهما دروع مذهبة أحدهما شاتيون . فقد عرفه أراميس ، وهاجمه بمسدسه ، فصرعه من فوق جواده . فانحنى فوقه أراميس يسأله ان كانت له رغبة أخيرة . وإذا به يتلق ضربة فى جانبه من سيف ، ولكن الدرع ردت هذه الضربة القوية ، فالتفت ليرى راؤول وقد هجم عليه . فلما عرف راؤول أراميس ثم عرف صوت والده وهو يناديه سقط السيف من يده، فهجم عليه عدة فرسان من جيش باريس بيد أن أراميس بسط فوقه حمايته وقال إنه أسيره . أما آتوس فأمسك بزمام جواد راؤول وقاده بعيداً عن المعمعة

وسأله آتوس ماذا أتى به الى خط القتال فقال :

— لقد كنت مكلفاً بحمل رسالة إلى الكردينال فى « ريال » ولكنى رأيت فى طريق الدوق دى شاتيون يهجم هذه الهجمة فهاجمت معه

فقال أراميس : « انت أسيرى ، فهات الرسالة »

وإذا بالرسالة موجهة من الأمير، يبشر فيها الكردينال بأنه سيبعث إليه بعشرة فرسان شجعان يستطيعون الصمود للفارسين الذين يخشاهما الكردينال كثيراً

ولهذا قرر أراميس وآتوس البحث عن صديقيهما لنجدتهما من كيد الكردينال

وقد بدأ طوافهما بالبحث فى أركان باريس ، مستعينين ببلانشيه الذى يخوله مركزه الجديد أن يساعدهما مساعدة جدية . بيد أن هذا البحث لم يسفر عن شيء فخرجا يبحثان فى أنحاء الريف ، ويتتبعان الآثار التى وعد دارتانيان أن يتركها على جدران كل خان يمر به

وبعد طواف مجهد فى القرى وجدا فى مدينة « ريال » ما دلهما على أن كتيبة من الجند قد قبضت عليهما وساقتهما إلى سجن الكردينال . فقرر أراميس العودة إلى باريس ، أما آتوس فتوجه لمقابلة الملكة فى قصرها « بريال » ليطلب منها حرية صديقيه وخادميها



لم يجد آتوس صعوبة كبيرة فى مقابلة الملكة آن . فان نسبه الشريف يرخص له فى تلك المقابلة الصباحية . ولهذا أعلن اسمه أمام الملكة ،ودخل وهو يعلم انها لايمكن ألا تذكره ، وهو بطل الرحلة التى تمت منذ عشرين سنة لاسترداد عقدهـا الثمين من دوق باكنجهام استنقاذاً لشرفها . بيد انها اكتفت بأن وجهت اليه نظرة ثابتة لاتنطق بشيء . فلما طال صمته قالت له : « هل جئت تعرض علينا خدمة يا كونت ؟ »

— أجل ياسيدتى ، خدمة أخرى

فعقدت حاجبيها لأنها أدركت انه يذكرها بالخدمة الأولى ، وقالت : « تكلم »

— سيدتى ، لى صديقان من أخلص خدام جلالتك هما السيدان دارتانيان ودى فالون أرسلهما الكردينال إلى انجلترا ، وقد اختفى أثرهما منذ عادا إلى فرنسا

— وبعد ؟

— وبعد ، فانى أتوجه إلى مكارم جلالتك لمعرفة ماحدث لهذين السيدين، محتفظاً لنفسى عند اللزوم ، بالالتجاء إلى القضاء

— وهل هذه هى الخدمة التى جئت تؤديها لنا ؟ أفى هذه الظروف المضطربة تشغل وقتنا بمسألة بوليس ؟

— لا أظن جلالتك بحاجة إلى سؤال البوليس عنهما ، ويكفى سؤال نيافة الكردينال الواقف هنا إلى جوارك ، فهو يستطيع الجواب من الذاكرة

— أراك ياسيدى تكاد تستجوبنا

— وان لى الحق فى ذلك ، لأن الأمر يتعلق بدارتانيان

وهنا رأى الكردينال انه آن له أن يتدخل فى الحديث فقال :

— أظنك آتياً أيضاً من انجلترا ؟

— أجل . وقد حضرت اللحظات الأخيرة للملك شارل الأول . ذلك الملك المسكين الذى كان أقصى ذنبه انه كان ضعيفاً فعاقبه رعاياه عقاب القساة ، فالعروش فى أيامنا هذه كثيرة الاهتزاز . ولا يجمل بالقلوب الصادقة أن تتفانى فى خدمة الأمراء . فقد كانت هذه هى المرة الثانية التى يذهب فيها دارتانيان إلى إنجلترا ، فقد ذهب فى المرة الأولى من أجل شرف ملكة عظيمة وسمعتها . وأما فى المرة الثانية فذهب من أجل حياة ملك عظيم

وهنا قالت الملكة وهى تضغط على الكلمات :

— اصنع شيئا يا كردينال للسيدين ، ودع الكونت يراهما ، وافعل له كل مايريد

فشكر آتوس وانصرف إلى غرفة الانتظار ، حتى يأتيه الكردينال بصديقيه وينطلق بهما ، ولكنه لم يكد يغادر الحجرة حتى قالت الملكة للكردينال :

— اقبض على هذا الوقح قبل أن يخرج من البلاط

وفى هذه الأثناء كان آتوس يتسلى بالنظر من النافذة المطلة على الفناء ، فرأى وفد الباريسيين يدخل لاتمام مفاوضات الصلح ، وكان يضم مستشارين فى البرلمان ومحامين وبعض رجال السيف ، وخيل اليه انه عرف بينهم بعض الناس . وفى هذه اللحظة تقدم منه قائد الحرس وطلب منه سيفه

وفتح آتوس النافذة وصاح بأعلى صوته : « أراميس ! انهم يقبضون على »

غادر مازاران القصر فى عربته متجهـاً إلى قصره فى « ريال » وكان يتبعه على بعد آتوس مجرداً من سيفه وحوله حرس شـديد . أما جريمو فقد التقى به أراميس وأخبره باعتقال سيده . وأما أعضـاء وفد باريس فعادوا إلى مدينتهم بعد انتهاء المقابلة ، فكان ركبهم يسبق ركب الـكردينال بمسافة بسيطة لاتتجاوز الخمسمائة خطوة

فلما وصل مازاران إلى قصره ، سأله قائد الحرس أين يضع آتوس ، فقال :

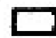
— فى الجناح المطل على حدائق البرتقال ، تجاه الجناح الذى يشغله الخفر . وأريد أن تشملوا الـكونت بكل رعاية ، لأنه سجين الملـكة !

— ولـكنه يطلب أن يوضع مع صديقيه دارتانيان ودى فالون

— ان وجود هؤلاء الثلاثة معاً خطر على الأمن ولو كان الحراس من السويسريين الألمان . ولـكن عاملوه برفق فيما عدا ذلك . وسأزوره فى غرفته الليلة بنفسى

وأفضى قائد الحرس إلى الـكونت بهـذه النتيجة ، فاكتفى برجائه أن يبلغ صديقيه تحياته وأنه موجود فى البناء المقابل لحبسهما . وأن يبلغهما أيضـاً الرغبـة التى أبداها الـكردينال فى زيارته فى سجنه هذه الليلة ، فقام الضابط بهـذه الخدمة التى لم يجد فيها خروجا عن حدود المجاملة

ولما وصل آتوس إلى غرفته وجد أمامه فى النافذة نوافذ البناء الآخر مزودة بقضبان من الحديد ، وبينهما حديقة واسعة الأرجاء مزروعة بأشجار البرتقال . فسأل عن ذلك البناء المقابل فعرف أنه البناء الذى يقيم فيه صديقاه



ولننتقل الآن عبر حـديقة البرتقال الى جناح الخفر الذى فيه دارتانيان وبورتوس ، فاننا نجدهما محبوسين فى الطابق الأرضى . وفى الحجرة نافذة كبيرة ذات قضبان تطل على الفناء الداخلى ، وكان الغيظ يأكل قلب دارتانيان على الخصوص . وأخذ يقدح زناد فكره بحثاً عن طريقة للنجاة . وفى هـــذه اللحظة دخل قائد الحرس وأبلغهما رسالة آتوس ، فكان فرحهما بها عظيما ، لاسيما أن آتوس كان مشهوراً بسعة الحيلة ، فهو لن يتقاعد عن تخليصهما وتخليص نفسه . بيد أن دارتانيان استغرب خبر زيارة الكردينال للـكونت فأكده له الضابط ، لأن الـكردينال من عادته أن يتنزه كل ليلة فى حديقة البرتقال ، فمن السهل أن يدخل لزيارة الكونت فى الطابق الأرضى بضع دقائق

— أرجو أن يأخـذ الـكردينال حذره فلا يدخل بمفرده حجرة الـكونت

— ان الـكونت رجل مهذب جداً ، ثم هو مجرد من كل سلاح ، يضاف الى هـذا انه عند سماع أول صرخة تصدر من الـكردينال فان الجنديين السويسريين اللذين يرافقانه باستمرار فى مثل هذه النزهة يسرعان لنجدته

عندئذ تذكر دارتانيان أنه فى موعد معين من كل ليلة يسمع نداء على الحارسين المنوبين ، ثم يراهما يتنزهان فى الحديقة جيئة وذهابا مدة نصف ساعة ، فى انتظار الكردينال

— أرجوك إذن ياسيدى الضابط أن تحمل تحياتى إلى الكونت حين تزوره غداً صباحا ، وأن تطلب اليه أن يحرص على التماس حريتنا حرصه على التماس حريته

وخرج قائد الحرس وأغلق الباب فراح دارتانيان يعانق بورتوس ، وبورتوس لايفهم السبب ، وأخيراً تولى دارتانيان الشرح ، فقال:

— اقترب من هذه النافذة واستعمل قوتك البدنية فى ثنى قضيبين من القضبان بعيداً أحدهما عن الآخر ، ولكن بعد أن أطفىء أنا المصباح . والآن هيا

— هاك ياعزيزى ماطلبت . وهو أمر عسير على رجل كالكردينال مع عبقريته ! ان هذه المسافة تسمح بمرور رجل

— والآن أخرج ذراعك من النافذة . لاتتردد ، وأطعنى بغير سؤال . سترى بعد قليل باب الخفر المقابل يفتح ، وسيخرج منه الحارسان اللذان سيصحبان الكردينال عندما ينزل للنزهة فى حديقة البرتقال

وتقدم الحارسان السويسريان فى الظلام ومرا من أمام النافذة وهما يفركان أيديهما لأن الجو كان بارداً ، وفى هذه اللحظة فتح باب الخفر ونودى على أحدهما فلبى النداء وترك الآخر وحده . فقال دارتانيان هامساً :

— سأنادى هذا الجندى كما ناديت زميله بالأمس لأتسامر معه وأعطيه قليلا من النبيذ . وسأجعل نفسى على يسارك ، بحيث يكون من خلال النافذة فى متناول يمينك ، ثم أدعوه للصعود فوق المقعد الموجود أسفل النافذة فى الفناء ليتناول من يدى زجاجة النبيذ ، فبمجرد صعوده عليك أن تقبض على رقبته بيدك لتمنعه من الصراخ ، ثم تدخله من الفتحة وتضعه على الفراش حيث أتولى تكميمه وتقييده ، وهكذا يتيسر لنا سلاح وبدلة عسكرية

واختبأ بورتوس تحت مستوى النافذة فى انتظار الاشارة ، ثم تمت العملية الأولى بنجاح . وبعد دقيقة تكررت العملية . وخرج الصديقان فوقفا فى الفناء فى انتظار الأوامر ، وإذا بباب يفتح ويخرج منه حاجب الكردينال ويأمرهما أن يتبعاه ، إلى أن فتح باباً يفضى الى دهليز ، ثم باباً آخر وجدا وراءه مقعدين ، أشار اليهما وقال :

— التعليمات ألا تدعا أى إنسان يدخل ماعدا السيد الذى سيأتى الآن ، وعليكما بطاعته فى كل شىء ، أما العودة ، فانى سأدبرها بأن آتى لآخذكما بنفسى

وانصرف الحاجب ، ثم بعد لحظات أقبل رجل فى ملابس الفرسان عليه معطف بنى اللون وقبعة عريضة وفى يده فانوس ، فقدم إلى بورتوس الفانوس وقال له :

— أشعل مصباح السقف

ثم تقدم إلى الباب المواجه لباب الدخول فخرج منه ثم أغلقه وراءه

فقال بورتوس : « ماذا نصنع الآن ؟ »

— إذا كان هذا الباب مغلقاً فعلى كتفيك الهائلين مؤونة فتحه ، ولكن لنحصن أولا باب الدخول ، ثم بعد ذلك نتبع فريستنا وتطاردها

وشرع الاثنان يحصنان الباب بكل ماوجداه تحت أيديهما من الأثاث ، ثم اتجها بعد ذلك إلى الباب الذى اختفى وراءه مازاران ، فحاول دارتانيان فتحه عبثاً . أما بورتوس فاستطاع أن يباعد مابين المصراعين بكتفه الضخم ، ثم أدخل دارتانيان طرف خنجره بينهما ودفع اللسان فانفتح الباب بهدوء تام

ودخل الصديقان من الباب فوجدا المصباح موضوعا على الأرض ، ثم أبصرا من وراء الدهليز صفوف أشجار البرتقال ولا أثر للكردينال . فذهبا يتسللان بين الأشجار ، إلى أن وقع نظرهما على صندوق خارج على الصف المنتظم ، وفى مكان هذا الصندوق من الصف فتحة كبيرة من داخلها سلم حلزونى ، وكان الصندوق ثقيلا جداً لايتحرك إلا بلولب آلى

ووقف الرجلان مبهوتين، فهنا إذن يرقد كنز مازاران المشهور، وقال دارتانيان متحسراً:

— لو كنا لانطمع إلا فى الذهب ، لكان فى وسعنا الآن أن ننزل فنفرغ خزانة أو خزانتين فى جيوبنا ، ثم نقفل الكنز على الكردينال المحترم ونخلص منه البشرية

— معك حق ياصديق ، ولكن الذهب ليس هو كل مانشد

وفى هذه اللحظة سمع صليل معدنى آتيا من الحفرة ، ثم ظهر الكردينال وهو يداعب بيده صرة من النقود ، وفى يده الأخرى شمعة مضاءة ، وهو يخاطب نفسه

— هذا مبلغ يكفى لشراء خمسة مستشارين فى البرلمان ، أو جنرالين فى جيش باريس — وأنا أيضاً جنرال عظيم ، ولكنى أحارب على طريقتى الخاصة

واختبأ دارتانيان وبورتوس حتى أبصراه يتجه إلى السور فيضغط على موضع معين ، فينتقل الصندوق الضخم الذى فيه شجرة البرتقال فيغطى مدخل الحفرة ، ثم يطفىء الشمعة ويضعها فى جيبه وهو يقول : « هيا الآن لزيارة الكونت دى لافير »

وتبعه دارتانيان وبورتوس ، إلى أن وقف أمام باب زجاجى فتحه ودخل ، ثم انحرف فى الدهليز إلى اليسار ، ووقف عند باب معين وأوشك أن يفتحه ، لكنه قال لنفسه :

— يا للشيطان . لقد نسيت أن آتى بالحارسين لأضعهما على الباب حتى لا أكون تحت رحمة هذا العفريت

ودار على عقبيه ليعود من حيث أتى ليحضر الحارسين ، وهنا تقدم دارتانيان وقال فى ابتسامة ساخرة :

— لاتتعب نفسك ياصاحب النيافة ، فقد تبعناك من تلقاء أنفسنا

ثم خلع الاثنان قبعتيهما وانحنيا باحترام عظيم ، فوقع المصباح من يد الكردينال ، فالتقطه دارتانيان وأعطاه إياه وهو يقول :

— لاتدعه يقع من يدك ، وإلا تعرضت للسقوط فى حفر الحديقة . ولما كنت ياسيدى تريد مثلنا زيارة الكونت ، فأرجو أن ترشدنا إلى الطريق

— هل ... هل ... هل لكما مدة طويلة فى حديقة البرتقال ؟

— أى حديقة ؟ لقد وصلنا الآن فقط

فتنفس مازاران الصعداء اطمئنانا على سلامة الكنز وقال :

— لقد كسبتما هذه الجولة ، وإذا كنتما تريدان حريتكما فهى لكما

— ياصاحب النيافة ، انك لكريم ! ولكن حريتنا فى يدنا فعلا ، وإنما نحن نطلب من نيافتكم شيئاً آخر

— حريتكما فى يدكما ؟

— أجل ، ان حريتك أنت ياصاحب النيافة هى التى ليست فى يدك الآن ، ونريد منك أن تفتديها

— وما مبلغ هذه الفدية ياسيد دارتانيان؟

— لا أدرى فى الوقت الحاضر . ولكننا فى الطريق إلى الكونت دى لافير ، وسنسأله رأيه الثاقب دائماً فى مثل هذه الأمور . فلتتفضل ياصاحب النيافة بفتح الباب واعلم أنك إذا أحدثت أى صوت فسنضطر الى عمل مانكره

— اطمئنا ، فلن يصدر عنى مايريبكما

وفتح مازاران الباب ، ودخل الثلاثة حجرة آتوس



وما وقعت عينا آتوس على الكردينال ومن ورائه الحارسان ، حتى انحنى بأدبه الجم الذى عهد فيه وقال :

— كان فى وسع نيافتكم أن تتحرروا من قيود الحراسة ، فان الشرف العظيم الذى أتلقاه الآن أكبر من أن أتناساه لأى سبب من الأسباب

فتكلم دارتانيان من خلف الكردينال قائلا بلهجته الفسقونية :

— واهاً لك يا عزيزى الكونت ! صدقنى أن صاحب النيافة لم يكن راغباً فى صحبتنا أى رغبة ، ولكن صاحبك دى فالون وانا ألححنا عليه فى صحبته، وربما نكون قد تجاوزنا فى الالحاح حدود اللياقة ، ولكن عذرنا الآن أن الدافع لنا هو شوقنا الشديد إلى اجتلاء محياك



« .. اعلم أنك إذا أحدثت أى صوت فسنضطر إلى عمل ما نكره »

فحملق آتوس لحظة ، ثم قفز من مكانه مرحباً بصديقيه العزيزين مستفهماً ، فعض مازاران على شفته محاولا الابتسام ، ثم قال :

— المسألة أننا تبادلنا الأدوار ، فأصبح السجين سجاناً والسجان سجيناً ، فأنت ترانى الآن يا كونت أسيراً يتقبل الشروط بدلا من أن يمليها . بيد أنى أحذركما أيها السيدان ، بأن انتصاركما لن يطول

فصاح دارتانيان :

— اياك يا صاحب النيافة أن تعمد إلى التهديد ، فتلك قدوة سيئة لنا ، وأنت ترانا فى غاية اللياقة والوداعة مع نيافتك . فلندع الحقد جانباً ولنتحدث بهدوء

— ليس أحب إلى من هذا . ولكنى أريد أن أقول لكما إنى إذا كنت فى الفخ ، فأنتما فى الفخ معى . انظرا إلى القضبان وخبرانى كيف ستخرجان . ولكنى مع هذا أعرض عليكما الحرية

— ولكن فى استطاعة صاحب النيافة أن يرجع فى وعده ، وفى هذه الحالة نكون قد خسرنا كل شىء

— أقسم لكم أنى سأطلق سراح ثلاثتكم ، وأقسم على ذلك بشرف ما زاران ، بشرف الوزير . هذا وعد رسمى

— انك لم تعد وزيراً يا صاحب النيافة ، لأنك أسير

— سأعطيكم المفتاح كى تخرجوا إلى الحديقة ، وهناك تقفزون من فوق السور ، وحينما تصيرون فى الخلاء فأنا واثق من قدرتكم على الهرب وعلى مقاومة أى عقبة مسلحة تعترض طريقكم

— وأين هذا المفتاح يا صاحب النيافة ؟

— هذا هو

— أفضل أن تتولى ارشادنا إلى الطريق على سبيل الاحتياط

— بكل سرور

ومشى الكردينال معهم إلى الحديقة ، ثم فى طرقاتها لغاية السور ، وهناك هم مازاران أن يعود أدراجه ، لولا أن دارتانيان استوقفه :

— يا له من حظ سعيد أن يتولى توصيلنا إلى الطريق نحن الرجال الفقراء المتواضعون أمير جليل المقام من أمراء الكنيسة . ولكن — على فكرة — الكونت ليس معه سلاح ، وقد تقابلنا داورية مسلحة ، فهل لنيافتكم أن تعيروه سيفكم الذى لا فائدة لكم منه وأنتم رجل دين لا رجل حرب

— بكل سرور ، بل إنى أرجو الكونت فى التفضل بقبوله تذكاراً منى

— وانى أعد صاحب النيافة ألا أفرط فى هذا التذكار

فقال دارتانيان حينئذ :

— ليس فى الوقت متسع للمجاملات المؤثرة أكثر من هذا . والآن يا آتوس عليك أن تقفز إلى الخارج وبسرعة

فتولى بورتوس رفع آتوس فوق السور ، ومن هناك قفز إلى الشارع . وقال دارتانيان بعد ذلك لبورتوس :

— عليك الآن أن تراقب الكردينال جيداً ريثما أصعد أنا أيضاً ولكن بدون مساعدتك. فلا تدع الكردينال يتحرك

فقبض بورتوس على ذراع الكردينال ، ثم حنى ظهره فارتفع فوقه دارتانيان حتى ركب السور ، وأمر بورتوس بعد ذلك قائلا :

— والآن يا عزيزى بورتوس ناولنى من فضلك نيافة الكردينال ، وإذا قاوم أو صرخ . فأنت حر فى أن تكتم أنفاسه وتخنقه !

فرفع بورتوس الكردينال المسكين ، فتلقفه دارتانيان وهو ينتفض ، وقال :

— والآن فلتقفز النيافة إلى الشارع بجوار الكونت ، والا فانى قاتلك

— سيدى . لقد حنثت بالعهد

— أى عهد ؟ لقد كان عهداً من جانب واحد ، جانبك أنت

— لقد دفعت حريتكم ثمناً لحريتى وفدية عنها

— هذا صحيح . ولكن ما رأيك فى الفدية الضخمة المستحقة عن الكنز المدفون فى الحديقة ؟ ألا تحتاج هذه المسألة لشىء من التفاهم والتمحيص ؟

فلطم الكردينال خديه وصاح :

— يا يسوع ! لقد هلكت وضاع مالى ..

فتناوله دارتانيان من خناقه ودلاه من السور حيث تلقفه الكونت دي لافير ، ثم تناول يد العملاق بورتوس ورفعه إلى أعلى السور رفعة اهتز لها الجدار هزة هائلة ، ثم قفز الاثنان إلى عرض الطريق ، وتقدم دارتانيان ليكون بصفة كشاف ، وسيفه فى يده ، ملتزماً حذاء الجدار ، فاذا بهم يعثرون على جياد ، ولكن حارس الجياد زعق فيهم :

— ارفع يدك !

فاذا هذا الحارس هو جريمو . وقد جاء يحرس هذه الخيل بأمر من أراميس الذى قضى الوقت فى التجسس وتسقط الأخبار على رأس ستين من رجال جيش باريس ، على أمل تخليص أصدقائه من الاعتقال

وبعد عشر دقائق كان جريمو قد عاد بأراميس مبتهجاً ، فتعلق برقاب أصدقائه ، وراح يقول :

— لقد كنت بسبيل إجراء اللازم ، مستعيناً بهؤلاء الرجال الذين أعطانى إياهم نائب المطران . وقد أفادت هذه الخطة فى اقتناص رسالتين سريتين من مازاران إلى الملكة ، ففتحتهما لأجده يقول فى إحداهما إن خزائن الدولة قد فرغ ما فيها من المال ، وفى الأخرى يقول إنه سينقل المساجين إلى مكان آخر أوفى بالأمن . وقد علقت الآمال على هذه الرسالة الأخيرة ، مستخيراً الله فى اختطافكم أثناء نقلكم من هذا القصر ، وأعددت هذه الجياد لتركبوها حين يتم الاختطاف . ولكن أخبرونى كيف أفلتم من يد هذا الوغد الزنيم مازاران؟ لابد أنه سامكم العذاب

— بالعكس . لقد هربنا بواسطته ، فهو الذى تولى الأمر ، مكلفاً حاجبه الخاص أن يرشدنا إلى الطريق حتى باب الحديقة ، ثم زاد فى تفضله فأوصلنا بنفسه إلى السور

— هذا والله صنيع جميل يغير رأيى فيه ، ولو قابلته لقلت له إننى لم أكن أظنه أهلا لمثل هذه الأريحية

وعندئذ لم يطق دارتانيان كتمان الضحك فالتفت إلى مازاران قائلا :

— يسرنى أن أقدم إليك الشيفالييه دربلاى . صديقنا الرابع

وصاح أراميس :

— هل هذا هو الكردينال ؟ صيد سمين وقنيصة طيبة ، فالى الخيل إلى الخيل . ولكن وأسفاه ، لابد لى من الانتظار بضع دقائق ، حتى يلحق بنا ربيب آتوس ، الشاب راؤول دى براجيلون

وبعد لحظات أقبل الفيكونت فعلا ، وكان لقاء حاراً بينه وبين آتوس ، ثم تشاور الأصدقاء الأربعة فى الخطة ، وقر قرارهم على أن يتوجهوا بالكردينال إلى قصر من قصور بورتوس ، فى ضيعة بيير فون ، لأن هذا القصر ليس بعيداً عن باريس ، وليس قريباً منها قرباً خطيراً



ويل للمغلوب

اضطر مازاران إلى الاستسلام ، فاستمر الركوب طول الليل بتلك السرعة الخارقة التي تعودها هؤلاء الذين ولدوا فوق صهوات الجياد ، حتى إذا بزغ الفجر كانت جياد الخدم قد كلت ، بيد أن جريمو استطاع الحصول من اسطبل قريب على جياد جديدة ، واستأنفوا السير حتى وصلوا قرب الظهر إلى قصر بورتوس ، وهنا أسرع موسكيتن يتقدم الموكب ليعلن إلى الخدم والأتباع وصول دى فالون وأصدقائه ، وأيضاً كى يبدأ الاستعداد فى المطبخ لما اشتاق اليه من الأطعمة الدسمة . أما دارتانيان ، فراح يرسم خطة الاقامة . قال :

— نحن أربعة ، فلنتبادل السهر على حراسة صاحب النيافة ، فيسهر كل واحد منا ثلاث ساعات . وعلى صديقنا آتوس أن يتفقد منافذ القصر كى يقوم بتحصينه بحيث يصمد لكل مقاومة فى حالة الحصار . وعلى أراميس أن يدبر تسليح الأتباع وتخزين المؤونة

وضعوا مازاران فى أحسن حجرة بالقصر . وحينئذ أخذ يراوغهم محاولا إيهامهم أن افتضاح أمر وجوده بين أيديهم ، كفيل أن يجعل الملكة تجرد عليهم جيشا جراراً يحاصر القصر ،وربما حضر الأمير كونديه بنفسه ليتقدم الهجوم .فأجابه دارتانيان بأن جيش باريس سيسره فى هذه الحالة أن يتعقب جيش الأمير كونديه ويحصره بين نارين . ثم إن فى الوسع عند اقتراب الجيوش تهريب الكردينال إلى قصر آخر من قصور بورتوس ،ولدى بورتوس ثلاثة قصور من هذا النوع . فاضطر مازاران إلى ترك المراوغة ، وطلب شروط الصلح ، فقال آتوس :

— أما أنا ياصاحب النيافة ، فلا أريد شيئا لنفسى ، وإذا طلبت شيئا لفرنسا فسيكون باهظا ، ولذلك أكتفى بالسكوت وأترك الكلمة للشيفالييه دربلاى

— تكلم ياشيفالييه ، وقل ماذا تريد بوضوح وإيجاز

— فى جيبى ياصاحب النيافة ملخص شروط أهالى باريس التى حضر الوفد أول أمس لتقديمها اليكم ، ولهذا أطلب الموافقة على هذه الشروط

— هذه شروط عامة كدنا نتفق عليها ، فلننتقل إلى الشروط الخاصة

— أريد ياصاحب النيافة أن تمنح حكومة نورماندیا إلى الدوق دى لونجفيل ، مع هدية

مقدارها نصف مليون جنيه للدوقة . وأتمشم أن يتنازل جلالة الملك بأن يكون شبين ابنها ، كما أرجو من نيافتكم بعد حضور حفلة المياد أن تتفضلوا بالسفر إلى روما لالتماس بركات الحبر الأعظم

— وبعبارة أخرى تريدنى على الاستعفاء من منصبي وأن أنفى نفسى خارج حدود فرنسا ؟ وأنت ياسيد دارتانيان ؟

— أما أنا ياصاحب النيافة فطلباتى هى طلبات الشيفالييه دربلاى ، ماعدا الفقرة الأخيرة، فانى أريد أن تظلوا فى دست الوزارة ، لأن عبقريتكم السياسية يجب ألا تحرم منها فرنسا . ولكن بشرط أن تعلق بذاكرة نيافتكم خدمات رجال الملك المخلصين ، وأن يرقى إلى قيادة الفرسان العامة شخص موجود فى هذه القاعة لا يغيب عن فطنتكم

— وأنت ياسيد دى فالون ؟

فقال بورتوس وهو يهز جسمه الضخم :

— أما أنا ياسيدى الكردينال فأعنى مادام نيافتكم قد شرفت هذا المنزل الذى آواكم وأكرم مثواكم ، أن تأمروا برفع هذه الضيعة إلى طبقة البارونية ، وأن يصدر جلالة الملك فى أول فرصة أمراً بتولية صديق لى قيادة هامة

— ولكنك تعلم ان هذا تلزم له خدمة سابقة بشروط معينة

— هذا الصديق حائز لهذه الشروط

— لا أدرى كيف أوفق بين شروطكم المختلفة أيها السادة . فانى لا أملك وحدى ترقية دارتانيان إلى رتبة الكابتن ، ولا الانعام على دى فالون بلقب بارون . ثم انى لا أرى وجها لاشتغالكم بمصالح فرنسا العمومية ، بل الأولى أن تهتموا بمصالحكم الشخصية

فصاح اراميس ثائراً :

— لابد من امضاء المعاهدة أولا ، وفى هذه اللحظة ، مع التعهد بالحصول على موافقة الملكة عليها

— ولكنى لا أملك إلا رأيى الشخصى ، فلا أضمن إرادة الملكة

— على رسلك ، فأنت تعلم جيداً أن الملكة لاترفض لك طلباً . هذه هى الشروط وهذا هو القلم ، فتفضل بالقراءة ثم تنازل بالتوقيع

— ألا تعلمون أن التوقيع فى هذه الحالة يعتبر باطلا لأنه تم تحت تأثير وبضغط ؟

— ولكن نيافتكم سوف لاتعترفون أنكم أكرهتم على التوقيع . ثم نرجو ألا يطول الخلاف بيننا ، حتى لايعرف العالم كله أن الكردينال قد اختطف من قصره ، وتصور ياصاحب النيافة الفضيحة الكبيرة التى ستدوى فى الآفاق ، وقلق الملكة ، وسخرية الناس،

وشماتة الباريسيين الملاعين ، وكراهتهم لنيافتكم معروفة

— هذا فظيع . ولـكنى أخشى إذا وقعت أن ترفض الملـكة إقرار المعاهدة

فقال دارتانيان :

— أنا أتعهد بمقابلة الملـكة والحصول على توقيعها إذا أنت وقعت

— ولـكن حاذر ، فقد يكون استقبالك فى بلاط سان جيرمان على خلاف ما تنتظر

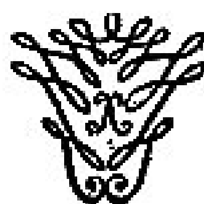
— خل عنك ! فانى سأدبر الأمر بحيث أستقبل أحسن استقبال

— وكيف ؟

— سأحمل إلى الملـكة رسالة الـكردينال التى يخبرها فيها ان الخزانة خاوية ، حتى إذا رأيت الملكة وقد استولى عليها اليأس والارتباك ، ذهبت معها إلى حديقة البرتقال وضغطت على زر معين ، فيتحرك لولب معين ، إلى آخر القصيدة المعروفة

— كفى ياسيدى كفى . أين هذه المعاهدة ؟

وتناول القلم فوقع مشروع المعاهدة ، وحمله دارتانيان إلى بلاط سان جيرمان



لدى الملكة

سافر دارتانيان فى مهمته الخطيرة حاملا مشروع المعاهدة ، وخطاباً خاصاً من مازاران إلى الملكة ، وكان فى سفره هذا وحيداً لايؤنسه إلا سيفه وتصريح بالمرور من النقط الأمامية بامضاء الكردينال . ولم تستغرق الرحلة إلا ست ساعات من السير الحثيث

وكان اختفاء الكردينال لايزال مجهولا من عامة الناس . ولكن الملكة علمت به واستطاعت أن تخفى قلقها عن أقرب المقربين اليها . وقد أدى الكشف عن الحارسين المكممين فى غرفة دارتانيان وبورتوس إلى تخيل ماحدث بصورة مشوشة ، فلم يكن يخطر ببال أحد كيفية دخول الجنود إلى الزنزانة . ولم يعرف أحد أين ذهب السجناء الثلاثة بالكردينال بعد خروجهم . وكان حاجب الكردينال أول من اكتشف غيابه ، فراح يتعقب آثار الأقدام فى أرض الحديقة حتى وصل إلى السور . وقد أوصته الملكة بالتزام الصمت التام ، ثم بعثت إلى الأمير كونديه فأخبرته بتفاصيل الموضوع ، فكلف خمسمائة فارس بالبحث والتنقيب والقبض على العصابات المشتبه فى أمرها

ولما كان دارتانيان فرداً وليس عصابة ، فانه لم ينله شيء من جانب هذه الاجراءات ، واستطاع المرور من جميع الكردونات ، إلى أن دخل القصر . وعرفه حاجب مازاران بطبيعة الحال ، بحكم عمله فى حرس الفرسان ووجوده كثيراً من الأحيان فى حجرة الانتظار أمام مكتب الوزير الكردينال . وكان الحاجب يعلم أيضاً أن دارتانيان أحد الثلاثة الذين اختطفوا صاحب النيافة ، لهذا ظن الرجل نفسه فى حلم ، وراح يفرك عينيه ، ثم صرخ كمن يفيق من كابوس مزعج :

— السيد دارتانيان . السيد دارتانيان

— بلحمه ودمه أيها الصديق

— وماذا أتيت تصنع هنا ؟

— جئت أحمل أنباء من الكردينال مازاران ، أنباء أخيرة وخطيرة

— ماذا حدث له ؟

— كل خير . فهو فى خير حال ، مثلى ومثلك

— إذن لماذا ترك القصر ؟

— لقد نبتت فى رأسه رغبة مفاجئة لتبديل الهواء فى الأرياف ، ولهذا رجاني ورجا الكونت دي لافير والسيد دي ڤالون أن نصحبه . ولما كنا من أهل الكرم والأدب فاننا لم نتردد فى إجابته إلى طلبه ، فخرجنا معه أمس مساء . وهذا كل ماهناك . ولكن لما كانت هناك أشياء عاجلة يريد نيافته أن يفضى بها إلى مسامع صاحبة الجلالة ، فقد اقتضت ارادته أن يكلف بهذه المهمة شخصاً موثوقاً به ، ووقع اختياره على شخصى الضعيف لحمل هذه الرسالة . فأرجو أن تتفضل إذا كنت حريصاً على خدمة مولاك بإبلاغ صاحبة الجلالة نبأ وصولى والغرض منه

وأسرع الحاجب فأخبر الملكة بهذه السفارة الغريبة ، فأمرته الملكة أن يدخل دارتانيان عليها فوراً . ودخل دارتانيان على ملكته بكل احترام وخضوع واجبين لمقامها السامى . حتى إذا صار على بعد ثلاث خطوات منها ، ركع على إحدى ركبتيه وقدم اليها الخطاب . وكان خطاباً عادياً لتقديم دارتانيان والتوصية به ، فقرأته الملكة وعرفت خط الكردينال على الفور ، وان كان مضطرباً بعض الاضطراب. ولما كان الخطاب لايفيدها علم شيء تجهله ، فقد التفتت إلى دارتانيان وطالبته بتفاصيل ماحدث . فقص عليها كل شيء بطريقته البسيطة التى يعرف كيف يستعملها فى بعض الأحيان لترخص له فى الاجتراء والسخرية

وكانت الملكة تنظر اليه وهو يتكلم نظرة دهشة أخذت تزداد شيئاً فشيئاً ، لأنها لم تتصور كيف يجرؤ رجل على رسم مثل هذه الخطة أولا ، ثم على تنفيذها بعد ذلك ، وأكثر من هذا وذاك كيف يجترىء بعد ذلك على روايتها بكل صراحة على مسامع تلك التى من مصلحتها ، بل يكاد يكون من واجبها أن تعاقبه عليها ، فصاحت عند ما انتهى :

— كيف تجرؤ ياسيدى على الاعتراف أمامى بجريمتك وخيانتك !؟

— عفوك ياسيدتى . إذ يظهر اننى أسأت التعبير ، أو أن جلالتك أسأت الفهم فليس فيما قلت الآن جريمة أو خيانة . فكل ما هناك أن السيد مازاران كان قد حبسنا ، أنا ودى ڤالون ، لأننا لم نصدق انه أرسلنا إلى انجلترا كى نتفرج ببرود على قطع رأس الملك شارل الأول ، زوج أخت المرحوم زوجك ، وزوج الملكة هنرييت ضيفتك ، فرأينا من واجبنا أن نعمل كل ما فى وسعنا لنجاة الملك المسكين ، واثقين اننا نؤدى خدمة طبيعية للكردينال ولجلالتك . ولما كان لابد من تصفية سوء التفاهم بيننا وبين الكردينال بالحسنى ، وفى جو هادىء ، لهذا قررنا استضافة صاحب النيافة فى قصر صديق ، وهناك تم التفاهم بمنتهى السهولة ، واتضح لنا صدق حدسنا من أن هناك خطأ فى فهم موقفنا ، إذ حسب نيافته اننا خدمنا الجنرال كرومويل فعاقبنا ، ولما اتضح له العكس أظهر رضاه عنا ، لأننا

كنا ممثلين لتاج جلالتكم ، وأى تصرف خلاف تصرفنا كان حرياً أن يلطخ تاج فرنسا بعار لا يمحى أمام التاريخ . ولهذا رأى الكردينال لزاماً عليه أن يصلح خطأه فى حقنا ، فأرسلنى إلى جلالتكم لأتحدث اليكم فى الترضيات الطبيعية المناسبة لرد اعتبار فرنسيين شريفين أسىء إلى شرفهما بغير قصد حيث كانا يستحقان المكافأة.

— انى أصغى اليك أيها السيد بكل إعجاب . فأنا لم أر فى الواقع طول حياتى مثالا للجرأة الوقحة كهذا المثال

— أرى أن جلالتك أخطأت فهمى كما سبق أن أخطأ صاحب النيافة

— لم أخطىء ، وسترى أنك بعد عشر دقائق سيكون مقبوضاً عليك ، وأنى سأتحرك بعد ساعة على رأس جيش لتخليص وزيرى

— أنا واثق أن حصافة جلالتك لن تسمح لها بهذا . لأن الكردينال سيعرض للقتل بمجرد وصول الجيش

— سأكتفى إذن بالقبض عليك

— وهذا أيضاً قد حسبت حسابه . فاذا لم أصل إلى أصدقائى غداً ، سيتم تسليم صاحب النيافة إلى أصدقائه الألداء أهل باريس

— أرى ياسيدى أنك تتجاسر على تهديد والدة مولاك الملك

— مولاتى . انى أهدد مضطراً ، ولكن ثق أن هذا القلب الذى فى صدرى لايكن لك إلا التقديس . وأنت أول من يعلم هذا جيداً ياصاحبة الجلالة . بل إننا احتفظنا بالأسرار التى تعرفها وتحملنا مرارة الاهمال عشرين سنة كاملة . فانظرى إلى يامولاتى واسألى نفسك من أنا ، أنا لست إلا ضابطاً فقيراً بغير مال ولا مأوى ولامستقبل ، ومع هذا لا أرى نظر ملكتى يتجه إلى بعد أن كانت طوال السنين قبلة أنظارى . ثم سلى نفسك عن زملائى الثلاثة ، وهل لقوا مايستحقون من جزاء الأريحية والبطولة . اننا خير مثال لشعبك الذى يحبك ، ولكنك تقابلين حبه بتجويعه ، فى يامولاتى ينصرف تقديرك إلى من هم أهل له لا إلى الجبناء أصدقاء الرخاء وإخوان الصفاء الذين يقبلون فى السراء ويذوبون عند الضراء ؟ فقوليها يامولاتى كلمة واحدة ، يحل الوئام محل الخصام ، وتنتهى حالة الحرب التى زلزلت كيان الأمة

ونظرت الملكة اليه بدهشة ، ثم قالت :

— لماذا لم تقل هذا الكلام قبل أن تقدم على العمل ؟

— لأنه كان ينبغى يامولاتى أن نثبت لجلالتك أمراً كان الظنون أنك لاتؤمنين به ، وهو أننا قوم يقام لهم وزن ، ويجب أن نكون محل التقدير

— قوم لايتراجعون أمام شيء فيما يبدو

— اننا لم نتراجع أمام شيء فيما مضى ، فلماذا نتراجع الآن ؟

— ويصل بكم الأمر إلى خطف وزيرى ، وربما خطفى أنا أيضاً وتسليمى لأعدائى ؟

— هذا لم يخطر لنا حتى الآن ببال

— يالكم من رجال من فولاذ . أين هذه المعاهدة ؟

فقدم اليها دارتانيان المعاهدة فأجالت فيها بصرها . ثم سألت :

— هذه شروط عامة ، فأين شروطكم الشخصية ؟

— لقد تركنا هذا لمكارم جلالتك ، ولا أظن أن جلالتك تضنين على الرجل الذى يرد اليك وزيرك الكردينال بترقيته إلى قيادة حرس الفرسان العامة

فتناولت براءة وملأتها ثم قدمتها اليه ، فأخذها باسماً وقال :

— هذه وظيفة تمنحيني إياها ، ومن يملك المنح يملك المنع . وأخشى أن أفصل من الخدمة بعد عودة الكردينال

— فماذا تريد إذن ؟

— نصا بسيطاً على دفع مائة ألف جنيه لقائد الحرس المسكين فى حالة الاستغناء عن خدماته

— مائة ألف ؟ هذا كثير

— وما رأيك فى إعلان الباريسيين عن استعدادهم لدفع ستمائة ألف لمن يأتيهم بصاحب النيافة حيا أو ميتاً ؟ ألا ترينهم لصوصا ؟

— انت إذن سدس لص فقط ، وهذه مزية . هاك النص كما طلبت ، وبعد ؟

— لى صديق غنى جداً وقد رأى صاحب النيافة بعد أن نزل ضيفاً مكرما معززا فى قصره أن يرفع ضيعته إلى طبقة البارونية . فأرجو أن تقر جلالتك وعد صاحب النيافة وتنعم على دى فالون بلقب بارون

— وهاك البارونية . وبعد ؟

— بقى صاحبى الشيفاليه دربلاى . وهو راهب

— أيريد رتبة الأسقفية الجليلة ؟

— بل أقل من هذا ، وهو أن يتطوع جلالة الملك بأن يكون شبيناً لابن الدوقة دى لنجفيل . وأن يمنح جلالة الملك الدوق دى لنجفيل ولاية نورمانديا ، وأن يهدى الدوقة نصف مليون بمناسبة عماد ابنها

— كله مقبول إلا النصف مليون ، فالكردينال لايفتأ يكرر أن خزانة الدولة خاوية

— أعتقد أنه سيراجع نفسه فى هذا القرار ويستعمل كراماته فى إيجاد المال !
— أليس لك زميل رابع ؟
— أجل يامولاتى ، الـكونت دى لافير
— وماذا يطلب ؟
— لا شىء
— أليس له ولد ، أو قريب ، أو ربيب ؟ رأيته ذات مرة موفدا من قبل الأمير كونديه حاملا إلى ألوية النصر فى موقعة ليترمع الدوق دى شاتيون
— له فعلا ربيب شاب يدعى الفيكونت دى فالون
— ما رأى الـكونت فى أن تمنح ربيبه قيادة فرقة فى جيشنا ؟
— ربما قبل إذا فاتحته جلالتك فى الأمر
— ياله من رجل غريب ، سنرى على كل حال . فهل أنت مسرور الآن ياسيدى ؟
— تقريباً . ولـكن بقى شىء واحد لم توقعيه جلالتك ، وهو معاهدة الصلح بالشروط التى اقترحها أهل باريس
فوقعت الملـكة وهى تغالب غيظها . وما وضعت القلم حتى انفجر غضبها كالبركان وراحت تنشج بالبـكاء ، فركع دارتانيان وقال لها بصوت مضطرب :
— مولاتى ، انظرى إلى هذا المسكين الراكع عند قدميك . إنه يؤمن بنفسه وبأصدقائه ويريد أيضاً أن يؤمن بك . وإليك الدليل : فهذا سيرد اليك السيد مازاران بلا قيد ولا شرط ، وهذه توقيعاتك يامولاتى على جميع البراءات الأخرى والمعاهدة ، خذيها ، وإذا شئت بعد ذلك أن تمنحيها بمحض اختيارك فالأمر لك
ثم قدم إلى الملـكة تلك الأوراق التى انتزعها منها بكل مشقة واحدة واحدة ، فتأثرت الملـكة كثيراً وشعرت أن كرامتها قد رد اليها اعتبارها ، فكفت عن البكاء وقالت له :
— صدقت ياسيدى ، فانى قد أسأت فهمك وتقديرك ، هـذه هى الوثائق أعطيها اليك بملء حريتى ، فاذهب وعد إلى بالـكردينال
— بقى لى مطلب واحـد يامولاتى : فمنذ عشرين سنة قبلت يد ملـكة عظيمة خلف ستارة فى بلدية باريس . وأشتهى الآن أن أقبل اليد الأخرى من هاتين اليدين الجميلتين
— هاك الأخرى حتى لاتـكون اليد اليسرى أقل سخاء من أختها اليمنى ، واحتفظ بهذا الخاتم الذى فيها تذكاراً منى



وبعد خمس عشرة ساعة كان بورتوس يرقص فى حجرات القصر وفى يده براءة البارونية . وكان دارتانيان مشغولا بوضع علامات القيادة فوق سترته العسكرية . وكانت باريس كلها تقيم الأفراح باعلان المعاهدة

اقرأ الشقيقات الثلاث

